الساعات الأخيرة

لطائفة من أعلام الشرق والغرب

طاهر أحمد الطناحي

تقديم

عباس محمود العقاد

الكتاب: الساعات الأخيرة... لطائفة من أعلام الشرق والغرب

الكاتب: طاهر أحمد الطناحي

تقديم: عباس محمود العقاد

الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

الطناحي ، طاهر أحمد

الساعات الأخيرة... لطائفة من أعلام الشرق والغرب / طاهر أحمد الطناحي، تقديم: عباس محمود العقاد

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٥٠ ص، ١٨ سم.

الترقيم الدولى: ٨ – ٢٧ – ٦٧٧٤– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٢٣٩٠٣ / ٢٠١٩

الساعات الأخيرة

لطائفة من أعلام الشرق والغرب

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

تقديم

من قديم الزمان، كان تقديس الحياة الأخرى– أو تقديس غروب الروح في العالم الآخر– أدباً مأثوراً عن المصريين الأولين. ومن بواكير عصر التاريخ، كان كبير آلهتهم "أوزوريس" موكلاً بالشمس الغاربة والشموس الغاربين، ومن هذه الشموس نيران آدمية كانت تنير، وطلعات كانت تطلع، وقلوب كانت تشع في حرارتها وميض الحياة

لقد كان جميلاً بأولئك الأولين أن يستقبلوا الشمس الغاربة، فما في استقبال الشموس الطالعة من نخوة نادرة في طبائع الأحياء، وكان جميلاً منهم أن يزدان شاطئهم الغربي بأعظم الهياكل، وأخلد الآثار، فحسب المطلع الشرقي من زينته أنه قبلة الناظرين، وأنه غني عن استقبال الذاكرين

يقول كونفيشوس حكيم الصين: "معاملتنا الموتى كأنهم موتى، ولا شيء غير ذلك، فقدان للعطف والوفاء، ومعاملتنا الموتى كأنهم أحياء ولا شيء غير ذلك، فقدان للعقل والحس.. فلا هذا ولا ذاك، ولكنه قوام بين الأمرين"

أبناء الشرق جميعاً– على ما ظهر لنا– عارفون بحق الغروب في العالم الآخر، عارفون بحق الغاربين.. فهم لا ينسونهم كأنهم ميتون ولا شيء، وهم لا ينافسونهم كأنهم أحياء ولا شيء، ولكنهم يذكرونهم ويعفونهم من صراع

المنافسة بين الأحياء. وعلى هذه السنة درجت حضارة الشرق البعيد، وعليها في هذه الرقعة من الأرض درجت حضارة وادي النيل

نعم.. وعلى هذه السنة، جرى زميلنا الأديب المؤرخ "طاهر الطناحي"في كتابه "الساعات الأخيرة" أو "ساعات الغروب". فهو من سطره الأول إلى سطره الأخير وفاء للشموس الغاربة، وذكرى للأيام الذاهبة، وهو في لبابه شريعة مصرية يباركها الأولون والآخرون. ولو لم يكن فيه إلا أنه جزاء كريم لمن كف الموت أيديهم عن الجزاء، لكان جديراً من الأحياء بالجزاء الحسن والثناء الجميل

في هذه الصفحات، صفحات أخيرة من كل سيرة.. وفي هذه السير شيء عن العباقرة والأئمة والزعماء.. وكلهم شموس سطعوا في سماء الحياة، وكان منهم النور والدفء، والهداية والرعاية، والقوة والنهضة والرشاد والسداد

وقد بدأ الكتاب بفصل من الطبقة العالية متسائلاً: "لماذا نخاف الموت؟" وكان من الحق أن يسأل هذا السؤال، إذا كان الموت كله طريقاً للخلود، وباباً يطرقه أولئك الخالدون

لماذا نخاف الموت؟.. سؤال قد أجاب عنه أناس ميتون، وأن لم يكونوا ميتين، يوم تركوا لنا جوابهم المحفوظ في سجل الخالدين

يقول الشاعر سفوكليس:

- ليس الموت أسوأ شرور الحياة، فشر من الموت أن تتمناه ولا نلقاه!

ويقول الخطيب شيشرون:

- لا أريد أن أموت.. ولكني لا أبالي أن أموت

ويقول الفيلسوف طاليس:

- لا فرق بين الحياة والموت!..

فقيل له:

- ولماذا تحيا؟..

فقال: "لأنه لا فرق بين الموت والحياة...!"

وغير هؤلاء قالوا غير هذا المقال، فشاعرنا أبو الطيب يقول:

وإذا الشيخ قال أفَّ فما ملَّ حياة، وإنما الضعف ملأ

ولكنه يقول أيضاً:

ألف هذا الهواء أوقع في أن الحمام مر المذاق

والأسى قبل فرقة الروح عجز والأسى لا يكون بعد الفراق

والضرير البصير شاعر اليونان الكبير، يقول على لسان بطل من أبطاله: "لخير لي أن أعيش عبداً لأفقر الفقراء، من أن أموت ملكاً على أشباح الظلماء".. ولكنه عاش ليصوغ آيات الثناء لمن آثروا ميتة الأبطال على عيشة الجبناء..!

أما الذي نؤمن به نحن فهو أن الخوف من الموت غريزة حية لا معابة فيها، وإنما العيب أن يتغلب هذا الخوف علينا، ولا تتغلب عليه كلما وجب أن نغلبه في موقف الصراع بين الغريزة والضمير، فإن الخضوع له في هذه الحالة ضعف، والضعف شر من الموت

***

والأستاذ طاهر الطناحي يروي عن الفيلسوف الفرنسي شارل رينوفييه تعليله لخوف الموت حيث يقول: "إن الإنسان عندما يكون شيخاً، وقد اعتاد الحياة، يصعب عليه كثيراً أن يموت، وأن الشبان كما يرى أكثر خضوعاً للموت من الشيوخ".. كأنه يريد أن تقول أن الشبان لم تطل بهم عادة الحياة فلم يألفوها كما ألفها الشيوخ، ولو طالت بهم لخافوا فراقها، وخذلتهم الشجاعة عند شعورهم بالخطر عليها..

أما الواقع كما نراه، فهو أن الشيوخ يخافون الموت لأنهم ضعاف، والخوف أقرب إلى طبيعة الضعفاء.. ولا فرق في هذه الخلة بين الشيخ والفتى إذا تشابها في الضعف أو تشابها في قلة الثقة بالحياة..

فالمحنة كلها إنما هي محنة الضعف أمام الموت، ولا فرق بين الضعف أمام الموت والضعف أمام الحياة، فإن الحي الضعيف يهاب في حياته أموراً كثيرة قبل أن يهاب الموت الذي يسلبه تلك الحياة..

وأسلوب القرآن الحكيم خير الأساليب في التعريف بموضع المذمة من حب الحياة أو كراهة الموت.. فلا ملامة في أن يحرص الإنسان على الحياة، فلا يلقى بيديه إلى التهلكة.. وإنما الملامة أن يكون "أحرص الناس على حياة".. أي حياة وكل حياة، وبغير تفرقة بين أرفع حياة وأسفل حياة!..

***

ولكن لا ملامة على الإطلاق في حب الحياة كما نريدها، وبالشروط التي نرضاها، فتلك هي القوة أمام الحياة وأمام الموت على السواء..

ولست أحسب أن أحداً يهوِّن على النفوس حب وجوده إلا وهو مغالط في كلامه، إذا كان الوجود قد انقاد له بما نرتضيه نحن من شروطه ومحاسنه. ولست أذكر أن قلما جرى في تهوين خوف الموت بأبلغ من كلام الأديب الكبير، وليام هازليت حيث يقول: "لعل العلاج الأمثل لخوف الموت أن نذكر أن الحياة لها بداية كما لها نهاية، وأنه كان بالأمس زمن لم نكن فيه.. فلماذا يشغلنا إذن أن يجيء زمن لا نكون فيه؟"

إلى أن يقول: "ما أجد في نفسي رغبة أنني كنت حياً على عهد الملكة آن قبل مائة سنة، فما بالي أهتم بأن أكون حياً بعد مائة سنة في عهد من لا أدري ما اسمه من الملوك أو الملكات؟"

فهذا كلام بليغ في الأسلوب الخطابي الذي يقوم على التزويق، وعلى القياس مع الفارق البعيد أو القريب، فإن الفرق ظاهر بين ماض لم أفقده لأنني لم أكن موجوداً فيه، وبين مستقبل سأفقده لأنني وجدت في الحاضر، ثم انقطع بي الوجود قبل الوصول إليه.. فليس في هذه البلاغة إقناع، بل فيها تلطيف للواقع ومحاولة للعزاء حيث تحتاج إلى العزاء

غير أننا لا نحتاج إلى المغالطة، ولا البلاغة الخطابية، حيث نفرق بين الحياة وبين كل حياة وأي حياة.. فمن يقبل الحياة بشروطه لا حاجة به إلى مقنع يقنعه بأن الموت خير من الحياة التي تنعدم فيها هذه الشروط.. ومن يقبل كل حياة، ويحرص على أي حياة لن تجديه بلاغة، ولن تجوز عليه مغالطة في خوفه من الموت، كيفما كان، وفي تشبثه بالحياة كيفما تكون

ولعلى أنصف الحياة نفسها، إذا قلت أن خوف الموت ذو فضل عظيم على الأحياء، وأنه كما قال أبو العلاء:

وخوف الردى آوى إلى الكهف	وعلم نوحاً وابنه عمل السفن
وما استعذبته روح موسى وآدم	وقد وعدا من بعده جنتي

فلا ضير أن تتقى الموت فنحيا كما ينبغي أن نحيا، وإنما الضير أن تغلبنا هذه التقية فنحيا كما لا تنبغي حياة

وقد اشتمل كتاب "الساعات الأخيرة" لمؤلفه الأديب المؤرخ الأستاذ طاهر الطناحي على عشرين سيرة.. ليس منها ما هو أشد اختلافاً في النشأة والتربية والمذهب والثقافة والخصال الشخصية من السيد توفيق البكري، والآنسة مي زيادة رحمها الله، ولكنهما مع هذا هما الوحيدان اللذان انتهت حياتهما بمأساة نفسية أو عقلية واحدة، ووقفت فيما أعتقد على السبب المباشر لهذه المأساة..

أصيب كلاهما في أخريات أيامه بوسواس الاضطهاد، ونزل كلاهما زمناً بمستشفى العصفورية في لبنان، وبدأت المأساة عندهما بصدمة مزعجة سبقتها صدمات، ثم استحكمت جميعها حتى استعصى فيها العلاج

***

أذكر أيام اشتغالي بتحرير صحيفة "الدستور" حوالي سنة ١٩٠٨ أن السيد توفيق البكري ذهب إلى ميدان القلعة في الاحتفال بالمحمل، ولم يخرج أتباعه من أصحاب الطرق الصوفية للاشتراك في ذلك الاحتفال.. وكانت بينه وبين الخديو عباس الثاني جفوة شديدة في ذلك الحين، فاعتقد الخديو أن السيد تعمد منع الطرق الصوفية في ذلك اليوم إخلالاً بتقاليد الموكب التي جرى العمل عليها مئات السنين، وسأله في غضب: "لم لا أرى هنا مواكب الطرق الصوفية؟" فقال السيد ما معناه أنه منعها لأنه قد حان

الأوان للتخلص من هذه البدع.. فانتهره الخديو وخاطبه بكلمة قاسية، ردها السيد بما هو أقسى منها على مسمع من جميع الحاضرين.. وترك المكان غير مستأذن، وهو يردد كلمته في شيء كثير من الاضطراب

أذكر بعد ذلك أن صحيفة "الدستور" كتبت تؤيد السيد في موقفه من بدعة الإشارات والمواكب، فأرسل السيد مبلغاً من المال باسم الاشتراك في الصحيفة، ولكنه أكبر من قيمة الاشتراك فيها، فأبى العالم الفاضل المرحوم الأستاذ مُحَّد فريد وجدي صاحب "الدستور" أن يقبله، وأعاده إلى السيد بعد خصم القيمة السنوية المكتوبة في رأس الصحيفة. وشاع في السنوات التالية أن السيد– رحمه الله– قد ساوره الوسواس، وأخذ يسأل كل من يلقاه عما يراد به ويدبر له في الخفاء.. ثم تفاقم الداء حتى غطى على تلك الألمعية النيرة، فقضت بدائها الأليم بعد عشرين سنة ونيف..!

***

تلك مأساة السيد توفيق... أما مأساة الآنسة مي، فقد بدأت قبيل سنة ١٩٣٠، ولم تزل كامنة تتفاقم في الخفاء حتى ظهرت بغد ذلك سنوات..

أذكر أنها عادت من إيطاليا في صيف إحدى السنين، وذهبت أسلم عليها بعد عودتها، فجرى الحديث عن موسوليني وهي تعلم رأيي فيه، ورأيي في جميع الحاكمين بأمرهم.. فقالت لي في اضطراب ظاهر: "لقد أضجرونا بأحاديثهم عن الدولة الرومانية ومجد الدولة الرومانية، وتجديد

الدولة الرومانية... أليست دولتهم الرومانية هذه هي التي طاردت السيد المسيح، وأسلمته إلى أعدائه؟.. لقد قلت لهم هذا في عاصمة الدولة الرومانية.. نعم قلته لهم وليكن ما يكون"

قلت: "وماذا عسى أن بكون؟.. لا شيء!"

نعم لا شيء كان ينبغي أن يكون من جراء هذا الحديث، ولكنه قد كانت منه أشياء بعد ذلك لأنه اقترن بالحالات التي تتفاقم من جرائها أمثال هذه الصدمات، فلم نلبث فترة من الزمن حتى سمعنا الآنسة تعيده متوجسة مضطربة، وتسألنا: ألم نعلم أن الدوتشي يتعقبها ويريد أن ينتزعها حية أو ميتة؟.. أليس صحيحاً أنهم قرروا في إيطاليا إجراء بعض التجارب العقلية والجسدية للاستعانة بها في أعمال التعذيب والإكراه على الاعتراف، وأنها هي إحدى الفرائس التي يقصدونها بالتجربة على التخصيص..

***

حادثان مشابهان قد انتهيا بنتيجة واحدة، ولكن كل حادث منهما يقع في كل يوم لمئات من الناس، ولا ينتهي بمثل تلك النهاية، ولا بما يقاربها.. فمثل هذا الحادث لن يكون وحده سبباً لوسواس الاضطهاد، ولا سبباً لاستعصاء ذلك الداء الأليم، وإنما يكون الحادث سبباً مباشراً لإظهار أعراضه الكامنة وتفاقم شرورها وعقابيلها، إذا أحاطت به صدمات نفسية متعددة.. ولاسيما إذا تجمعت تلك الصدمات في السن التي يسميها الأطباء بسن الحرج، ويسميها الفقهاء بسن اليأس في بعض الأحيان

climactric هذه السن تبدأ عند المرأة في نحو الخامسة والأربعين، وتتأخر قليلاً عند الرجال فلا تبدأ عند الكثيرين منهم قبل الستين، وقد تبكر فتبدأ في الأربعين..

وهذه السن، في أحد جوانبها، هي انقضاء وظيفة مهمة من وظائف البنية الحية، ولكنها من الجانب الآخر مرحلة جديدة في الحياة الإنسانية يصحبها أحياناً صفاء في العقل، وسكينة في النفس، وقدرة خالصة على فهم الحياة بمعزل عن الأهواء..

والمعول في التفرقة بين الطورين، على الحالة التي تصاحب سن الحرج.. فإن أدركت إنساناً وهو عامر النفس بالعطف والحنان، مملوء الذهن بالشواغل التي توافقه وترضيه، فذلك خير وراحة، وإن هي أدركته وهو منقطع عن العطف، معرض للقلق، مستسلم للهواجس.. فذلك هو الخطر الذي تخاف عقباه

***

في حالة السيد توفيق جاءته الصدمة في أبان القلق وسوء الظن بالدنيا وبالناس.. جاوز الثلاثين منهوك الأعصاب مهدود البنية، وألقاه مركزه الاجتماعي بمعترك الأزمات السياسية بين مصر ولندن والآستانة، وحدث أن زائراً من أصحابه استدرجه حتى كتب له بخطه قصيدة في باب من العزل المحظور، ووصلت هذه القصيدة إلى المعتمد البريطاني فأغلق أمامه الأبواب في قصر الدوبارة، كما أغلق الخديو دونه أبواب عابدين.. وسبق إلى ظنه أنه مهدد في منصبه وسمعته، بغير اطمئنان إلى الحماية من

أحد، فلما وقعت الصدمة علانية بينه وبين الأمير، خالطه الخوف من كل جانب، وتوهم أنه مقتول أو مسموم أو مغدور به على وجه من الوجوه لا محالة، ثم انقلبت أزمة السن أو أزمة الحرج إلى داء عضال!

***

أما الآنسة مي، فقد لحق بها خوف الاضطهاد، وهي معرضة له مستهدفة لوسواسه وأوهامه منذ زمن ليس بالقصير.. وكانت قد بقيت وحيدة في معيشتها بعد فقد أبيها ثم فقد أمها، وبعد خيبة رجاء في الحياة البيتية لم تكن تبديها، ولم تكن مع ذلك قادرة على إهمالها. وأطبقت النكبات عليها، وهي في هذه العزلة، بادعاء المدعين وطمع المتقاضين.. فجاء إليها بعضهم- كما قال الأستاذ طاهر الطناحي- يطالبها بثلاثمائة جنيه، لأن أرضه مرهونة، فلما طلبت أن تطلع على وثيقة الرهن أطلعوها وضيقوا عليها في الطلب، وهي في شكواها وضيقتها لا تصرح لأحد بما يثير في نفسها هذه الآلام..

ومن بلاء هذا الداء- داء الاضطهاد- أن الإقناع فيه متعذر أو مستحيل، فإذا حاولت أن تنزعه من صاحبه سرى الشك إليه في إخلاصك واتهمك بأنك من المؤتمرين به والعاملين على إنفاذ الدسيسة فيه وإجازة الغفلة عليه. وقد وقعت في هذا الخطأ مرة، وأنا أحسب أن الأمر أوضح من أن يقبل اللبس والخفاء، فزرت الآنسة "مي" ورأيتها ترتجف وهي تفتح الباب، وتشير إلى المسكن الذي أمامها وتضع أصبعها على فمها تحذرني من الظلام. قالت: "ألا ترى هذه الحجرات وما فيها من

النور؟ أنها خالية خاوية فلماذا ينيرونها في هذه الساعة؟.." فاتجهت إلى تلك الحجرات وسألت عاملاً وجدته عند بابها، فعلمت منه أنهم يعدونها للتسليم في اليوم التالي، وهو أول الشهر وأول تاريخ الإيجار.. فلما أنبائها بما علمت بدا عليها الخوف وخطر لها أنني أخفى عنها المؤامرة أو أشترك مع المتآمرين..!

ووقع ثل هذا الخطأ مع السيد البكري بدار الكتب المصرية، فرأيت الشاعر أحمد نسيم يكلم السيد، والسيد يتلفت حواليه. قال السيد: "إن الخديو يأتمر بي، ويلاحقني إلى هنا، ويرصد لي هذا وذاك" وأشار إلى بعض الجالسين في حجرة المطالعة... فقال نسيم: "إن أيام الخديو عباس قد انتهت، فلا خوف منه عليك"

فانتقض فزعاً وهو يتراجع ولا يرفع نظره عن محدثه، وقال لي نسيم أنه كان يلقاه بعد ذلك فيدير عنه بصره ولا يسلم عليه..

رأسان لا معان، سرى منهما النور، وسرت إليهما النار.. واحترقا بما اشتعل فيهما من ذكاء، وقد سلما من الاضطهاد حقاً، ولم يسلما منه ظناً ووهماً.. كأنما هذا الاضطهاد قسمة بالحق أو بالباطل لكل عقل منير .

عباس محمود العقاد

نظرات في الحياة والموت

الموت جانب من الحياة الدنيا.. والحياة جديرة بأن تعرف بخيرها وشرها، بنورها وظلامها، بهنائها وآلامها

والخير والشر نسبيان، كما أن نور الحياة وظلامها في الحقيقة متشابهان. وليس الهانئ الطروب، بأسعد من المتألم المكروب، ولا الخلي الباسم، بأكثر حظاً من الشجي المتشائم. وقد جئنا من العدم، وسنعود إليه، وخرجنا من الأموات، وسندخل طائعين أو كارهين إلى قبورهم..

والقبر ماثل بين حياتين: حياة مادية، ندعوها الحياة الأولى، وحياة معنوية، أو روحية، ندعوها الحياة الأخرى. وهي حياة طالما اشتهاها الكثيرون أما رغبة في ثواب، أو خلاصاً من عذاب. ولعل الموت في عبوسه أجمل حالاً من الحياة في ابتسامها، وأخف هولاً من الأيام في أشجانها

ما أعدل الموت من آت وأستره	فهيجيني، فأبي غير مهتاج
العيش أفقر منا كل ذات غنى	والموت أغنى بحق كل محتاج
إذا حياة علينا للأذى فتحت	باباً من الشر لاقاه بارتاج

وفي ظلام الموت ما يبعث على اجتلاء الغوامض، وفي عبوسه ما يحفز إلى اكتناه الحقائق، وفي آلامه ما يهذب النفس، ويروض القلب على احتمال أعباء الحياة. وقديماً كان للموت مكان من التقديس عند الفراعنة،

ينظرون إليه كغاية لهذه الحياة، وبداءة لحياة جديدة، فرمزوا إليه برموز عدة سميت آلهة، كان أكبرها الآله "أزوريس" إله الموتى

والموت يطهر الحياة، كما ينقل الاطهار إلى حياة أرقى. وهو في جلاله الرهيب، ووقاره المهيب، وسلطانه الشامل، يتجلى في أروع مظاهره، وأبلغ عظاته، حين يضرب أطنابه على فراش عاهل عظيم، أو مفكر جليل

هناك ترى من روعة الموقف، ما تقترن فيه عظمة الموت بعظمة الميت. ومن رهبة المأساة، ما يمتزج فيه جلال المصيبة بجلال المصاب. فتشعر النفوس بأكبر وجود للفقيد، وترى من شخصيته في مماته، ما حجب عنها أيام حياته، وتفهم من معنى خلوده، ما لا تفهمه أثناء وجوده. وكأنما الموت قد خلع عليه حياة جديدة هي خير وأبقى من هذه الحياة الأولى. قال برناردشو: "الحياة تسوي بين الناس، والموت يبرز فضل الفضلاء"

ونحن الأحياء نعيش في فضل الموتى من الزعماء والأدباء والعلماء فقد بنوا لنا الحياة، ومهدوا سبلها، وأقاموا لنا صروحها، وملأوها نوراً من سماء عقولهم، ونشروا في أردانها عطراً من زهرات نفوسهم، وجملوا وجهها بجمال فنونهم، وكانوا في الحياة أحياء بجهادهم، وفي الموت أحياء بآثارهم.. فحق علينا أن نمجدهم في قبورهم، ونذكرهم في مآسيهم،وتتخذ من قصص مماتهم عبرة الأجيال للأجيال

وإذا كانت النفس الإنسانية مجبولة على حب التحول من حال إلى حال، نواقة إلى التنقل من لون إلى لون، فإنها لتجد في الحديث عن الموت

بعدما سئمت حديث الحياة، رياضة ذهنية، ولذة روحية، وإيماناً بالتضحية في سبيل المثل الأعلى، ما دام هذا الحدث هو نهاية كل حي

فكرة الموت

هذا، وقد فكر الإنسان في الموت– ولعله الحيوان الوحيد الذي فكر في نهاية الحياة– لأنه وهب فكراً، والفكر مخلوق متحرك لا يقف عند حد. ولأنه بما جبل عليه من حب الحياة، وحرصه عليها، وغرامه بها، لا يستطيع أن يتصور لنفسه وجوداً موقوتاً، لا وجود بعده، فهو يفكر ويبحث، ويريد استكمال هذا الوجود بعد تلك النهاية المحتومة، ولو كان الوجود الآخر بالذكر الخالد، أو بالولد النابه، أو بالروح في حياة ثانية ليست كالحياة التي نحياها. ويستوي في ذلك المؤمنون والملحدون

وكان الإنسان القديم يعتبر الموت نهاية الحياة، وخاتمة فصلها الأليم. وكانت الأديان القديمة كالبوذية في شكلها الأول، لا تعني بما بعد الموت، وكانت القبائل البدائية تعتقد أن الموت الطبيعي لا يحدث إلا بالسحر، أو بالشيطان. وكان المرض في اعتقادهم شيطاناً يعتري الجسم، ويريد أن يفتك به، فيستعينون في علاجه وإخراجه بالتعاويذ. وما تزال بعض قبائل غرب أفريقيا إلى الآن تعتقد أن الموت "جريمة" ارتكبها بالسحر شرير من أعداء الميت. ولهذا يضعون الميت أثر موته فوق أغصان الشجر، ويحمله أربعة رجال، يقفون، ثم يأتي رئيس القبيلة، فيسأل الميت قائلاً:

– هل كان موتك بالسحر؟

فإذا ظل الرجال الأربعة ثابتين في أماكنهم، كان معنى ذلك أن الميت يجيب بالنفي.. أما إن تحركوا، فإن هذه الحركة تدل على أن الميت يتألم ويشكو لأنه مات بالسحر. على أنهم في بعض الأحيان يعتقدون أن الميت هو الذي ارتكب جريمة الموت إذا كان ساحراً، لأن عمله ينقلب عليه..

وبعض العامة في بلادنا يخشون على أطفالهم وأقاربهم من الموت "بالعين" وينسبون إليها كثيراً من حوادث الموت. وتأثير العين عندهم، كتأثير السحر عند تلك القبائل

سيد الحياة

ولم يفكر قدماء المصريين قبل عهد الأسرات فيما بعد الموت. وكان اعتقادهم في الموت، لا يختلف عن اعتقاد الأمم البدائية من أنه نهاية كل حي. ونصيب الإنسان في هذه النهاية كنصيب النبات، يذوي ويموت، ثم يندثر ويتحلل إلى العناصر الأولى. ولما ارتقت حضارتهم، وتقدمت حياتهم العقلية صاروا يعتقدون أنه انتقال من حياة إلى حياة، ومن ظلام بشرى، إلى نور إلهي، حتى أطلقوا على تابوت الموتى اسم "نبعنخ" ومعناه "سيد الحياة"، وأطلقوا على القبر "حت نت نحح" أي "قصر الأبدية"، وعلى الميت اسم "اوجا أن عنخ" أي "الذاهب إلى الحياة"، وكذا "حتب ام عنخ" أي "المستريح في الحياة"

والإنسان عندهم يتكون من شيئين "خعت" وهو الجسم، و"با" وهو الروح. ولكل إنسان قرين يدعى "كا" يتشكل بشكل الجسم، ويبقى حياً

مع الميت في قبره. ومن أجله وضعوا في القبر الأطعمة التي كان يهواها في حياته، والأدوات التي يستعملها، ظانين أنه متى ترك وحيداً اعتراه الجوع والظمأ، وهاجمته وحوش مخيفة تهدده بموت آخر.. فإذا نليت الدعوات، وأقيمت الصلوات على الميت، نال بسببها الطعام والشراب والأدوات، ودفعت عنه الآلهة هذه الوحوش

بقاء الروح

ثم ارتقت فكرتهم عن الحياة الأخرى، فأصبحوا يعتقدون أن أعمال الإنسان في حياته الأولى هي التي تضمن له السعادة، أو تؤدي به إلى الشقاء بعد الموت. وهذه الأعمال تعرض على مجلس مؤلف من ٤٢ قاضياً يرأسهم الإله "أزوريس" إله الموتى. وهناك ميزان توزن به أعمال الميت، فمن رجحت موازينه نجا وفاز بالسعادة الباقية، ومن خفت موازينه لقي العذاب الأليم. وقد اعتقدوا أن جوارح الإنسان في الآخرة تشهد عليه– وجاء ذلك فيما بعد في الدين الإسلامي– قال تعالى: {يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [النور: ٢٤]

ومن دعوات قدماء المصريين الدينية المأثورة: "يا قلبي.. يا قلبي الذي يأتي من أمي.. قلبي الذي كنت به في الأرض، لا تكن شاهداً علي، ولا تختصمني، لأنك رئيس قدسي.. ولا تتهمني بشيء أمام المعبود الكبير"

وقد قال ماسبرو– ونقل عنه المرحوم أحمد كمال باشا–: أن أغلب المصريين القدماء كانت لهم معرفة قليلة بما يؤول إليه "كا" بعد الموت.

ومبلغ علمهم في أمره أنه متى دخل القبر استقر وعاش فيه، ولا يفارقه إلا طلباً للزاد والقوت.. فإذا خرج من جدثه، هامَ في القرى، وألقى بنفسه على المآكل، وحسد الأحياء، وتعمد الانتقام منهم بسبب اعتزالهم له. فيأخذ في إزعاجهم، وأصابتهم بالأمراض، وقد يضر بعض الناس بلا سبب إذا كان رديئاً، فتحمله رداءته على إيذائهم، حتى ذوي القربى

واستدل على ذلك بما قيل عن كاتب مصري يدعى "كيبي" كانت زوجته "عنخاري" تأتيه بعد موتها كل ليلة، ويظهر شبحها له في شكل مخيف، فيتفنن في تعذيبه، مع أنه كان باراً بها في حياتها، وفياً لها بعد مماتها، فأقام لها مأتماً عظيماً، وأوقف للصدقة عليها عقاراً كبيراً. فلما استمرت في تعذيبه عدة أشهر كتب لها رسالة قال فيها:

"منذ تزوجتك لم أسيء إليك، ولم أفعل منكراً يغضبك.. فما جوابك إذا وقفنا أمام "أزوريس" وقضاة الآخرة، وقضوا عليك بالعقاب. ثم ماذا يكون اعتذارك؟"

وأمضى الرسالة، وعلقها فوق تمثال من الخشب، فخافت الزوجة "الكا" سوء العاقبة. و"كا" عندهم من الأرواح مثل "با". وهناك روح ثالث يدعى "خو" أي المنير، فللإنسان في اعتقادهم ثلاثة أرواح

***

وسواء أكانت الروح واحدة، أم متعددة، فإن القصة السابقة من الحوادث الواقعية التي تؤيد ما يذهب إليه علماء "الاسبرتزم" أي المباحث الروحية في العصر الحديث مثل: كاميل فلامريون، واولفرلودج، ووليم كروكس، وغيرهم ممن يعنون بالتجارب الروحية، لإثبات أن للإنسان حياة أخرى، وأن روحه باقية بعد موته، ويمكن الاتصال بها، وأن هذا الموت الذي يعتري الجسم ليس فناء نهائياً، بل هو انتقال من عالم مادي إلى عالم روحي خالد

وقد كانت فكرة البعث والجنة والنار موجودة عند قدماء المصريين، قبل الأديان الحديثة بآلاف السنين، وكذلك الحساب، والميزان الذي توزن به الأعمال لتقرير المصير، فأما إلى النعيم، وأما إلى الجحيم. وفي بعض النقوش والرسوم التي وجدت على الأحجار، أو في الأوراق البردية رمز الجنة والنار، فترى الأطعمة موضوعة في مجلس "أزوريس" إشارة إلى الجنة، والأسد رابضاً متحفزاً إشارة إلى النار

والجنة عندهم قائمة في مكان خصيب يانع الثمر، يبلغ ارتفاع القمح فيه سبع أذرع، وطول السنبلة وحدها فيه ذراعان، ولا شاغل لسكان الجنة سوى التمتع باللذات

***

وقد جاءت الأديان الحديثة بتأييد الحياة بعد الموت.. بل من القواعد الرئيسية في الإسلام، الإيمان باليوم الآخر مع الإيمان بالله وملائكته وكتبه

ورسله. وتحدثت الكتب المقدسة عن الروح، ووصفت الحياة الأخرى وما يجري فيها، وما سوف يناله الصالحون من جنة، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت... وما يلاقيه المجرمون من نار {وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [التحريم: ٦]

وقد شايع الفلاسفة العقليون الأديان الحديثة في ثبوت الحياة بعد الموت. أما الفلاسفة الماديون، فيعتقدون أنه لا فرق بين النبات والإنسان في العدم. ويستدلون بالخوف الطبيعي من الموت، على الفناء النهائي الذي يلحق الإنسان بموته دون أن تتلوه حياة أخرى، ويقولون أنه إذا كان هناك حياة أخرى لما جزع الإنسان من الموت هذا الجزع العظيم

يهال التراب على من ثوى فآه من النبأ الهائل

لكن الفلاسفة العقليين يردُّون على ذلك بأن الخوف من الموت ناشئ عما جبل عليه الإنسان من حب الخلود

وهذا الحب الذي يشعر به على الدوام، يدل على شعوره الخفي بأن هناك وجوداً دائماً قدره الخالق للروح، وإلا لما أحس الإنسان هذه الرغبة الشديدة في الحياة، وهذا الشوق القوي إلى البقاء. أما تعلقه بالحياة الأولى فهو لعمران الأرض، ولفائدة المجتمع، ثم لأنه يجهل الموت، أو يخاف ألمه، ويستوي في هذا الإحساس الطبيعي العالم والجاهل، والكبير والصغير، والصالح والطالح

وخوف الردى آوى إلى الكهف   وكلف نوحاً وابنه عمل السفن
وما استعذبته روح موسى وآدم   وقد وعدا من بعده جنتي

لماذا نخاف الموت؟

"ليت عندي من القوة ما يمكنني من تحريك القلم، حتى أشرح سهولة الموت ولذته..!"

ذلك ما قاله العالم الإنجليزي الكبير "وليم هنتر" وهو على فراش الموت يجود بنفسه الأخير. ويبدو للقارئ– لأول وهلة– أن هذا العالم لا يعني الواقع، وأنه يريد باللذة ما يشعر به من الخلاص من أعباء الحياة الثقيلة. أما الجسد، فإنه يتألم بخروج الروح، ويتعذب بسكرات الموت، لأن الإنسان قد فُطِر على الخوف من الموت، وتخيله شبحاً هائلاً مروعاً، يقبل في ظلام، وينزل بالأهوال والآلام، فيجفل من ذكره، ويشعر في أعماق نفسه بكرهه، ويلتمس النجاة منه إلى الأبد لو استطاع إلى ذلك سبيلاً..

والخوف من الموت عند الشيوخ أكثر منه عند الشباب، لأن الشيخ اعتاد الحياة، ومن اعتاد شيئاً ألفه، وإن كان فيه ما يؤلمه..

وإذا الشيخ قال أفَّ فما ملَّ   حياة وإنما الضعف ملَّ

وقد قال الفيلسوف الفرنسي "شارل رينوفييه" قبيل موته بأيام، وكان قد بلغ الثامنة والثمانين:

"عندما يكون الإنسان شيخاً، وقد اعتاد الحياة، يصعب عليه كثيراً أن يموت. وأرى أن الشبان أكثر خضوعاً للموت من الشيوخ، فإنه حينما يجوز الإنسان الثمانين يصبح جباناً، ويكره أن يموت، ومتى تحقق دنو أجله تحزن نفسه وتتململ. وقد درست هذه المسألة من كل وجوهها، وراجعت في ذهني مراراً علمي بدنو أجلي، ومع ذلك لم أتمكن من أن أقنع نفسي بأني ميت عما قليل. ليس الذي يهلع في نفسي من الموت هو "الفيلسوف" لأن الفيلسوف لا يصح أن يخاف الموت، بل "الإنسان القديم" هو الذي يخافه، فهذا الإنسان لا شجاعة له، ليذعن، مع أنه يجب أن يذعن لما لا بد منه"

نعم.. الإنسان القديم هو الذي يخاف الموت، ويتوهم أنه مؤلم.. ونحن إنما نخاف الموت بهذا الشعور الوراثي القديم.. أما الموت في حقيقته، فليس جديراً بأن نخافه هذا الخوف العظيم..

ونحب أن نتكلم عن لخوف أولاً وعن منشئه.. وللقدماء والمحدثين في ذلك آراء كثيرة، وهو على كل حال يعرض من توقع مكروه وانتظار محذور. ولكن لماذا تتوقع المكروه وننتظر المحذور، وهما من الأمور الممكنة التي تحدث أو لا تحدث؟

والجواب عن ذلك، أن الإنسان وجد في هذه الحياة وهو محوط بكثير من القوى الطبيعية التي تغالبه، وأنواع الحيوان التي تنازعه البقاء. وكان لابد له– وقد فطر على حب الحياة كما فطر عليها كل حي– أن يكافح هذه

القوى المختلفة، فأما غلبته وأما تغلب عليها. وقد ذهب ضحية هذا الكفاح بين الطبيعة والإنسان، وبين الإنسان والحيوان، أرواح إنسانية كثيرة تعذبت وتألمت، وفقدت هذه الحياة التي كانت تحرص عليها وتكافح من أجل الاحتفاظ بها

ورأى الإنسان ما حلَّ بأخيه الإنسان من هذه الحوادث المحزنة، وذاك الصراع المؤلم.. وشاهد قبل تحضره، كيف تنتهز الوحوش غفلته في الظلام وفي الأماكن الموحشة فتفترسه، أو تخطف أطفاله، أو تغضب مادة حياته، فنشأ عنده الحذر منها، وأصبح يخشى أن يقع فريسة لها، وصار يتجنب السير في الظلام وفي الأماكن الخالية، وجعل يحذر أطفاله من السير ليلاً أو في تلك الأماكن حتى لا يعرَّضوا أنفسهم لافتراس الوحوش. وروى لهم القصص المخيفة ليزيد في تحذيرهم، فرسخ هذا الحذر في نفوسهم، وانتقل إلينا بواسطة العقل الباطن.. فورثناه نحن فيما ورثناه من طباعهم وأخلاقهم، وأصبحنا على الرغم من وسائل الأمن المختلفة نخشى الانفراد حتى في الأماكن المعمورة، ونستوحش من الظلام حتى في غرفتنا الخاصة، وتهز أعصابنا الخيالات القديمة التي كان يتخيلها أسلافنا، والتي انتقلت إلينا في عقلنا الباطن، وهي في الحقيقة أوهام باطلة لا يحسن التسليم بها..

ولكن بقيت هناك أمور يخافها الإنسان غير الظلام، والأماكن الموحشة، كفوات مطمع من المطامع أو ضياع شيء عزيز عليه. وأساس ذلك الخوف التشاؤم والأنانية وحب النفس وكثرة التفكير في الإخفاق وعواقبه، ولو أن الإنسان استشعر دائماً التفاؤل، وشغل نفسه بالأمل

القوي والتفكير الصالح، واطمأن إلى أنه ناجح في كل عمل يزاوله وفي كل مشروع يقدم عليه، إذن لما وجد سبباً للخوف من فوات مطمع أو ضياع شيء منه..

على أن كل أمر يخافه الإنسان أما أن يقع أو لا يقع.. أي أن وقوعه وعدم وقوعه من الممكنات التي تتساوى، فلماذا يرجَّج وقوع ما يخافه على عدم وقوعه؟.. وقد أحسن من قال:

وقـل للفـؤاد أن تـرى بـك نـزوة   مـن الـروع أفـرخ أكثـر الـروع

***

ولكن هناك أمراً يخافه الإنسان، وهو لابد واقع- وهو الموت- فلماذا يخاف الإنسان الموت؟... وكيف نعالج هذا الخوف؟

يخاف الإنسان الموت لأنه يجهل الموت، ولا يدري ما هو على الحقيقة، ولا يعلم إلى أين تصير نفسه، أو لأنه يظن أن للموت ألماً شديداً غير ألم الأمراض التي قد تتقدمه وتؤدي إليه، أو لأنه يعتقد أنه ستحل به عقوبة بعد الموت، أو لأنه يأسف على ما يخلفه من المال والمقتنيات

والسببان الأولان عامان عند جميع الناس، فكل إنسان يخاف الموت لأنه يجهل حقيقته ويجهل مصيره، ويظن- بل يعتقد- أن للموت ألماً شديداً غير ألم الأمراض التي تتغلب على الجسم وتفقده الحياة. أما السببان الآخران فقد يكونان عند بعض الناس دون بعضهم الآخر.. ففريق منهم

يؤمن بالعقوبة ويخافها، ويخاف الموت لأجلها.. وفريق منهم لا يؤمن بها، ولا يعتقد أنه سيعاقب بعد الموت، كالدهريين والملحدين مثلاً، ولكنهم يخافون الموت أيضاً. وكذلك الأسف على المال والمقتنيات ليس عند جميع الناس.. فقد يموت الشخص، ولا مال عنده ولا ثمين لديه يقتنيه، ومع ذلك فهو يخاف الموت أيضاً ولو كان معذباً بالحياة، ولو لم يكن عنده شيء يأسف على فراقه[1]

الموت لا يخيف

والخوف لهذه الأسباب كلها لا يصح الاقتناع به.. وينبغي ألا يقع الإنسان فريستهن لأن الموت ليس بشيء أكثر من ترك النفس استعمال آلاتها– أي الأعضاء التي تسمى في مجموعها بدناً– كما يترك الصانع استعمال آلاته. والنفس جوهر غير جسماني، وهي ليست قابلة للفساد. ويؤيد هذا الرأي من الوجهة العلمية في العصر الحديث علماء الأرواح.. فقد برهنوا على بقاء الروح بعد مفارقة الجسم، وإمكان مخاطبتها بتجارب واقعة وحوادث مشاهدة يغلب على الظن تصديقها، بل قد تضطر الإنسان إلى تصديقها في بعض الأحيان، وقد أصبحت عند هؤلاء العلماء من الحقائق الثابتة التي لا جدال فيها..

---

[1] استعنا في بعض ذلك برسالة من الخوف ن الموت للفيلسوف "ابن مكسويه" أحد فلاسفة القرن الرابع الهجري

فإذا كانت تخاف الموت لأنك تجهله وعلمت هذه الحقيقة، هان عليك الموت.. واطمأنت إلى هذا المصير الذي تتخلص الروح فيه من أدرانها الجسمانية ومتاعبها الدنيوية..

أما إذا كنت تخاف الموت لأنك تعتقد أنه يؤلم ألماً شديداً، غير آلام الأمراض التي تتقدم الموت، فهذا اعتقاد لا أساس له.. لأن الألم يكون للجسم الحي المحتفظ بأثر الروح. والجسم إنما يحس ويشعر عن طريق هذا الروح.. فإذا صدم، أو جرح، أو حدث له حرق، أو مرض، تألم لأن إحساسه موجود بوجود روحه. أما الموت فإنه زوال لهذا الإحساس، وفراق لما كان يحس به ويتألم.. فالمحتضر لا يشعر بالألم عند مفارقة الروح، ويؤيد ذلك استسلامه وهدوءه ساعة خروج الروح، فلا ترى له حركة، ولا تسمع له تأوهاً ولا أنيناً، كما كنت تشاهد ذلك منه قبل سكرات الموت. ولهذا فإن أي مرض من الأمراض– مهما قل شأنه– يشعر الإنسان بألمه لبقاء روحه في الجسم، وهو جدير بأن يخافه الإنسان لا أن يخاف من الموت

أما من يخاف الموت لأنه يعتقد أنه ستحل به عقوبة بعده، فليس في الحقيقة يخاف الموت وإنما يخاف العقوبة. ومن اعترف بحاكم عدل يعاقب على السيئات لا على الحسنات، فهو خائف من ذنوبه لا من الموت. ومن خاف العقوبة فالواجب عليه أن يحذر الذنوب..

أما من زعم أنه يخاف الموت، حزناً وإشفاقاً على من يخلفهم من أهله وولده وماله، ويأسف على ما يفوته من ملاذ الدنيا وشهواتها... فهذا

الذي يحزن هذا الحزن، ويأسف هذا الأسف، إنما هو أناني محب لذاته.. وإذا تذكر أن في الحياة إلى جانب هذه اللذة والمتاع آلاماً مختلفة ومفاجآت متنوعة، ومتاعب تنغص عليه هذه الملاذ، ثم إذا تذكر أن كثيراً ممن سعدوا في هذه الحياة بأموالهم وأولادهم قد فارقوا هذه الحياة، وإن من بقي منهم لابد له من هذا المصير، وإن جميع من في الأرض في تلك النهاية سواء.. نقول إذا تذكر ذلك كله هان عليه الموت، واحتقر هذه الحياة، وثنى من عنان حرصه وطمعه..

وبعد.. فهل تجد بعد ذلك سبباً وجيهاً للخوف من الموت؟.. وهل تظن أنه مؤلم حقا؟..

إنك إذا استعرضت ما أسلفناه وآمنت به، فلست تجد في الموت ما يخيف، ولست ترى ما كان عندك من الخوف إلا وهماً باطلاً. وقاتل الله الوهم، فإنه يمثل الضعيف قوياً، والقريب بعيداً، والمأمن مخافة..

قال جوته الشاعر الألماني، وهو على فراش الموت يجود بنفسه الأخير:

"زيدوني نوراً.. زيدوني نوراً"

الحب والموت

لعل الحب والموت يجتمعان في أن كلا منهما لا يُعترف كنهه، وأنهما سر من أسرار الكون.. وإذا حاول أحد أن يعرف الموت، فغاية ما

يستطيعه أن يعرفه بأعراضه إن كانت له أعراض، أو بأسبابه إن كانت له على الدوام أسباب. وكذلك الحب، فلم يدرك أحد سره وحقيقة دوافعه التي تجرد العاشق من شعوره بشخصيته، وتهون عليه في سبيل هواه كل شيء حتى الموت، بل قد يستعذب الموت ويطلبه، أملاً في النجاة، أو رغبة في أن يجمع الله بينه وبين من يحب في عالم الأرواح، إذا كان قد كتب عليه ألا يهنأ بهذه السعادة في عالم الأجسام..

وقد عرَّف بعضهم الحب بأنه مرض وسواسي، يجلبه المرء إلى نفسه تسليط فكره على استحسان بعض الصور. وعرفه بعضهم بأنه طمع يتولد في القلب، ويتحرك وينمو، ثم يزدهر، وتجتمع إليه الأنانية والحرص.. وكلما قوى، ازداد صاحبه في الاهتياج واللجاج والتمادي في الطمع حتى يؤدي به إلى الغم والقلق، فيكون احتراق الدم عند ذلك، باستحالته إلى السوداء.. ومن غلبته السوداء فسد فكره، ومع فساد الفكر يكون زوال العقل ورجاء ما لا يكون، وتمنى ما لا يقع، والهيام في وادي الخيال والأحلام.

وإذا أصاب العاشق اليأس فقد يقتل نفسه، أو يموت غماً. وقد يرى محبوبه فجأة أو بعد غياب طويل فيتأثر ويموت فرحاً، أو يشهق شهقة تصعد فيها روحه. أو يبلغه أنه قد مات، فيصعق بنعيه ويموت حزناً. أو يهجره المحبوب، فيصيبه من الآلام النفسية ما يضعف جسمه، ويميته بأوهى الأمراض. بل قد يمتزج العاشقان امتزاجاً روحياًن فيصبحان شيئاً واحداً إذا شطر النصف مات النصف الآخر، كما قال العباس بن الأحنف:

خلـــط الله بروحـــي روحهـــا فهمـا في جسـدي شـيء أحـد
بهمـــا يحيـــا إذا مـــا اصـــطحبا فـإذا مـا افترقـا مـات الجسـد

ذكروا أن فتاة عربية هويت شاباً.. فكانت تبذل له الأموال، وهامت به هياماً شديداً، حتى لم تستطع فراقه. فكلفت مصوراً رسم صورته، ففعل، فجعلت تجلس إلى الصورة كلما غاب عنها الشاب، وتحادثها وتأنس بها. ثم مات الشاب ففجعت بموته، ورجعت إلى الصورة، فما زالت تقبلها وتبكي إلى أن أمست فباتت إلى جانبها، فلما كان الصباح دخلوا عليها فوجدوها ميتة ويدها ممدودة على الجدار، وقد كتبت عليه:

يا مـــوت دونـــك روحـــي بعـــد خـذها إليـك فقـد أودت بمـا
أسـلمت روحـي للرحمن مسـلمة ومـــت مـــوت حبيـــب كـــان
لعلهــا في جنــان الخلــد يجمعهــا يــوم الحســاب ويــوم البعــث

وقد روى فيلسوف الأندلس على بن حزم، أن جارية كانت لبعض الرؤساء، فعزف عنها لشيء بلغه في جهتها لم يكن يوجب السخط، فباعها.. فجزعت لذلك جزعاً شديداً، وما فارقها الأسف والنحول، ولا بان عن عينيها الدمع حتى ماتت بعد فراقها له ببضعة أشهر. قال: وقد أخبرتني عنها امرأة أثق بها أنها لقيتها وقد صارت كالخيال نحولاً ورقة، فقالت لها: "أحسب هذا الذي بك من محبتك لفلان". فتنفست الصعداء، وقالت: "والله لا نسته أبداً، وإن كان جفاني بلا سبب".. ما عاشت بعد هذا القول إلا يسيراً..

قال: "وأنا أخبرك عن أبي بكر أخي رحمه الله، وكان متزوجاً بعاتكة بنت قند صاحب الثغر الأعلى أيام المنصور أبي عامر، وكانت التي لا مرمى وراءها في جمالها وكريم خلالها، ولا تأتي الدنيا بمثلها في فضائلها، وكان الزوجان في حد الصبا وتمكن سلطانه، تغضب كلاً منهما الكلمة التي لا قدر لها، فكانا لم يزالا في تغاضب وتعاتب مدة ثمانية أعوام. وكانت قد شفها حبه، وأضناها الوجد فيه، حتى توفى أخي وهو ابن اثنين وعشرين عاماً، فلما انفكت منذ توفي عن الحزن العظيم، إلى أن ماتت بعده بعام في اليوم الذي مات فيه. ولقد أخبرتني عنها أمها، وجميع جواريها، أنها كانت تقول بعده: "ما يقوي صبري، ويمسك رمقي في الدنيا ساعة واحدة بعد وفاته إلا تيقني ألا يضمه وامرأة مضجع أبداً، فقد أمنت هذا الذي ما كنت أتخوف غيره، وأعظم آمالي اليوم اللحاق به"

وطلب المتوكل مؤدباً لولده، فذكروا له الجاحظ، فلما دخل عليه استقبح صورته، وأمر له بعطاء وصرفه. فلما خرج لقي في طريقه مُحَمَّد ابن اسحق بن إبراهيم الموصلي، وكان مسافراً إلى مدينة السلام، فدعاه إلى الانحدار معه في "حراقته"، وكانت دجلة في غاية الزيادة والمد، فدعا مُحَمَّد بالغداء، ثم أمر بالنبيذ والغناء، ومد الستارة بينهما وبين جواريه، فغنت جارية هذين البيتين:

كـــل يـــوم قطيعـــة وعتـــاب ... ينقضـي دهـرنا ونحـن غضـاب

ليـت شـعري أنا خصصـت بهـذا ... دون ذا الخلق أم كذا الأحباب

ثم سكتت، فأمر الطنبور، فغنت:

وا رحمـــــــة للعاشـــــــقينا ... مـــا إن أرى لهمـــو معينـــا

كـــم يعـــذلون ويهجـــرون ... ويبعــــــدون فيصـــــبرونا

وتراهمــــــو ممــــــا بهـــــم ... بــــين البريــــة خاضــــعينا

يتعـــــــذبون ويظهـــــــرون ... تجلــــــداً للعاشــــــقينا

فقالت لها العوادة: يا فاجرة، ماذا يصنعون؟

قالت: يصنعون هكذا.. قال الجاحظ: "وضربت بيديها في الستارة فهتكتها، وبدرت علينا كالقمر، ثم ألقت بنفسها في الماء. وكان على رأس مُحَمَّد بن اسحق غلام رومي الجنس يضاهيها حسناً وجمالاً، وبيده مذبة، فلما رأى ما صنعت الجارية، ألقى المذبة من يده، وهرع إلى الموضع الذي طرحت نفسها فيه قائلاً:

لا خـــير بعـــدك في البقـــاء ... والمـــوت ســـتر العاشـــقينا

وألقى بنفسه في أثرها، فأدار الملاح "الحراقة"، فإذا بهما يطفوان متعانقين، ثم غاصا، فلم يُرَ أحد منهما.. فاستعظم مُحَمَّد ذلك وهاله الأمر، وقال: يا عمرو، لتحدثني حديثاً تسليني به عن فعل هذين، وإلا ألحقتك بهما، فحضرني حديث يزيد بن عبد الملك، وقد قعد للمظالم، فدخل عليه فتى، فقال له: "إن رأي أمير المؤمنين تخرج جاريته فلانة لتغني ثلاثة أصوات"

فاغتاظ يزيد وقال له: "ما الذي حملك على هذا؟"، قال: "الثقة بحلمك والاتكال على عفوك"، فأذن له، ثم أمر بحضور الجارية، فقال لها الفتى غنِّي:

أفاطم مهلاً بعض هذا التدلل   وإن كنت قد أزمعت هجري

فغنت، فقال يزيد: قل الثاني، فقال لها غني:

تألق البرق نجدياً فقلت له   يا برق أني بروحي عنك

فغنته الجارية، فقال يزيد: قل الثالث، فقال: "تأمر لي برطل من شراب" فأمر له به، فلما شربه أشار إليها بأبيات، فغنتها، ثم نهض فوثب على قبة ليزيد، فرمى بنفسه على دماغه، فمات، فقال يزيد: "إنا لله وإنا إليه راجعون، أكان الأحمق يظن أني أخرج إليه جاريتي تغنيه وأردها إلى ملكي. يا غلمان خذوا بيدها، واحملوها إلى أهله أن كان له أهل، وإلا فبيعوها وتصدقوا بثمنها عنه، فانطلقوا بها إلى أهله، فلما دخلت الدار رأت حفرة فجذبت نفسها من بين أيديهم، وقالت:

من مات عشقاً فليمت هكذا   لا خير في عشق بلا موت

وألقت نفسها في الحفرة على دماغها فماتت..

***

ومن الطرائف الفكهة التي حكاها بشار بن برد عن الحب والموت، أن حماراً له مات، فرآه ذات ليلة في المنام، فقال له بشار: "ويلك مالك مت؟!"

فقال الحمار: "لأنك ركبتني يوم كذا، فمررنا بباب الأصبهاني، فرأيت أتانا جميلة عند بابه، فعشقها، ومت.."

قال بشار: وأنشدني حماري ما يأتي:

ســـــــيدي شمــــــــت أتانا	عنـــــد باب الأصــــــهباني
تيمتـــــــني يـــــوم رحنـــــا	بثناياهـــــــا الحســـــــان
وبغـــــــــــــــنج ودلال	ســـــل جســـــمي وبــــراني
ولهـــــا خـــــد أســـــيل	مثـــــل خـــــد الشـــــيفراني
فبهـــا مـــــت ولـــو عشـــــ	ـــــت أذن طـــــال هـــــواني

فقال له رجل من القوم: "يا أبا معاذ، ما الشيفراني؟" قال: "هذا من لغة الحمير، فإذا لقيتم حماراً فسلوه.."

وهذه القصة الفكاهية التي يزعمها بشار بن برد، وينظم لها شعراً ينسبه إلى حماره مع ما فيها من تهكم بجنون العشاق، تعود إلى ما يحدث بين الحيوان من غم الفراق كما يحدث بين بني الإنسان. والمعروف أن بعض الحيوان إذا مات قرينها أو ماتت قرينته اعتزل الطعام وأسلم نفسه للجوع حتى يموت، فما بالك بالإنسان إذا استولى عليه الحب، وتحكم فيه الهيام

وقصة روميو وجوليت، وقصة مجنون ليلى، وغيرهما، ترجع إلى حقيقة لا شك فيها.. وهي أن الحب يفعل في النفس وفي الجسم ما يفعله المرض. وإذا صح أنه في كنهه مرض من الأمراض، فلا عجب أن يموت به العشاق كما يموت الناس بسائر الأمراض، وأنت ترى رجلاً يموت بالسكتة القلبية لحزن، أو غضب، أو ضعف، فليس عجيباً أن يموت عاشق لموت معشوقه، أو لخيانته وهجرانه، أو لشدة وجده بمن يحب، فتصبح روحه معلقة في خيط رفيع لا تقوى في محنتها على أبسط الأشياء

وليس في الدنيا أقرب إلى الموت من العاشق في فرحه وأشجانه، وفي ألمه وسلوانه، وفي ضعفه وقوته، وفي جنبه وأقدامه، وفي أنانيته وتضحيته، وفي استهانته بالحياة وحبه لها، ما دام يعلم أن في الموت رضاء محبوبه، أو قربه منه، أو فوزه بوصاله. فهو مؤثر له لأنه يراه شفاء لنفسه، ودواء لقلبه، ونجاة من جحيم الحياة، أو فداء لمن يرجو لها حياة هانئة، وحظاً سعيداً لا شقاء فيه ولا آلام

طاهر الطناحي

الباب الأول

نوابغ من الشرق

الفصل الأول

النبي محمد صلى الله عليه وسلم

مالت الشمس نحو الغروب وآذنت بمغيب، وتجهم الكون في ذلك اليوم الصائف منذراً باقتراب حادث رهيب. وشعر المسلمون في المدينة وما تبعها من آفاق شعوراً حزيناً يخالطه الخوف والجزع، ويساوره الإشفاق والفزع، وكأنهم مقبلون على رزء أليم، وتساءلت القلوب والنفوس عما تجد من قلق، وما تحس من بأس. وقد كانت مطمئنة مغتبطة بما أفاء الله على رسوله والمؤمنين من نصر مبين، وفتح للإسلام عظيم

وكان اليوم يوم عائشة من زوجاته عليه السلام. وكانت تعاني من الصباح ألماً في رأسها، واكتئاباً في نفسها، وأقبل لزيارتها في الأصيل والدها الصديق أبو بكر، فشكت إليه ما تشعر به وما تعانيه، فواساها مواساة الأب الرحيم لابنته العزيزة، ونصحها بالراحة، وتناول بعض العقاقير.. وبعد ساعة خرج لشأنه، وهو يدعو لها بالشفاء ويوصها بالصبر الجميل حتى يزول عنها ما تشعر به من الآلام. ولكنها ما كادت تخلو لنفسها طويلاً حتى عاودها "الصداع" في حال شديدة، فصارت تئن وتتأوه في صوت مسموع.. وبينما هي كذلك، إذ طلع عليها النبي مُحَمّد ﷺ، فسمعها تئن قائلة:

– وا رأساه.. وا رأساه..!

فأقبل عليها في رفق وحنان.. حنان الزوج الوفي البار، ورفق الرسول الكريم، وكان عليه السلام قد بدأ يحس في ذلك اليوم نفسه- ومنذ الصباح أيضاً- بألم في الرأس، وبحرارة الحمى تنساب في بطء إلى جسمه الشريف، ولكنه كان يكتم آلامه، ويغالبها بقوة صبره وإيمانه. فلما رأى عائشة تتألم وتتوجع أوسع لها من رحمته، وأراد أن يشعرها بمشاركته لها في الألم، فقال لها:

- بل أنا والله يا عائشة وا رأساه

فلما سمعت عائشة شكوى الرسول جزعت جزعاً شديداً، ونسيت ما تحس به من آلام.. فإنه عليه السلام ما شكا من داء طول حياته، ولا تأوه يوماً من ألم، وقد جاهد ما جاهد في سبيل الله، وقام بالدعوة لدينه في تعب وعناء، وحمل ما حمل من شدائد، فما وهنت قوته، ولا ضعفت عزيمته، ولا استسلم لمرض، فماذا به اليوم، وقد صارحها بما لم يصارحها به من قبل، وشكا مما لم يعتد أن يشكوه؟.. هل كان يريد أن يشعر عائشة بالتأسي والتصبر حين تسمعه يتألم، ويشاركها في آلامها، أم اقتربت الساعة.. ساعة الفراق ودنا أوان الوداع؟..

ورأى الرسول عليه السلام ما أصاب عائشة من فزع وجزع حين سمعت توجعه، فأشفق عليها وجعل يلاطفها كعادته، ثم ابتسم وأراد أن يسري عنها، فقال لها في دعابة:

- وما ضر يا عائشة لو مت أنت قبلي، فقمت إليك فكفنتك، وصليت عليك ودفنتك..!

فأجابت عائشة:

- ذلك يا رسول الله خير ما أتمناه.. لا جعلني الله أرى يومك..! وسكتت قليلاً، ونظرت إلى وجهه عليه السلام، فوجدته يبتسم، وعرفت دعابته فابتسمت، وغلبتها طبيعة الأنثى وغيرة الزوجة، واستيقظ فيها حب الحياة والحرص عليها مع زوجها رسول الله دون غيرها من زوجاته، فقالت له ﷺ:

- ليكن ذلك حظ غيري من زوجاتك يا رسول الله.. والله لكأني بك وقد رجعت بعد دفني إلى بيتي، فأعرست فيه ببعض نسائك..!

فابتسم الرسول وقال لها:

- يا عائشة.. ما عند الله خير وأبقى..!

فسكنت نفس أم المؤمنين، واطمأنت إلى وجوده معها، ونسيت بدعابته ولطفه وطيب حديثه ما كانت تشعر به من مخاوف وآلام. ثم جاء وقت الصلاة، فخرج إلى المسجد.. وخرجت إلى حيث تصلي مع أمهات المؤمنين والمؤمنات. ولما انتهت الصلاة عادت إلى بيتها وخلت إلى نفسها، فعادت إليها المخاوف، وذكرت تعريض رسول الله باقتراب أجله، وتذكيره لها بما عند الله، وأنه خير وأبقى. وكان رسول الله بعد عودته من حجة

الوداع إلى المدينة، قد اعتاد أن يلمح في بعض الأوقات باقتراب أجله، وقد نزلت عليه أثناء تلك الحجة هذه الآية الكريمة:

{الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا} [المائدة: ٣]

***

وكان الله قد أتم نعمته على نبيّه وعلى المسلمين بالنصر المبين، والفتح الأكبر– فتح مكة– الذي قبلت بعده سائر قبائل العرب أفواجاً، أفواجاً يدخلون في دين الله، ويدينون لمحمد بالعهود والمواثيق، وقد صدق الله وعده وأعز جنده.

وخرج رسول الله في السنة العاشرة للهجرة– بعد هذا الفتح بعامين– ليحج بيت الله بمكة مع جموع المسلمين، فاجتمع وراءه مائة وعشرون ألفاً من المهاجرين والأنصار وغيرهم من وفود القبائل العربية، وولى على المدينة في غيبته صحابياً كبيراً حسن الرأي والتدبير هو "أبو دجانة الأنصاري"

وكان مع النبي أهله ونساؤه، وقد ركب ناقته "القصواء" في الخامس والعشرين من ذي القعدة، وسار بهذا الجمع الزاخر تحدوهم رعاية الرحمن، ويعمر قلوبهم صادق اليقين والإيمان، وتملأ نفوسهم الغبطة بالمسير إلى بيت الله الحرام.. حتى إذا بلغوا "الحُلَيفة" بضم الحاء وفتح اللام، نزلوا عن

ركائبهم، وباتوا ليلتهم، ثم أصبحوا، فأحرم رسول اله، وأحرم معه المسلمون، فليس كل منهم إزاراً ورداً، وحقق ذلك المساواة بينهم بأجلي ما يهدف إليه الإسلام، ثم تقدم الرسول، فرفع يديه إلى السماء، وتوجه إلى الله بالتلبية، والمسلمون من ورائه يلبون، ونادي والجميع يرددون:

- لبيك اللهم لبيك.. لبيك لا شريك لك لبيك.. الحمد والنعمة والشكر لك لبيك.. لبيك لا شريك لك لبيك..!

وتجاوبت أصداء هذا الدعاء الروحي في جميع الإرجاء، وأحيت هذه التلبية تلك الفلاة الصامتة، فاهتزت جوانبها من روعة هذا الدعاء. ثم انطلق الركب برجاله ونسائه، ووفوده وألوفه، يشق الطريق بين المدينة ومكة، في أمواج من الجموع المتتابعة على سفن الصحراء. والنبي صلى الله عليه وسلم في المقدمة، ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وسائر صحابته وقادة المسلمين، حتى بلغوا "أم القرى" في الرابع من ذي الحجة، وقد طووا في هذا السفر الطويل تسعة أيام. ولما أقبل النبي على المسجد الحرام، رفع يديه إلى السماء، وقال:

- اللهم زده تشريفاً وتعظيماً.. اللهم زده مهابة وبراً وتكريماً

ثم نزل عن ناقته القصواء، فدخل المسجد، وطاف سبعاً بالكعبة.. ثم صلى ركعتين عند مقام إبراهيم. ثم شرب من ماء زمزم، وسعى بين الصفا والمروة سبعاً راكباً ناقته، وكان إذا صعد الصفا يقول:

- لا إله إلا الله والله أكبر، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده

وإذا نزل إلى المروة يقول:

- الحمد لله.. ولا إله إلا الله والله أكبر..

وكان المسلمون من ورائه يقولون ما يقول، ويفعلون ما يفعل. وكان ربيعة بن أمية بن خلف يردد وراءه ما يقول بصوت جهوري يسمعه الحجيج

وفي الثامن من ذي الحجة من السنة العاشرة رحل النبي ومن معه إلى "منى" فأقاموا بالخيام، وصلوا فروض اليوم، وباتوا بها حتى مطلع الفجر.. فصلى بهم صلاة الصبح، حتى إذا بزغت الشمس، ووضح الطريق، تقدم الحجيج بناقته حتى جبل عرفات.. فأحاط به الألوف، وهم يلبون ويكبرون، وضربت للنبي ﷺ قبة بنمرة– وهي موضع بعرفات– فنزل بها، حتى زالت الشمس، فأمر بناقته القصواء فركبها، وسار حتى أتى بطن الوادي من أرض عرفة. وهناك نزل عليه بعد صلاة العصر قوله تعالى:

{الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا} [المائدة:٣]

فلما سمع أبو بكر هذه الآية بكى بكاء شديداً، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "ما يبكيك يا أبا بكر؟"..

قال: "أبكاني أنا كنا في زيادة من ديننا.. فأما إذ أكمل، فإنه لم يكمل شيء إلا نقص"..

فقال النبي ﷺ: "صدقت" وبكى كثير من المسلمين وكانت هذه الآية إيذانا بانتهاء رسالته في هذه الدنيا ثم قام عليه الصلاة والسلام فركب ناقته حتى بلغ وسط عرفات، فوقف هناك وألقى خطبة الوداع التي تنبأ فيها باقتراب أجله، فقال:

"الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ به من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا. من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن مُحَمَّداً عبده ورسوله

"أوصيكم عباد الله بتقوى الله، وأحثكم على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير

"أما بعد: أيها الناس. اسمعوا مني أبين لكم، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا.. أيها الناس إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا

"ألا هل بلغت.. (فقال الناس نشهد أنك بلغت، وأديت ونصحت)

فقال: "اللهم فأشهد.. فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها. ألا وإن ربا الجاهلية موضوع[٢]. وإن أول ربا أبدأ به ربا عمي العباس بن عبد المطلب. وإن دماء الجاهلية موضوعة. وأول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب[٣].. وإن أثر الجاهلية موضوعة إلا السدانة والسقاية. والعمد قود. وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر. وفيه مائة بعير. فمن زاد فهو من أهل الجاهلية

"أيها الناس إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه، ولكنه قد رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون به أعمالكم

"يا أيها الناس.. إنما النسيء[٤] زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا، يحلونه عاماً، ويحرمونه عاماً، ليواطئوا عدة ما حرم الله. وأن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وأن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض، منها أربعة حرم: ثلاث متواليات، وواحد فرد. ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم. ورجب الذي بين جمادى وشعبان– ألا هل بلغت؟.. اللهم فأشهد

---

[٢] موضوع أي مهدر لا يحل

[٣] قتل عامراً جماعة من قبيلة هذيل بالجاهلية

[٤] النسيء هو تحليل الأشهر الحرم، وتحريم الأشهر الحلال بالنسيء أي التأخير حسب أغراضهم

"أيها الناس.. إن لنسائكم عليكم حقاً، وإن لكم عليهن حقاً: ألا يوطئن فراشكم غيركم، ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة، فإن فعلن، فإن الله أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن في المضاجع وتضربوهن. وإن أطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف

"وإنما النساء عندكم عوان لا يملكن لأنفسهم شيئاً[٥]. آخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء، واستوصوا بهن خيراً– ألا هل بلغت؟.. اللهم فأشهد

"أيها الناس.. إنما المؤمنون إخوة، ولا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه. فلا ترجعن بعدي كفاراً، يضرب بعضكم رقاب بعض، فإني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعده أبداً: كتاب الله.. ألا هل بلغت؟.. اللهم فأشهد

"أيها الناس.. إن ربكم واحد، وأن أباكم واحد. كلكم لآدم، وآدم من تراب. إن أكرمكم عند الله أتقاكم. ليس لعربي فضل على عجمي ألا بالتقوى.. ألا هل بلغت؟.. اللهم فأشهد.. فليبلغ الشاهد منكم الغائب

"أيها الناس.. إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث. ولا تجوز لوارث وصيته. ولا تجوز وصية في أكثر من الثلث. والولد للفراش. وللعاهر الحجر. من ادعى لغير أبيه أو تولى غير مواليه، فعليه لعنة الله،

---

[٥] أي ضعيفات أي لا يملكن قوة ودفاعاً عن أنفسهن كالرجال

والملائكة والناس أجمعين. لا يقبل منه خير ولا عدل.. والسلام عليكم ورحمة الله"

ولم أتم الرسول عليه السلام خطابه نزل عن ناقته، وأقام حتى صلى الظهر والعصر. ثم بارح عرفات هو ومن معه إلى المزدلفة، فقضى بها ليلة، وفي الصباح ذهب إلى المشعر الحرام، ثم إلى مني، وألقى الحجرات، ثم نحر الهدى، وأتم حجته. وكانت حجة الوداع التي لم ير بعدها مشاعر الحج، ولا البيت الحرام مرة أخرى

***

عاد الركب بعد الحج إلى المدينة، يتقدمه مُحَمَّد ﷺ. فلما أقبل عليها، كبر ثلاثاً، ثم رفع يديه إلى السماء، وقال:

- لا إله إلا الله وحده لا شريك له. الحمد لله وهو على كل شيء قدير. آيبون تائبون عابدون، ساجدون لربنا حامدون. صدق الله وعده، ونصر عبده، وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده

وأقبلت وفود العرب زمراً زمراً إلى يثرب ممن لم يكونوا قد أسلموا لمبايعة الرسول ﷺ والدخول في الإسلام، والانضواء تحت لوائه، وعنت الوجوه للحي القيوم، وتتابع الناس من كل مكان أفواجاً أفواجاً في شبه الجزيرة العربية يؤمنون بالله ورسوله، ويدينون بالدين الجديد. وهنا نزلت "سورة الفتح" فقال الله لنبيه الكريم: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ، وَرَأَيْتَ

النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا} [النصر: ١–٣]

فلما قرأها عليه جبريل قال مُحَمَّد ﷺ: "نعيت لي نفسي"[٦] فقال جبريل: {وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى} [الضحى:٤]. وقد سميت هذه السورة "سورة الوداع". ولم ينزل بعدها سورة ولا آية أخرى من القرآن الكريم. وكان رسول الله بعد نزولها يستغفر الله كثيراً ويتوب إليه كثيراً، ويسبح بحمده، ويعرض باقتراب أجله، وانتهاء رسالته في هذه الدنيا، إلى أن مرض ﷺ في أواخر صفر من السنة الحادية عشرة للهجرة الموافقة أواخر مايو عام ٦٣٢ الميلادية

واستبدت الحمى بجسمه الشريف، وأيقن أنه عما قريب ستصعد روحه الطاهرة إلى السماء، وسوف يلاقي الرفيق الأعلى، ولكن الداء لم يقعده عن خدمة دينه وأداء واجبه نحو الله ونحو الناس، فقد كانت روحه أقوى من جسده، وعزيمته أشد وأقوى من دائه، وقد جهز وهو مريض جيشاً بقيادة أسامة بن زيد لمحاربة هؤلاء الذين مكروا بالإسلام والمسلمين في بلدة "أبني"[٧] من فلسطين في الخامس والعشرين من صفر قبل أن تصعد روحه إلى بارئها بسبعة عشر يوماً، وكان القوم قد قتلوا زيداً بن حارثة والد أسامة في موقعة مؤتة، فخرج عليه السلام– وهو مريض– يودع هذا الجيش وقائده ويوصيه قائلاً:

---

(٦) نعيت بضم النون وسكون التاء

(٧) أبني بضم الهمزة وسكون الباء

– أعز باسم الله في سبيل الله، وقاتل من كفى..

سمع أسامة لوصية رسول الله، وخرج بجيشه في الغروب، وعاد الرسول إلى المدينة، وقصد بيت عائشة، فسمعها تئن وتتوجع، وتقول: "وا رأساه.." فتوجع لوجعها، بل توجع لما يشعر به كذلك من آلام الحمى التي بدأت تدب في جسمه الشريف، وبات فيبيت عائشة هذه الليلة، ولكنه أرق فيها أرقاً طويلاً.. وكان الوقت صيفاً، فأيقظ مولاه "أبا مويهبة"[٨] وخرج من البيت في صحبته إلى ظاهر المدينة، يستروح بالرياضة، ويستنشق نسيم الليل، مخففاً عن نفسه.. وفيما هما سائران، إذ عرج عليه السلام على "البقيع" حيث مقابر المسلمين، فلما بلغه قال لرفيقه أبي مويهبة:

- إني أمرت أن أستغفر لأهل هذا البقيع، فانطلق معي.. ودخل يتصفح وجوه المقابر، ثم وقف بينها ومولاه وراءه، وقال:

- السلام عليكم يا أهل المقابر، ليهنئ لكم ما أصبحتم فيه مما لم يصبح الناس فيه. إني أنظر بعدي، فأرى الفتن وقد أقبلت كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها.. الآخرة شر من الأولى..!

ثم استغفر لأهل المقابر، ولما آن له أن يعود التفت إلى أبي مويهبة، وقال:

[٨] مويهبة بضم الميم وفتح الواو وسكون الياء

- إني أوتيت مفاتيح الخلد في الدنيا، ثم الجنة، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة

فقال أبو مويهبة:

- بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فخذ مفاتيح الخلد في الدنيا، ثم الجنة..!

فقال الرسول:

- لا والله يا أبا مويهبة.. لقد اخترت لقاء ربي والجنة..

وعاد إلى بيت عائشة وقد اقترب الفجر، فذهب إلى المسجد.. وكان المسلمون قد اجتمعوا للصلاة فصلى بهم، ولم يمكث معهم بعد الصلاة، بل أسرع إلى مضجعه في بيت عائشة، فنام واستراح حتى صلاة الظهر، فذهب إلى المسجد، فصلى.. وعلم أن جماعة من المسلمين ينتقدون تأمير أسامة على الجيش الذي خرج لغزو "أبني" لأنه ما زال شاباً في سن العشرين، فبعد أن أوى الصلاة صعد المنبر، وكان يشعر بالتعب، فحمد الله. ثم قال:

- أما بعد أيها الناس، فما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأمير أسامة بن زيد!.. ولئن طعنتم في تأميري أسامة بن زيد، فقد طعنتم في تأميري أباه من قبله.. وأيم الله أنه كان لخليقاً بالأمارة، وأن ابنه من بعده

لخليق بها.. وأنهما لمن أحب الناس إلى الله ورسوله، وأنهما لمظنة لكل خير، فاستوصوا بأسامة خيراً، فإنه من خياركم..

ثم نزل من المنبر، وقد أخذ منه التعب مأخذه، فأشار إلى علي بن أبي طالب ليعينه على ضعف جسمه، فأسرع إليه هو وعمه العباس بن عبد المطلب، وكانا قريبين من المنبر، فتوكأ عليهما، حتى دخل بيت عائشة– وقدماه لا تكادان تحملانه– وأبو بكر وراءه

ولما اطمئن في فراشه رفع نظره إلى السماء.. وسكت برهة، كان يناجي فيها ربه، ثم قال في تقبل وخشوع:

– سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله وحده لا شريك له.. أستغفرك اللهم وأتوب إليك.. ربنا عليك توكلنا، وإليك أنبنا، وإليك المصير..

وجلست عائشة وأبو بكر، والعباس وعلى حوله صامتين، وقد علت وجوههم الكآبة، وسيطر عليهم الجزع، ونظروا إلى رسول الله في فراشه.. فرأوه قد دخل فيما يشبه النوم، ولكنه ما لبث أن تنبه، وأشار إلى علي والعباس بالخروج، فقاما مسلمين مودعين..

وفي المساء، خرج متوكئاً على مولاه أبي مويهبة، فلقيه علي بن أبي طالب، فعاونه حتى دخل بيت زوجته ميمونة بنت الحارث، وكان اليوم يومها.. فما كاد يجلس حتى شعر بمرضه وقد اشتدت وطأته، وعظمت

آلامه، فدعا أن يحضرن إليه، فلما رأينه على غير ما يعهدن فيه من صحة البدن وجمال العافية فزعن إلى البكاء، واستبد بهن الأسى، وعرضت كل واحدة منهن أن يمرض في بيتها، فأستأذنهن أن يمرض في بيت عائشة أم المؤمنين لقربه من المسجد، فقبلن فخرج يتوكأ على بعض أهله، وجسمه في تثاقل وضعف، وقدماه في وهن لا تحسنان السير، وفي عناء لاتكادان معه تحملانه عليه السلام.. حتى إذا بلغ بيت عائشة نام على فراشه فأرخى عينيه، وأغمض جفنيه، واتجه بوجهه الشريف إلى السماء، ودخل فيما يشبه النعاس. ثم تنبه عليه السلام، وعلى شفتيه ابتسامة مشرقة أحيت الأمل فيمن حوله، ثم عاد إلى ما يشبه السنة. وظل هذا شأنه بين النوم واليقظة، وبين الإغماء والانتباه.. وكانت حرارة الحمى في ازدياد حتى جعلت على القطيفة التي غطوا بها جسده تصيب كل من يضع يده عليها

وفي الفجر خفت حرارة الحمى، وتنبه رسول الله (ص)، وعرف موعد الصلاة، فقام على الرغم من مرضه وشدة ألمه، لأداء فريضة الفجر في مسجده مع الناس، فقد كان عليه السلام لا ينقطع عن الصلاة مع الصحابة، فصلى بهم في بطء وعناء.. ثم عاد إلى فراشه في تثاقل وأعياء وضعف، فنام نوماً هادئاً، لم يزعجه فيه الألم، ولم يؤرقه فيه الداء. ثم استيقظ وقت الضحى، فشعر بشيء من الراحة، وانتعاش النفس، وانكسار الحمى

وتفاءلت عائشة بتحسن صحته عليه السلام في ذلك اليوم.. وزاره عمه العباس، وعلي ابن أبي طالب، وبعض آله.. فاطمأنوا لحاله، واغتبطوا

بما رأوا من سكون دائه، وخالجهم الأمل القوي في شفائه، وأبصروا من يقظته وحسن انتباهه وقوة نفسه، ما بعثهم على الرجاء في شفائه

وخرج عليًّ بن أبي طالب وعمه العباس من عنده عليه السلام، في تلك الساعة الهادئة الآمنة، فهرع الناس إلى علي يسألونه عن صحة رسول الله في شوق شديد، فقالوا:

- يا أبا الحسن.. كيف أصبح رسول الله ﷺ؟

فأجاب علي:

- أصبح بحمد الله بخير.. وسوف يكون عما قريب بارئاً من مرضه..!

فاطمأن الناس، وهدأت قلوبهم، وانكشف عنهم ما تملكهم من هموم وأحزان. وما كاد علي بن أبي طالب وعمه العباس يتجاوزان الناس حتى أخذ العباس بيد علي، وأسر إليه قائلاً:

- ما هذا يا ابن أخي؟.. أفلا تدري؟.. بعد ثلاث أحلف فيها بالله، أن مُحَّداً مريض قد أرهقه المرض. ولقد عرفت الموت في وجهه، كما كنت أعرفه في وجوه بني عبد المطلب.. فانطلق بنا، فإن كان هذا الأمر فينا عرفناه، وإن كان في غيرنا أمرناه، فأوصى بنا الناس..!

فأبى على أن يعود إلى رسول الله (ص) ليحدثه في ذلك، وقال:

- والله يا عمي لا أفعل.. ولئن منعنا هذا الأمر، لا يؤتينا إياه أحد بعده..!

***

كان الرسول (ص) قوي النفس، سامي الروح، لم تتخلف عنه عزيمته، ولم تضعف إراداته، على الرغم من شدة دائه، ومعاناة بلائه.. ولم ينقطع عن الصلاة مع أصحابه في المسجد إلا قبيل وفاته بثلاثة أيام. وخرج عليه السلام في ذلك اليوم إلى المسجد، ففرح الناس، وأقبلوا عليه.. فصلى بهم، ثم صعد المنبر فأنصت الجميع، وكأنما على رءوسهم الطير، ولكنه لم يخطب كعادته، بل أفضى إليهم بكلمة قصيرة كانت أبلغ في الدلالة على هوان هذه الدنيا، وضعف شأنها، وإن الآخرة خير وأبقى. قال عليه الصلاة والسلام:

- أيها الناس إن عبداً من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله..!

ثم سكت، فوجم الناس، وسادهم الحزن والأسى.. وأدركوا أن النبي (ص) يعني بهذا القول نفسه، وينبئهم بقرب وداعه لهم، وفراقه لهذه الدنيا.. وبكى أبو بكر ﷺ، وقال في صوت ضعيف متهدج:

- فديناك يا رسول الله بأنفسنا وأبنائنا وما ملكت أيدينا..

واشتد به البكاء، فأشار إليه النبي أن يمسك عن بكائه، ثم أشار إلى أبواب المسجد، فأمر أن تقفل جميع الأبواب إلا باب أبي بكر.. فلما أقفلت، خاطب الصحابة قائلاً:

- إني لا أعلم أحداً أصدق عندي من أبي بكر في صحبته وماله.. ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن صحبة إسلام وأخوة، حتى يجمع الله بيننا عنده..!

ولم يستطيع النبي (ص) أن يتابع الكلام لضعف صحته، فنزل من المنبر يريد أن يعود إلى بيته، ولكنه ما لبث أن التفت إلى الناس، فانتبهوا إليه يسمعون ما يقول، فقال عليه السلام:

- يا معشر المهاجرين استوصوا بالأنصار خيراً، فإن الناس يزيدون والأنصار لا يزيدون، وأنهم كانوا عيبتي[٩] التي أويت إليها، فأحسنوا إلى محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم"!

وعاد محمد (ص) يساوره الداء، ويعود إليه في شدة وبأس، وكان يغالبه بقوة إرادته وشدة عزمه، وينازع آلامه ويحمل على نفسه للخروج إلى الناس في المسجد ليوصيهم، ويعهد إليهم، قبل أن يفارق الدنيا، ويرحل عنها إلى دار النعيم..

---

[٩] العيبة ما يجعل فيه الثياب كالصندوق، والمراد هنا الملجأ والمكان والمأوى

وأراد أن يخرج إلى الناس، ولكن حرارة الحمى استبدت بجسده الشريف، وكادت تعجزه، فاستعان بالماء البارد، وقال لأهله:

- أريقوا عليَّ سبع قرب من ماء الآبار حتى أخرج إلى الناس، فاعهد إليهم..!

وجيء بماء الآبار كما طلب عليه الصلاة والسلام، وأقعده أزواجه في مخضب(١٠) لحفصة، وصببن عليه ماء القرب السبع حتى أشار بيده قائلاً:

"حسبكن... حسبكن.." .. ثم لبس ثيابه، وعصب رأسه، وهو يقول:

- الحمد لله.. نحن معشر الأنبياء، يشدد علينا البلاء، وتضاعف لنا الأجور.. ثم خرج يتوكأ على عمه العباس، وعلي بن أبي طالب، والفضَّل ابن العباس، فدخل المسجد يخطو خطواً وئيداً حتى بلغ المنبر.. فتحامل على نفسه، وساعده الفضل وعلي، فجلس على أسفل مرقاة فيه.. ثم حمد الله وأثنى عليه، وقال:

- أيها الناس: بلغني أنكم تخافون من موت نبيِّكم.. هل خلد نبي قبلي ممن بعث الله، فأخلد فيكم؟.. ألا إني لاحق بربي، وأنكم لاحقون بي، فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيراً، وأوصي المهاجرين فيما

---

(١٠) المخضب الطست

بينهم.. فإن الله تعالى يقول: {وَالْعَصْرِ، إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} [العصر: ١-٣]

وإن الأمور تجري بإذن الله، ولا يحملنكم استبطاء أمر على استعجاله، فإن الله عز وجل لا يعجل بعجلة أحد. ومن غالب الله غلبه، ومن خادع الله خدعه، فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض، وتقطعوا أرحامكم؟

أوصيكم بالأنصار خيراً، فإنهم الذين تبوأوا الدار من قبلكم، أن تحسنوا إليهم.. ألم يشاطروكم في الثمار، ألم يوسّعوا لكم في الديار، ألم يؤثروكم على أنفسهم؟.. ألا وإني فرط لكم، وأنتم لاحقون بي. وأن موعدكم الحوض، فمن أحب أن يرده علي

كانت هذه الوصية هي آخر وصاياه عليه السلام.. ثم عاد إلى بيت عائشة يتوكأ على عمه العباس، وعلي بن أبي طالب، حتى أوصلاه الفراش

واشتدَّ المرض برسول الله، وتضاعف الخطر، وقلق أهله وأصحابه.. وعجزت وسائل العلاج المعروفة في ذلك الحين عن شفائه، واقترحت زوجته ميمونة بنت الحارث أن تصنع له شراباً عرفت طريقة إعداده من قريبة لها تدعى أسماء، كانت قد تعلمتها أثناء هجرتها بالحبشة.. فصنعته ميمونة، وانتهز آل رسول الله فرصة إغماءة من إغماءاته، وصبوه في فمه بحذر شديد.. فلما أفاق، قال لهم:

– من صنع هذا الشراب؟.. ولم فعلتموه؟..

فقال العباس:

- خشينا يا رسول الله أن تكون بك ذات الجنب، فأعطيناك هذا الشراب

فقال عليه السلام:

- ذلك دواء ما كان الله عز وجل لينقذني به

وتعذر عليه (ﷺ) أن يخرج للصلاة بالناس، فأناب عنه أبا بكر، فصلى بهِم سبع عشرة صلاة..

ودخلت ابنته الزهراء فاطمة ذات يوم– وهو في هذه الحال من الخطر على حياته– فعز عليها أن تراه طريح الفراش، وقد اقترب منه الأجل، وضعف منه شفائه الأمل، فبكت ونادت: "وا أبتاه.." فتنبه من إغمائه، ونظر إليها، ثم قال بصوت خافت:

- مرحبا بك يا فاطمة.. لا كرب على أبيك بعد اليوم..!

يريد عليه السلام أنه سينقل من هذا العالم– عالم الكرب والآلام– إلى عالم الراحة والسلام. ثم أشار إليها، فاقتربت منه، فوضع أذنها على فمه الشريف، وأسر إليها بكلام، فبكت ، وبكى الحاضرون. ثم عاد

فأسرَّ إليها في أذنها الأخرى بكلام آخر فابتسمت واستبشرت، فاطمأن الحاضرون واستبشروا. ولما سئلت ﷺ عما أسريه إليها، قالت: "أسر إلى أنه سيقبض في مرضه هذا، فبكيت، ثم سارني أني أول من يلحق به من أهله، فابتسمت وسررت"!

***

وكانت ليلة الوفاة.. وبلغ الداء أقصاه، واقتربت الساعة، وكانوا يمسحون رأسه ووجهه بالماء البارد ليخففوا عنه من آلام الحمى، وشدة الحرارة، وكان كلما استفاق من إغمائه أدخل يده في الإناء، ومسح جبهته ورأسه، وقال:

- اللهم أعنِّي على سكرات الموت.. لا إله إلا الله، إن للموت لسكرات..

- اللهم إنك تأخذ الروح بين القصب(١١) والعصب والأنامل، فأعني على شدته، وهونه على نفسي!..

يا عجباً لهذه النفس العظيمة التي هزت بعظمتها العالم، وغيرت مجرى التاريخ، وأقامت للناس ديناً قويماً، وتغلبت على الشدائد والأهوال، تستسلم للموت، وتئن من سكراته، ولكنه القدر، وضعف البشر، وموافاة الأجل، ولكل أجل كتاب..

---

(١١) القصب عظام اليدين والرجلين ونحوهما من العظام

وأخذ عليه السلام يردد هذا القول في ساعاته الأخيرة، كلما أفاق من سكرات الموت، حتى كان الفجر.. فسمع صوت بلال بن رباح يؤذن للصلاة، فكبر معه وأذن بصوت ضعيف، ثم رفع ستراً من حجرته مطلاً على المسجد، فرأى المصلين صفوفاً صفوفاً، فاغتبط وابتسم.. ورآه أبو بكر، فظن أنه يريد الخروج للصلاة، فنكص على عقبه ليفسح له، وكاد المصلون يفتنون في صلاتهم فرحاً بمقدمه، ولكنه أشار إليهم أن يثبتوا ويستمروا.. وأرخى الستر..

ودخل عليه بعد صلاة الفجر رجل من آل أبي بكر، ومعه عود من أعواد السواك لم يستعمله، فنظر إليه النبي ﷺ نظرة لم يستطع معها الحديث، ففهمت عائشة أنه يريده، فأخذته من قريبها، ومضغته حتى لان، وأعطته إياه، فأخذه، وأستاك به!..

وما كاد ينتهي، ويضع السواك بجواره، حتى شعر بضعف شديد.. فأشار إلى عائشة أن تأخذه بين ذراعيها، فأسرعت إليه في حنان، واحتضنته في رفق وإشفاق، وأجلسته في حجرها، ونفسها تتطاير أسى ولوعة، فأسند عليه السلام ظهره على صدرها، وطرح رأسه على نحرها، وشخص إلى السماء..

قالت عائشة:

- وجدت رسول الله ﷺ يثقل في حجري.. فنظرت إلى وجهه، فإذا بصره قد شخص إلى السماء، وهو يقول: "بل الرفيق الأعلى"

فقلت: خيرت فاخترت والذي بعثك بالحق. وقبض رسول الله بين سحري[١٢] ونحري.. فمن سفهي وحداثة سني وضعت رأسه على وسادة، وقمت التدم[١٣] مع النساء وألطم وجهي!

وكانت كلمة "بل الرفيق الأعلى" هي آخر كلماته عليه الصلاة والسلام، وروحه الشريفة تصعد إلى جوار الرحمن..

وعاد أبو بكر مسرعاً حين بلغته وفاة رسول الله، وكان في منازل بني الحارث فدخل الحجرة، فوجده مسجى على فراشه.. فوقف برهة واجماً ذاهلاً.. ثم تقدم إلى جسده الشريف، وكشف عن وجهه، وقبَّل فمه، وبكى، وقال:

- بأبي أنت وأمي يا رسول الله.. طبت حياً وميتاً، وانقطع لموتك ما لم ينقطع لأحد من الأنبياء قبلك، فعظمت عن الصفة، وجللت عن البكاء، ولو كان في موتك اختيار لفديناك بالنفوس.. اذكرنا يا محمد عند ربك!..

---

[١٢] السحر بفتح وسكون أعلى الحلق، والنحر موضع القلادة من العنق

[١٣] التدم أي اضطرب

الفصل الثاني

رجال علم ووطنية

الشيخ مُحَمَّد عبده

مصطفى كامل

الشيخ علي يوسف

السيد توفيق البكري

الشيخ محمد عبده

قال الأطباء:

- هو مرض في الكبد..!
- بل هو سرطان في المعدة..!
- كلا.. بل هو مرض العلماء العاملين، والزعماء المجاهدين، وهو العناء الدائم، والكفاح المتواصل، وليس له من دواء إلا الراحة من الهموم والتفكير

والتفت الأستاذ الإمام إلى أطبائه، وهم في خلافهم يتجادلون، فقال:

- لا.. بل هو كيد الكائدين، ودس الجهلاء الحاسدين. وقد يعثر الأسد بالشظية فتدمى قدمه، وتثير ألمه، وتخلف عنده من العلل، ما يبدو أثره بعد زوال الأمل..

فقال السيد رشيد رضا أحد الحاضرين:

- لقد أَعطيت نفساً أبيَّة، وعزيمة قوية، وما عهدنا فيك ضعفاً..

فقال الأستاذ الإمام: دعني من نفسي فما أبالي بها، ومن عزيمتي، فما كنت يوماً مرتخصاً لها، وما أنا بآسف على الحياة

ولسـت أبالي أن يقـال محمد	أبـل أم اكتظـت عليـه المـآتم
ولكنـه ديـن أردت صـلاحه	أحـاذر أن تقضـى عليه العمـائم
وللنـاس آمـال يرجـون نيلهـا	إذا مـت ماتـت واضـمحلت
فيـا رب إن قـدرت رجعي قريبـة	إلى عـالم الأرواح وانفـض خـاتم
فبـارك علـى الإسـلام وارزقـه	رشيداً يضيء النهج والليل قاتم
يمـاثلني نطقـاً وعلمـاً وحكمـة	ويشـبه مـني السـيف والسـيف

ثم قال: "كأنما الشعر لا يأتيني إلا في السجن وفي المرض" وهو يعني قصيدته التي نظمها في سجنه عقب الثورة العرابية ومطلعها:

مجـدي بمجـد بـلادي كنـت أطلبـه	وشـيمة الحـر تأبى خفـض أهليـه

(١٤) روى هذه الأبيات السيد رضا، ويرجح أن البيتين الأولين للإمام والأبيات التالية للسيد رشيد

وسكن الأستاذ الإمام، وأشار الأطباء بالراحة التامة من العمل، ونصحوه بالسفر إلى أوربا لتغيير البيئة، وتجديد الهواء

وعاد إلى الحديث، فقال لأحد تلاميذه:

- ينصحونني بالسفر إلى أوربا.. عجباً.. ألم يكن خيراً لي أن أسافر إلى الريف لأشتغل-كما يقول الخديو- مع الفلاحين!

فابتأس الحاضرون، وهوَّنوا عن نفسه ألم الحادث الذي وقع بينه وبين الخديو عباس حلمي الثاني قبل المرض بقليل، فأثر في نفسه. وكان النزاع بين الخديو عباس، والأستاذ الإمام ناشباً في السنوات الأخيرة من حياته، فقد بدأ بوشاية بعض الواشين، وحدث أن خلت كسوة من كساوي التشريف العلمية، بموت أحد كبار العلماء، فبعث الخديو لشيخ الأزهر السيد علي الببلاوي يبلغه أمر سموه بمنح هذه الكسوة الشيخ مُحَمَّد راشد مفتي المعية، فلم ينفذ هذا الأمر

فلما اجتمع العلماء عند الخديو عباس في التشريفات، قال الخديو لشيخ الأزهر:

- ألم يصلك أمري بإسناد الكسوة إلى الشيخ مُحَمَّد راشد؟.. فتلعثم شيخ الأزهر، ونهض بالجواب عنه الشيخ مُحَمَّد عبده فقال:

- ما قرره مجلس إدارة الأزهر إنما هو تنفيذ لأمر أفندينا، لأنه هو ما نص عليه القانون المتوج باسم سموكم.. وأما الأوامر الشفوية، فلا

يستطيع المجلس أن يعتمد عليها. فإذا شاء أفندينا أن تكون كساوي التشريف العلمية بمقتضى إرادته الشخصية، فليصدر بذلك قانوناً آخر. ينسخ هذا القانون، أو مادة قانونية، نصها: "كساوي التشريف للعلماء تمنح بأمر منا"

قال الشيخ مُحَّد عبده ذلك بشجاعة يدفعه إليها الحق، ويعتمد فيها على العدل. لكن هذا الجواب أغضب الخديو، فما كاد الشيخ يتمُّه حتى أحمر وجهه، ووقف إيذانا للحاضرين بالانصراف

مرت هذه الحادثة، لكن لم يمر أثرها.. فقد كان لها وقع شديد في نفس الخديو عباس، وزادت في توتر العلاقة بينه وبين المفتي، وكان الوشاة من حساده، يجاهدون في محاربته، ويتعاونون على القضاء عليه. وكان رحمه الله يكافح جيشين ربضاً على صدر الأمم الإسلامية عامة، ومصر خاصة. وهما جيش الضعف وفساد العقائد، وجيش الحساد والطغاة.. فلما وقعت هذه الحادثة وجد هؤلاء الخصوم بعدها مجالاً للكر والفر، وفرصة للدسائس والوشايات

وكان اللورد كرومر يقدر الأستاذ الإمام، ويعترف بفضله، ويقول لمحديثه: "أن هذا الرجل لا يمكن تعويضه".. فسعى خصومه في النكاية به عنده، فلفقوا صورة شمسية له مع بعض نساء الإفرنج، وبعثوا بها إلى الخديو وإلى اللورد كرومر، وكتبوا أن هذه الصورة تزري بكرامة الدين، وأنها تدعو إلى إقالته من منصب مفتي الديار المصرية فقال اللورد:

- أن الأستاذ يزورنا في قصرنا، وتحضر ليدي كرومو مجلسه، فهل يصح أن نعد هذا إهانة له أو لنا؟!

وتمادى حساد الإمام في باطلهم، وأمعنوا في غيهم، حتى أفسدوا ما بينه وبين أمير البلاد، فذهب في ١١ يناير سنة ١٩٠٤ إلى القصر حاملاً استقالته. ودخل على الخديو فلما سأله عن سبب استقالته، أجاب قائلاً:

- إذا كان بقائي في منصبي يا أفندينا يحدث لسموكم متاعب، فأنا أفضل التخلي عنه، رغبة في راحتكم..

فانشرح الخديو لهذا الجواب.. ولم يقبل الاستقالة..

***

زال التوتر الشديد الذي كان بين الخديو والأستاذ الإمام في ذلك الحين، وأصيب خصومه بالخذلان، وتحطمت مكائدهم، وارتدت إليهم سهامهم.. ولكن إلى حين. وانهار بناؤهم.. ولكن إلى أجل، فإن الخديو وإن كان قد ارتاح لتقديم المفتي استقالته إليه، وإيثار عطفه ورضاه عليه، إلا أنه كان يخشى شجاعته وقوة شخصيته.. وقد عرفه صارماً في الحق، فلم يطمئن إليه، وعاد معه إلى خطته الأولى فعاد أعداؤه إلى الكيد له والتشهير به، ورموه بقبول الرشوة

حدثني شاعر النيل حافظ إبراهيم، قال:

- كنت جالساً مع الأستاذ الإمام في بيته بعين شمس، فدار الحديث حول الرشوة التي رماه بها بعض الأفاكين، فقال الأستاذ الإمام:

- والله لو كنت ممن يقبلون الرشوة، لسال هذا الفناء ذهباً!

"وقد صدق رحمه الله، فهو لم يخلف شيئاً لأهله.. وفي يوم مأتمه، رأيت رجلاً يبكي بكاء مؤثراً، فأردت أن أخفف عنه، فقلت له: إن مصابك يا أخي هو مصاب الجميع، فأجابني الراجل في نشيج محزن: "لست أبكى على مصابنا في "الإمام" فقط، إني أبكي أسى على هؤلاء المساكين الذين كنت أوزع عليهم كل شهر مرتباته من الأوقاف" وإلى هذا أشرت في مرثيتي له فقلت:

بكينا على فرد، وإن بكاءنا	على أنفس الله منقطعات
تعهدها فضل الإمام وحاطها	بإحسانه، والدهر غير مؤاتى

ثم قال لي حافظ: "ولم أر كالإمام في قوة خلقه، وثقته بنفسه. حدث أن جاءه يوماً كتاب تهديد بالقتل من مجهول، فابتسم رحمه الله ابتسامة ظريفة، ثم دفع الكتاب إلى السلة. وذات يوم كنت راكباً معه عربته إلى بيته، فقلت له:

- لو أننا فوجئنا بهذا الذي بعث إليك وعيده، فماذا يكون موقف الإمام؟

فأجاب بقوله:

- والله يا حافظ، إني لأهنئ نفسي إذا وجدت في مصر من يقدر أن يقول في وجهي "أخطأت"، فكيف بي إذا وجدت من يريد أن يقتلني؟!

وكان من حساده أحد علماء سورية، وقد اعتاد أن يطعن في كفايته، ويشهر بعلمه ودينه كخصومه في مصر، فكان الإمام يتغاضى عنه. فلما ألف رسالة التوحيد، بعث إليه هذا العالم بكتاب يقول فيه أنه قرأ هذه الرسالة فأزالت كل سخيمة في نفسه، ودفعته إلى الاعتراف بفضله، فرد عليه الإمام بقوله:

- الحمد لله.. حينما أبغضتني أبغضتني لله، وحينما أحببتني أحببتني في الله

***

جاهد الأستاذ الإمام في وسط هذا الجيش من الخصوم المتهافتين على نضاله، الموغلين في إيذائه، فلم يعبأ بهم، واندفع في طريق الإصلاح يشقه بهمة قوية وعزيمة حديدية، ونور يمحو ظلام الباطل، ويهتك حجاب الضلال، ويسعى في سبيل الله لا يفرق بين كبير وصغير، أو بين ملك وأمير، بل كان الكل أمامه سواء. ولم تعوزه يوماً الشجاعة في معارضة ما لا يتفق وتعاليم الدين، ولم يخذل يوماً حقاً هاجمه باطل، ولا عدلاً طارده ظلم، بل كان ينبري في الميدان بقلب مملوء بالإيمان، ونفس مزودة باليقين، فينصر ما أحله الله، ويناضل ما حرمه. وكانت هذه الخطة جديرة بأن تجعل له

المكانة عند حكام البلاد، لولا السياسة.. وقاتل الله السياسة، فما دخلت شيئاً إلا أفسدته

وكانت حادثة استبدال قطعة من أطيان وزارة الأوقاف بقطعة من أطيان الخديو عباس.. وكان للإمام فيها رأى يخالف رأي سموه، فحرمه الخديو رضاه..

وفي هذا الحين أقبل أحد الأعياد، فذهب الأستاذ الإمام إلى القصر فيمن ذهب من الكبراء لتهنئة الخديو.. فلما كان في المجلس، قال الخديو:

- بلغنا أن في البلاد لفيفا ليسوا راضين عن أعمالنا.. فهؤلاء خير لهم أن يعودوا إلى بلادهم، ليشتغلوا فلاحين

سمع الإمام هذه العبارة، فأيقن أن الخديو عباس يعنيه بها.. فخرج من القصر مكلوماً، واعتكف في بيته مغموماً، ولكنه كان يعمل لوظيفته وللناس، وهو على فراشه.. فأضعف التعب جسمه، وأنهك الحزن نفسه، فاستفحل مرضه

وكان شهر يونية سنة **١٩٠٥**، فتهيأ للسفر إلى أوربا طوعاً لنصيحة الأطباء، لكن السفن الدورية كانت قد امتلأت بالمصطافين، فاضطر إلى الانتظار إلى ما بعد اليوم الرابع عشر من هذا الشهر

ودنا موعد الدور الثاني، ودنت حالته من النهاية، وأشرف على الرحيل من هذه الحياة، فنصح الأطباء لأهله ومريديه أن يحببوا إليه الإقامة

بالإسكندرية وأن يثنوه عن السفر إلى أوربا، فأفلحوا.. ونزل بطل الإسلام بمدينة بطل اليونان

طابت الإقامة لمفتي البلاد، وزعيم الإصلاح الديني والاجتماعي بهذه المدينة، وانتعش الأمل في شفائه، وابتهج الناس بتحسن صحته، وتفاءلت مصر كلها بما ذاع بين أرجائها من أنباء سارة، وابتهلت إلى بارئها أن يتم لأمامها أحسن العافية

لكن هذا الأمل الذي انتعش في بسمة من الأيام، وهذا الابتهاج الذي بدأ في ساعات معدودات، وهذا التفاؤل الذي لمع في النفوس، لم يلبث ذلك كله طويلاً.. فقد تبدد في الخامس من يولية حين انتشر نبأ الخطر على صحته

وكان المكلفون بتمريضه يحيطون به في مساء ذلك اليوم، وقد اطمأنوا إلى أنه يقضي الليل منذ أيام في راحة وهدوء.. ولكنه في هذه الليلة، استيقظ متضوراً، فأسرعوا إليه، فوجده حائراً، يتلوى يميناً ويساراً من تبريح الآلام، وكان السرطان قد امتد إلى فمه، فضاعف عظيم ألمه، واستمر في هذه الحال يعاني الداء العقام، ويكافح الأوصاب الجسام، ويستعين عليها بذكر الله. وكان منذ ابتداء مرضه يردد في عنائه: "الله أكبر.."

الله أكبر.. كانت هذه التكبيرة سلوته، ومفتاح صبره، وبلسم ألمه..

الله أكبر.. كانت هي عماد عزمه في شجاعته وأقدامه، وآية كلمه في يقظته ومنامه، وفي قعوده وقيامه.. لم ينفك عن ذكرها، ولم يبرح يعيدها، كلما برح به الداء، واشتد عليه البلاء

وفي صباح الحادي عشر من يولية سنة ١٩٠٥ دخلت عليه السيدة زوجته، فوجدته هادئاً.. فنادته، ففتح عينيه قليلاً ثم أغمضها، وأخذ يحرك شفتيه بالتكبير، فعادت السيدة فأسمعته جميل أمانيها له ودعاءها بشفائه، فابتسم لها، ثم حرك شفتيه بالتكبير.. فكان آخر ما حرك به لسانه قبل أصابته. وآخر ما حرك به شفتيه في سكرات موته.. حتى استوفى من الحياة آخر اللحظات، وصعد ليستوفى جزاءه من نعيم الجنات

مصطفى كامل

كانت الساعة الخامسة من مساء يوم الاثنين ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨، وقد أخذ قلب مصر يخفق خفقاناً شديداً للخطر الذي أحدق بزعيمها الشاب مصطفى كامل منذ الساعة العاشرة من صباح ذلك اليوم. وما مضت نصف ساعة حتى كانت المأساة الوطنية الكبرى بأفول هذه الحياة الساطعة التي اتقدت حماسة ونشرت نورها بين الجوانح والقلوب، فأيقظت نفوس المصريين، ودفعتها إلى الأمام عشرات الأعوام

شعر الفقيد العظيم بالمرض لأول مرة قبل وفاته بنحو أحد عشر عاماً من فرط الإجهاد في العمل لخدمة وطنه، وسعيه لتحرير أمته من ربقة الاستبعاد، ونير الاحتلال البريطاني. فقد أوربا في ١٠ أكتوبر سنة

١٨٩٧، فاستقبله أصدقاؤه وأنصاره بالحفاوة والتكريم. ولم يمض يومان على عودته حتى اعتراه مرض أنهك قواه عدة أسابيع، فأشار عليه الأطباء أن يقضي الشتاء في حلوان فعمل بمشورتهم، وسافر إلى هذا المشتى، ومكث فيه حتى أبل من مرضه، ثم كتب إلى شقيقه علي فهمي رسالة في ٣ ديسمبر سنة ١٨٩٧، يقول فيها:

"أخي.. لاشك أنك قلقت كثيراً حتى بعثت بثلاثة تلغرافات بعد عدة خطابات لتقف على صحتي، لأني منذ ثلاثة أشهر لم أكتب إليك كلمة. إني كنت في مرض شديد يئست معه من حياتي. وقد أصابني بعد وصولي إلى العاصمة بيومين. وهو مسبب عن كثرة المتاعب التي صادفتها في هذا العام، والتي أؤمل أن تكون ناجحة، لأنها كما تعلم صادرة بإخلاص، ولا أمل لي في شيء من ورائها سوى عودة مصر إلى زهوها، ورجوع السيادة لأبنائها المخلصين"

عاد مصطفى كامل إلى جهاده وإلى متاعبه، ولم يشفق على نفسه المحبة لمصر، المغرمة بحريتها وكرامتها، فكان المرض يعاوده حيناً بعد حين، ففي سنة ١٩٠٣ اعتلت صحته، وكتب إلى مدام جولييت آدم من فيشي بفرنسا كتاباً يقول فيه:

"يجب أن أقضى معظم هذا الشهر في "التيرول" مع صديقي فريد بك الذي تشرفت بتعريفه إليك منذ سنتين، لأن الأطباء قد رأوا أنه من

الواجب أن أمضي في الجبل بعض الزمن إذ أخذ التعب يستولي على أعصابي.. ولهم الحق في ذلك، فإني لم أشفق على نفسي!.."

وكتب إليها يقول في رسالة أخرى، وقد عاوده المرض والإرهاق بعد عامين من تلك الرسالة:

"إن العمل قد أضناني إلى حد أشعر معه بسرعة الحاجة إلى ترك الوسط الذي أعيش فيه. وكأن الطبيعة خالفت سنتها، إذ جعلت قوة روحي أكبر من قوة جسمي"

وفي صيف سنة ١٩٠٦، سافر إلى أوربا للاستشفاء والعلاج. وكان في حاجة قصوى إلى الراحة، ولكن حادثة دنشواى جعلته يقطع على نفسه سبيل الراحة والعلاج، فهب من فراش المرض يدافع عن المظلومين، ويحارب بقلمه ولسانه وجسمه الظالمين وكان وقتئذ في باريس، فثارت نفسه، ووثب قلبه ليسمع العالم صوت مصر، وكتب في جريدة "الفيجارو" الفرنسية مقالاً بليغاً بعنوان: "إلى الأمة الإنجليزية والعالم المتمدين" عرض فيه حادثة دنشواي على الضمير الإنساني، فكان لها أثرها البالغ في النفوس، وكانت من أبلغ ما كتب الفقيد العظيم وأكبر معول في هدم صرح الظلم والهمجية الذي أقامه اللورد كرومر في مصر

وأخذ مصطفى كامل يواصل الجهاد بلا مبالاة بصحته ولا خوف على حياته، لأن حب مصر كان يملأ قلبه، وغرامه بحريتها وعزتها واستقلالها يشغل نفسه. وفي صيف سنة ١٩٠٧، رحل إلى أوربا للاستشفاء والجهاد.

وكانت هذه الرحلة هي آخر رحلاته، فشعر بالمرض يشتد به، فقال للمسيو أدولف ادرير مراسل "الاتيندار" في باريس حين قابله:

"إني أشعر أن المرض قد عاد إلي.. ترى هل أعيش حتى أرى أول نجاح لمجهودي ليحصد الآخرون نتائج جهادي، ولكني أتمنى أن يكون لي وقت كاف للغرس والزرع!"

وكانت هذه هي الأمنية الكبرى بعد ما شعر بأن مرضه الخطر يهدده بالفراق. ولما عاد مصطفى كامل إلى مصر في أكتوبر سنة ١٩٠٧، قابله الشعب بأعظم مظاهر التقدير والإعجاب. ورأى هو أن يدعم حركته قبل وفاته بتأليف الحزب الوطني. وفي أول اجتماع مع أصدقائه وإخوانه للبحث في تأليف الحزب شعر بشيء من التعب، ورأى الحاضرون علامات الضعف بادية عليه، فقال لهم:

- يخيل إليَّ إني عما قريب، سوف أفارقكم!

فقال إخوانه:

- إلى أين؟.. لقد أجهدت نفسك، وسموت فوق الطاقة في الجهاد، وأنهكت جسمك في السفر في سبيل مصر مراراً، فاسترح في بلدك

- سوف يستريح جسمي الراحة الكبرى. وكنت أود لو استراحت روحي ونفسي قبل الفراق..

- ماذا تعني يا باشا؟

- إني لن أعيش طويلاً، وسأموت قريباً.. فلا تضيعوا الوقت، وأسرعوا في العمل!

- سلمت يا مصطفى.. لا تتشاءم، ودع عنك هذا الوهم، وسيمن الله عليك بالشفاء التام..

- ليس تشاؤماً، وليس وهماً، إني لأشعر في أعماق نفسي بقرب نهايتي!

فارتاع إخوانه من هذا الحديث الذي دار بينه وبينهم في اجتماعهم في أكتوبر سنة ١٩٠٧، وجمدت أبصارهم وجلسوا في ذهول

وفي أثناء هذه اللحظات التفت إلى شقيقه علي فهمي كامل، وقال: "تشجع يا علي، وإذا مت، فليحمل اللواء هذا الرجل النبيل" وأشار إلى مُحَمَّد فريد بك

ولقد كان مصطفى كامل يغالب العلة، ويكافح المرض ليواصل رسالته في الجهاد لحرية مصر وخلاصها من الاحتلال، ثم كان خطابه الحماسي البليغ الذي ألقاه في ٢٢ أكتوبر بمسرح زيزينيا بالإسكندرية قبل وفاته بنحو أربعة أشهر، واستمر أربع ساعات في إلقائه، فبذل من صحته ومجهوده ما دفع أصدقاءه إلى الإشفاق عليه، والخوف من أن يكون خطابه هو خطاب الوداع، وقد ضمنه آماله، ومبادئه، وتفنيده القوى لحجج

خصومه، ونداءه الخالد للمصريين، وحضهم على العمل الدائم، حتى تستعيد مصر مجدها القديم، وتصبح كما كانت سيدة الأمم

قال الزعيم مصطفي كامل:

- دهش الذين كانوا لا يرون فينا إلا أمواتاً تتحرك، كما بهت أعداء الوطنية المصرية من هذه الروح الجديدة التي دبت في الأمة، وقالوا عجباً: "أيحيا هذا الشعب؟.. أتنهض مصر بنفسها؟.. أتعمل للاستقلال وحدها؟.. أتقدر على تحقيق مطالبها بمحض إرادتها؟.. أتقاتل اليأس والقنوط، وتتغلب على الحوادث والكوارث؟!"..

أجل يا أعداء مصر، وألف مرة أجل.. أن مصر بالغة آمالها، ومحققة أمانيها بإرادتها وهمتها. إننا وجهنا قلوبنا ونفوسنا وقوانا وأعمارنا إلى أشرف غاية اتجهت إليها الأمم في ماضي الأيام وحاضرها، وأعلى مطلب ترمى إليه في مستقبلها، فلا الدسائس تخيفنا، ولا التهديدات توقفنا في طريقنا، ولا الشتائم تؤثر فينا، ولا الخيانات تزعجنا، ولا الموت نفسه يحول بيننا وبين هذه الغاية التي تصغر بجانبها كل غاية

نعم.. لو تخطفنا الموت من هذه الدار واحداً واحداً، لكانت آخر كلماتنا لمن بعدنا: كونوا أسعد حظاً منا، وليبارك الله فيكم، ويجعل الفوز على أيديكم، ويخرج من الجماهير المئات والألوف بدل الآحاد للمطالبة بحقوق الوطن، والحرية، والاستقلال المقدس

"بلادي بلادي.. لك حبي وفؤادي.. لك حياتي ووجودي.. لك دمي ونفسي.. لك عقلي ولساني.. لك لبي وجناني.. فأنت أنت الحياة، ولا حياة إلا بك يا مصر

***

ألقى مصطفى كامل هذا الخطاب في أكتوبر سنة ١٩٠٧، وتنبأ بقرب وفاته، وكان قبل ذلك قد بعث في سبتمبر من ذلك العام إلى شقيقه علي فهمي كامل خطاباً من باريس يشكو فيه ضعف جسمه، واشتداد آلام الأمعاء عليه، ويتنبأ بأن حياته قصيرة، وأجله قريب

وعلى الرغم من اشتداد آلامه، ونحول جسمه، كان لا ينفك عن العمل ليل نهار بنفس فتية، وروح قوية، لا يقعد به الضعف عن الأقدام، ولا يثنيه المرض عن الاستبسال. وقد دفعه كفاحه ضد خصوم وطنه، إلى كفاحه ضد راحة نفسه، وتغلبه على ضعف جسمه

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام

لم يرفق "مصطفى" بجسمه النحيل الضئيل، حتى أصبح روحاً في هيكل عظمي، أو أصبح كله روحاً عجيبة تتكلم وتعمل وتسير بلا جسم! وإذا كان نهوضه الوطني في ذلك الزمان نادراً، ونبوغه السياسي بين الشباب نادراً، ونشاطه الفني بين المجاهدين نادراً، وتفانيه الكلي في حب وطنه نادراً، فلا عجب إذا أعطى روحاً فريدة نادرة، تفرض إرادتها على

الزمن، وتتغلب على المصاعب، وتعيش سليمة قوية سواء أبقى الجسم أم تداعى وانمحى

نازل "مصطفى" المرض عدة مرات، فكانت له الغلبة، وفاز بالنصر، وتماثل للشفاء، فانتعشت آمال أصدقائه ومريديه. لكنه عاد في أوائل يناير سنة ١٩٠٨، فشعر بتعب في المعدة إلى جانب مرض "الأمعاء والكلى"، فنصح له الأطباء بالاعتكاف في فراشه

رأى الزعيم الشاب أن مرضه الشديد يخفى وراءه شبح الموت، وأنه على الرغم من قوة روحه، لا يستطيع أن يكافح هذا المرض الفتاك، ولكنه استسلم للراحة، واعتكف في فراشه عملاً بنصح الأطباء، لعله يطيل في مدة حياته القصيرة أياماً يخدم بها أمته وبلاده

وقبل وفاته بأيام دعا والدته، فجلست بجواره، وأخذ يحدثها عن آماله، ويشكو إليها ما ألم به من أسقام، فصارت والدته تطمئنه، وتهون عليه مصابه، فدمعت عيناه، ثم أجهش بالبكاء، والتفت إلى أمه، وقال:

- لست أبكي يا أماه على الحياة، وإنما أبكي على مصر المسكينة، آه لو عشت عشرين سنة أخرى، لمت هانئ البال، مطمئناً على بلادي إنها ستصبح مستقلة. نعم، وأنا واثق إنها ستكون سيدة العالم في يوم من الأيام

وهنا دخلت شقيقته الصغرى "نفيسة هانم" وشقيقه علي فهمي، فدعاهما للجلوس، ثم أمسك بيد شقيقته، وقال

- كنت أتمنى أن أعيش طويلاً، وأراك عروساً في منزل زوجك والتفت إلى شقيقه علي فهمي، وقال:

- ستتعب يا أخي من أجل مصر، ولكن لا تحزن

***

كانت مصر في ذلك الحين قد علمت باشتداد المرض على زعيمها الأكبر، فهلعت قلوبها، وارتاعت نفوسها، واتجهت بآمالها إلى الله داعية متضرعة أن يبقى لها ابنها البار، الوفي لخدمتها، المدافع عن حريتها، وهرعت الوفود إلى داره تسأل عن صحته

وفي يوم السبت ٨ فبراير، أي قبل وفاته بيومين، زاره الخديو عباس حلمي الثاني، فنهض له الفقيد من فراشه واستقبله في ابتهاج ونشاط كأن لم يكن به داء، وعند توديعه، قال له:

- لي رجاء يا أفندينا، وأنا أشعر الآن بقرب الأجل، أن تعطف على الحزب الوطني، فإنه أمل مصر، وقد وصلنا إلى نجاح كبير في مسألة دنشواي، وإخراج اللورد كرومر، وتغيير وزارة مصطفى فهمي، وإنشاء مجالس المديريات، وانتصارنا لتركيا في مسألة طابة

فطمأنه الخديو، وتمنى له حياة طويلة..

وفي مساء ذلك اليوم نام مصطفى كامل نوماً مريحاً، وابتسم صباح الأحد عن هدوء واطمئنان وتفاؤل بشفاء الزعيم، وزاره بعض أصدقائه، وفيهم أمير الشعراء أحمد شوقي بك، فجلس يحادثهم. وأنه لكذلك إذ شعر بآلام شديدة، فاستأذنهم في الاستلقاء على فراشه، وأسرع الدكتور صادق رمضان، فقام بإسعافه لتخفيف ما يشعر به، فقال مصطفى لطبيبه: "هل هناك أمل؟.."

فقال الطبيب: "نعم.. لا حياة مع اليأس، ولا يأس مع الحياة"

فهز مصطفى رأسه، وقال: "بل إني أذوب الآن وعما قريب أموت"

ثم التفت إلى صديقه أمير الشعراء، وقال له في ابتسامة حزينة:

- سوف ترثيني يا شوقي.. نعم.. أليس كذلك؟

فسكت شوقي ودمعت عيناه. وفي ذلك يقول بعد وفاة صديقه الزعيم:

ولقد نظرتك والردى بك محدق	والداء ملء معالم الجثمان
يبغي ويطغى والطبيب مضلل	قنط، وساعات الرحيل دوان
ونواظر العواد عنك آمالها	دمع تعالج كتمه وتعاني
تملي وتكتب والمشاغل جمة	ويداك في القرطاس ترتجفان

فهششت لي حتى كأنك عائدي	وأنا الـذي هـد السـقام كيـاني
ورأيت كيف تموت آساد الشرى	وعرفـــت كيـــف مصـــارع
ووجـدت في ذاك الخيـال عزائمـاً	مــا للمنــون بــدكهن يــدان
وجعلـت تسـألني الـرثاء فهاكـه	مـن أدمعـي وسـرائري وجنـاني

وقام شوقي، وقام سائر الصحب من الأصدقاء والمريدين. وهدأ الزعيم قليلاً، وأقبل المساء، فانتعشت صحته، ونشطت بنيته وأخذ يسامر أهله ويمازحهم، ويلعب معهم "الكتشينة". واستمر في تلك الليلة يقظاً إلى الساعة الحادية عشرة. ثم نام. وفي الساعة الرابعة صباحاً استيقظ، فوجد نفسه غارقاً في بحر من العرق، فدعا بملابس أخرى فأبدلها بملابسه، ثم نام نوماً هادئاً، لم يزعجه فيه ألم

***

وفي العاشرة من صباح الاثنين ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨، دخل عليه شقيقه علي فهمي، وزميله مُحَمَّد فريد، وبعض صحبه، فسألوه عن صحته، فطمأنهم، وجلس يحادثهم ثم لم يقو مصطفى على الحديث طويلاً. ولاحظوا تغيراً في لونه، وجموداً في عينيه، وشروداً في فكره، فاستولى عليهم الجزع، وسألوه عن ألمه، فقال: "لا شي، لا تخافوا" ثم اتجه إلى فريد، وقال:

- تشجع يا فريد، واستمر في عملك بحكمة، ليسهل علينا بلوغ الأمل

وصمت بعد هذه العبارة، وكاد يغيب عن الوجود، ثم تنبه قليلاً، وقال: "مسكينة يا مصر!!".. وأخذ يردد هذه الكلمة، وكانت آخر

كلماته.. واستولى عليه تشنج لم يفق منه، وصعدت روحه إلى عالم الخلد في منتصف الساعة الخامسة من مساء ذلك اليوم المشئوم

فكانت مأساة.. أية مأساة.. ومصاباً أي مصاب– مصاب الوطن الحزين، مصاب الشباب الناهض، مصاب النبوغ النادر، مصاب البسالة الفائقة، مصاب الحجة الدامغة، مصاب الإخلاص في العمل، والجهاد في سبيل الحق، وفي سبيل الحرية والاستقلال!

الشيخ على يوسف

– نعم يا صديقي.. لقد خدمت بلادي نحو ربع قرن ذائداً عنها، مدافعاً عن حقوقها، مجاهداً في سبيل الإسلام والمسلمين، حتى فقدت المال، وهو عماد الحياة، وأضعت الصحة، وهي تاج السعادة، وانتابني مرض القلب فحرمني كل راحة، وأضعف مني كل أمل. وكنت أشعر بأن لي قلباً يحملني إلى المجد، فصرت أشعر بأنني أحمل قلباً يسوقني إلى الموت، وما أظن إلا إنني خافق بين خفقاته، وراحل في نوبة من نوباته

– لا تخف يا شيخ علي.. فلقد كدن تخيف بقلمك الموت، وقد حطمت في طريقك مخاوف الحياة

– إن هذا الداء يا صديقي قد نال مني، وثقل على نفسي وجسمي، وكان أثقل مما أحمله من أعباء الديون. وما أرى الصحة إلا ديناً

يقتضيه القدر منا بالأمراض، ولا أرى الهناءة إلا قرضاً يجود به الدهر، وعارية تسمح بها سانحة من الزمان..

- لكنك قضيت أيام صحتك فيما يوجب لك الحمد من وطنك، ويستأهل الجزاء الأوفى من ربك.. فإذا شكوت اليوم الداء، فما أحسبك تشكو من نفسك التقصير، وتندم على فوات وقتك في الإهمال

- احمده يا أخي على كل حال.. وإذا مت فستطمئن روحي إلى أني بذلت ما في وسعي، ونهضت ما استطعت في سبيل مصر، وفي سبيل الإسلام، وفي سبيل الجامعة الإسلامية..

- وفي سبيل الدستور...

- حقاً، وفي سبيل الدستور أيضاً. لقد فرحت مع الفرحين من صميم قلبي للانقلاب الدستوري في الآستانة، وقدرت الأبطال المجاهدين من أجله حق قدرهم، ولم أقف موقف الاعتراض عليه إلا من حيث الشكل، أما الموضوع فإني أرى الدستور لازماً لحياة الدولة العلية، وبقاء الجامعة العثمانية. وقد كان هذا الانقلاب ضرورياً، لأن هذا العصر الذي يتقلص فيه ظل الحكم المطلق من كل مكان لم يكن ليسمح ببقائه في الممالك العثمانية إلا والحوادث تمزقها كل ممزق، ولئن خشيت شيئاً على الدستور، فإنما أخشى الجيش..

- ولماذا؟

- لأن السيف، والحرية، والدستور، لا تبيت في جراب واحد..

- صدقت..!

- ولأن تدخل الجيش في الأعمال السياسية والإدارية، خطر على الدستور، وخطر على كيان الأمة. والواجب أن يقف الجيش موقف الحارس..

- "وقد بعث لي الأستاذ سليمان البساتي من الآستانة يعاتبني على ما كتبته في "المؤيد" انتقاداً لتدخل رجال الجيش العثماني في الشئون السياسية والإدارية، فأجبته بأن هذا التدخل أفقد الدولة التوازن بين الحزبين السياسيين اللذين في مجلس المبعوثان، وفقدان التوازن قد حصر السلطة في يد فريق من الفريقين المتنافسين عليها في وقت لم تتشبع فيه النفوس من المبادئ الدستورية الحقيقية، فكان التذابح الذي وجد بين الحزبين. فإذا كان الانقلاب الذي جرى بعد ذلك قد خلع سلطاناً مستبداً، فإنه أيَّد استبداد جماعة لا يمكن أن تبقى للأمة وحدتها معهم إذا استمر استبدادهم بشئون الحكومة والأمة. ولهذا نخشى أن يفضى العمل الذي أريد به الدستور إلى تمزيق شمل الأمة..

قال محدثه وصديقه أحمد شفيق باشا:

- أصبت.. ولقد قرأت مقالاتك في هذا الانقلاب، فقدرت آراءها، وأكبرت فوائدها للدولة وللإسلام.. وما أكثر ما أفدت أيها "السيد" بآرائك ومقالاتك

- لكني جنيت بهذه الفوائد مرضاً أليماً، وديناً جسيماً، وأحسنت إلى الدولة وأساءت إلى نفسي. وما أظن إلا إني ملاق حتفي عما قريب.. ولي يا أخي ملتمس أريد رفعه إلى الخديو..

- ما هو؟

- بمدينة الإسكندرية وقف، باسم السيد عبد الرازق الوفائي، يتولى النظارة عليه ديوان الأوقاف.. وهو تابع لوقف السادة الوفائية الذي أتولى النظارة عليه.. فهل تسعى لدى الخديو كي يصدره أمره بتحويل نظارة هذا الوقف وجعله تحت رياستي؟

- سأبحث الموضوع، وسأعرض الالتماس على سموه عساه يصدر أمره الخديوي بذلك، وأرجو أن نتقابل في صلاة الجمعة القادمة بحضور سموه...

***

كان ذلك في مايو سنة ١٩١٢، والخديو عباس حلمي يصطاف وقتئذ بالإسكندرية، وكان حديث الشيخ علي يوسف مع أحمد شفيق باشا، بقصر رأس التين..

وفي يوم الخميس التالي، ذهب الشيخ علي يوسف إلى أحمد شفيق باشا مدير ديوان الأوقاف وقتئذ، وحادثه في موضوع الوقف، فأخبره أن البحث دل على أن عبد الرازق الوفائي لا ينتمي لعبد الرازق الوفائي التابع لأبي الأنوار السادات الذي يتولى نظارته الشيخ علي، وأن الاسم لمسميين، وأن بين الواحد والآخر جيلاً كاملاً. فاعترض الشيخ علي يوسف، وناقش صديقه مدير الأوقاف طويلاً، ثم قام غاضباً..

وفي يوم الجمعة ذهب إلى قصر رأس التين، ليقابل سمو الخديو، وليعرض عليه ما دار بينه وبين أحمد شفيق باشا.. فاستأذن سموه، ولما مثل أمامه أخذ يشرح أمره في تأثر عظيم، وطال الشرح فاشتد خفقان قلبه، وشعر بوخز شديد، ثم أغمي عليه بين يدي الخديو، فاستدعى له طبيب القصر، فقام بإسعافه حتى أفاق من هذه النوبة القلبية التي كانت تصيبه في بعض الأحيان..

وكان في قصر رأس التين وقتئذ سعد زغلول باشا، وإسماعيل أباظة باشا، وحافظ بك عوض، وشهدوا ما أصاب الشيخ علي، فاهتزت عواطفهم، وكلهم صديق له، مقدَّر لمكانته، معترف بفضله..

وأقبل عليهم أحمد شفيق باشا في القصر، حينما علم بالحادث، فقالوا له:

- ماذا بينك وبين "الشيخ" وحجته قوية وبرهانه واضح؟!

فأبدى لهم شفيق باشا رأيه.. ثم دعي لمقابلة الخديو، فلما دخل وجد مُحَمَّد سعيد باشا جالساً عنده، فعرض البحث على سموه، فقال سعيد باشا:

- لكن الشيخ علي جدير بالتساهل، ولست أرى رأيك في الموضوع فقال شفيق باشا:

- إن المسألة مسألة شرعية، فلماذا يطلب الشيخ علي من الخديو أن يقضي فيها؟

وأحيلت هذه المسألة إلى لجنة تبحثها وتقضي في الموضوع، وصرف المرض الشيخ علي يوسف عن متابعة هذه اللجنة، وكان داؤه يتفاقم بتوالي الأيام

***

وكان رحمه الله قد اعتزل الصحافة قبل هذا الحادث بنحو شهرين- أي في ٦ مارس سنة ١٩١٢- لإسناد مشيخة السادة الوفائية إليه. فكتب في جريدة "المؤيد" كلمة الوداع، قال:

"إلى سادتي.. وإخواني.. ورصفائي قراء المؤيد..

"بعد ثلاث وعشرين سنة أنشأت فيها "المؤيد" وقمت بتحريره مسئولاً عنه، قد اضطرت منذ الأمس بمقتضى أسباب عائلية قوية إلى أن أودع مهنة الصحافة التي أحترمها، وأعتبرها من أشرف الأعمال المفيدة

كثيراً للهيئة الاجتماعية، بل اضطررت إلى أن أودعكم راجياً أن تكونوا حفظة كراماً خيرين تذكرون الحسنة وتنسون السيئة {إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ} [هود: ١١٤]

"على إنني مع هذا الوداع إنما أترك وظيفة التحرير في "المؤيد"، وقد صار قوة كبرى في خدمة الأمة، بل إنه بحيث لم أصبح فيه إلا عاملاً من جملة عمال كثيرين، وكاتباً من كاتبين، فهو لا يخلو يوماً واحداً من آثار عشرات من كبار الكتاب المفكرين، ولا يضيره إلا يكون فيه واحد من هؤلاء. ولن تتخلى عنه الأمة التي أصبح وديعة في ذمتها، إن تخلي عنه قلم من بين أقلام المحررين

"وفضلاً عن هذا، فإني إذا تركت قلمي بجانبي، فلم أكسره. وإن عطلت وظيفة لي في "المؤيد"، فلم أعطل فكري وضميري. وسأقوم بما يجب علي لوطني كلما دعاني هذا الواجب بقدر ما أستطيع

"كما إنني سأبذل جهدي في القيام بأعباء جمعية الهلال الأحمر (وكان قد أنشأها) لجعلها جمعية ثابتة قادرة على الدوام أن تؤدي وظيفتها المقدسة التي تتطلبها منها عواطف الإنسانية الرحيمة

"وأسأل الله أن يوفقني وإياكم في خدمة الأمة والملة لما يحبه ويرضاه"

***

ودع الشيخ علي يوسف الصحافة هذا الوداع، فكانت مفاجأة اهتزت لها نفوس القراء في جميع أنحاء الشرق العربي، بل في جميع أنحاء العالم الإسلامي. وتوالت الرسائل على المؤيد، تلح في عودة "الأستاذ" إلى الكتابة، وأسف الناس كلهم لحرمانهم من قلمه الذي وصفه حافظ إبراهيم بقوله:

في شـــقه ومراميـــه وريقتـــه	ما في الأساطيل من بطش ومن
كم رد عنا وعين الغرب طامحة	مـن الـرزايا، وكـم جلـي مـن
لـه صـرير إذا جـد النـزال بـه	ينسـى الكمـاة صـليل البـيض

وبلغ التأثر بمحرري جريدة "المؤيد" من وقع هذه الاستقالة، أن قدموا استقالتهم إليه قائلين:

- إن المؤيد جسم وأنت روحه، وسعادتنا بالعمل فيه هي بالنسبة لكوننا مرءوسين بك، وحيث أنك استقلت من إدارته ورياسة تحريره، فنرجو أن تقبل استقالتنا

فلما قرأ هذه الاستقالة، جمعهم، وجعل يطمئنهم، ويشرح الأسباب التي أدت إلى الاستقالة للانصراف لخدمة منصبه الجديد

اعتزل الشيخ علي يوسف الصحافة، وودع الكتابة، وانصرف لخدمة السادة الوفائية. وفي أثناء ذلك رفع ملتمسه السابق لضم وقف السيد عبد الرازق الوفائي إلى وقف أبي الأنوار السادات، فوقع بينه وبين صديقه

أحمد شفيق باشا مدير ديوان الأوقاف خلاف لم يؤثر في العلاقة التي بينهما، ولم يلبث أن عاد إلى صفوه، واستأنف معه سابق وده. وكان نقاء قلب الشيخ علي يوسف وكرم نفسه من أبرز صفاته

ولقد كانت بينه وبين مصطفى كامل باشا، منافسة حامية تقطع بين الأخوين، وخصومة سياسية عاصفة تقتلع ما بين الأقربين، ومات "مصطفى" فكان بكاؤه عليه بكاء الشقيق المنكوب، ورثاؤه له رثاء الصديق المسلوب، فقد رثاه يوم وفاته بدموع دامية، وعواطف ثاكلة، وقلب مروع مفجوع، وأشاد بمواهبه، وأطرى جهاده، وأكبر خدماته للوطن، فقال فيما قال:

"إليك أيها الصديق القديم، أرسل تحية الحزين من سويداء قلبه إلى أعماق قبرك، ذاكراً لك تلك السنين الثماني عشرة التي قضيناها معاً في خدمة الوطن.. لا فضل لما كان بيننا فيها من صفاء على ما تخلل صلاتنا بعد ذلك من جفاء، فقد كنا متناظرين، أقرب منا إلى أنفسنا متناصرين، لا تحفل إلا بما أكتب، ولا أهتم إلا بما تقول، ولكن الصلات الشخصية كثيراً ما يعتريها بين الأخوين من الأبوين– فضلاً عن الصديقين– فلول، ثم تزول..

"وإليك أيها الصديق القديم، والزعيم العظيم تحية محزون، يعرف لك أكثر من كل إنسان خدمتك العظيمة التي خدمت بها وطنك، فأيقظت من

شعور الوطنيين ما قامت مظاهرات الأمس أكبر برهان على مقدار ما كان لك فيه من حسن أثر ويد بيضاء"

***

وكذلك كان الشيخ علي يوسف مع سائر أصدقائه، فلما حدث ما حدث بينه وبين شفيق باشا مما أصابه بالإغماء بين يدي الخديو، لم يحقد عليه، ولم تعاوده موجدة كلما عادت إليه هذه النوبة القلبية. وقد استمر طول العام الأخير من حياته يصارع نوباته صراعاً عنيفاً حتى كانت ليلة الخامس والعشرين من شهر أكتوبر سنة **١٩١٣** فاشتد به الداء، وثقل عليه البلاء، واضطرب النبض، واستحرت في قلبه الآلام، واستبدت دقاته كأنما هي وقع السهام:

فإن أفشى النسيم لكم حديثاً بأني قد قبرت فلا تشكوا

فمهما جئتمو بعدي فصلوا على قبري الجنازة ثم

وفي منتصف الليل، طلب من أهله أن يدعوا صديقه عبد الخالق مدكور باشا فحضر إليه، حانياً عليه، ووجده في حال تستدر الشئون.. ينوء بأوصابه، ويهم من فراشه جالساً في شهيق يفتت الأكباد، وتلتاع له الأفئدة، ثم ينتفض ماشياً في هجوم كأنما يدفع عنه عدواً، أو يرد مفترساً يريد أن ينقض عليه، فيسلبه أعز شيء لديه، حتى إذا وهنت قواه سقط

---

(١٥) البيتان من ديوان "السحر" نظم الشيخ علي يوسف

على مقعده، أو تخاذل في مضجعه، أو عانق صديقه عناق المستجير من الآلام، المستغيث من وخزات السهام

فواها لك أيها القلب.. طالما عشت دهراً كنت فيه لهذا الرجل العظيم أداة القوة ومبعث الحياة، تنبض بالسعادة والهناء، ثم أصبحت مصدر الضعف ومثوى الشقاء، تنبض بالآلام وتنذر بالحمام

وهمد الرجل العظيم في مكانه، فظن الواقفون حوله أنه فاض، فأقبلوا عليه يستيقنون، ففتح عينيه وعاد لشكاته.. وضاق بفراشه، فهم بالخروج من بيته فمنعوه، فطلب أن ينقل إلى قصر السادات بالجماميز– وكان وقتئذ مقيماً بحدائق القبة– فأجابوا طلبه، وحمل في عربته في وجه الفجر إلى هذا القصر، فكان يعاني سكرات الموت في الطريق

وما كادوا يطمئنون به في سريره حتى سكت القلب، فسكت عنه الألم.. وصعدت الروح إلى الملأ الأعلى في سلام، بعد جهاد طويل في سبيل وطنه، وفي سبيل الإسلام

السيد توفيق البكري

- ياما أحيلي الوحدة والريف، وذلك المشتي والمصيف، والجو السجسج والظل الوريف(١٦)

(١٦) الجو السجسج المعتدل. وقد راعينا في هذه المأساة طريقة السيد البكري في السجع

- لكنك يا سيد توفيق قد أطلت الوحدة، وملت بك العزلة. وحبست نفسك فيما لا يحبس الناس فيه أنفسهم، وقيدتها في غرفة ضيقة المذاهب، قاتمة الجوانب، لا تعرف فيها اليوم من الأمس، ولا تزورها أشعة الشمس، وهي أشبه من البيت بالرمس. وما أنت في الريف، حتى تهنأ بالمشتى والمصيف، والجو السجسج والظل الوريف، وما لأحد غني عن الإيناس، والجلوس حيث يجلس الناس

- وما لي وللناس، وأميرهم العباس، وقد مارستهم أشق مراس، فلقيت منهم الغدر والبأس، وفقدت فيهم المودة والإيناس

ذريتي وكتبي والرياض ووحدتي	أظل كوحشي بإحدى الامالس
يسوف[١٧] أزهار الربيع تعلة	ويأمن في البيداء شر المجالس

رحماك إن عزلة بين كرم وأعناب، ودواة وكتاب، لهي الجماعة والأنس للنفس، وإن اجتماعاً بكبير يزار، أو رئيس لا يجد نفسه بالليل، ولا تجده في النهار، أو عدو ليس من صداقته بد، أو حقود ذله أظهر منه الود، أو حسود ملق، كالذبالة يضحك وهو يحترق، أو جاهل متعاقل، أو متصفح وهو باقل، أو صغير به كبر، أو خدين فيه غدر، لهو وايم الله الوحشة والوحدة

جزي الله عني مؤنسي بصدوده	جميلاً ففي الايحاش ما هو

فقال محدثه وصديقه الشيخ علي يوسف:

---

[١٧] يسوف أزهار الربيع أي يتصبر بها. والأمالس جميع أمليس، وهي الغلاة

- وهل يسرك أن تقاطع الإخلاء، وتتناسى الأصدقاء، وتفر منهم كما يفر السليم من الداء؟..

قال السيد توفيق:

- وأما الأخلاء والصحب والسجراء[١٨]، فحسبك من رجل عون في أمر لم ترده، ونصير في كل مطلب لم تقصده، فإن عرض لك بعض الحاج، فالعلوي يسترفد الحجاج ماء، يتلون بلون الإناء، ونيلوفر يدور مع الشمس في الصباح والمساء. أن جددت فإليك، وإن شقيت فعليك، مدح مع المادح، وقدح من القادح، أجسام متدانية، وقلوب متنائية، وإن كان خبر سوء فحماد الرواية، مئذنة في ظاهر مستقيم، وباطن معوج سقيم..!

- كذلك كان الناس، منذ خلق الله الأجناس، ورب شر لو لم يقع لما وقع الخير. وقد سارت سنة الحياة على أن يحمل الإنسان أخاه الإنسان، بما فيه من طماعية النفس وخسة الشيطان

- دعني يا شيخ علي.. فلقد صدق أحمد بن الحسين حين قال:

ومـن عـرف الأيام معـرفتي بهـا — وبالنـاس رؤى رمحـه غـير راحـم

فلـيس بمرحـوم إذا ظفـروا بـه — ولا بالـردى الجـاري عليهم بآثم

---

[١٨] السجراء جمع سجير وهو الصديق

- أراك ضقت بالدنيا، وما عهدتك إلا سمحاً صبوراً، فما بك في هذه الأيام؟.. لعلك أنهكت أعصابك، فأرح نفسك، فإنك على ما يبدو أحوج إلى الراحة، وأولى بالهدوء والاطمئنان

- عندي قصيدة أنظمها، ومقالة أرسمها، وأحب أن أسمعك شيئاً..

- لا.. دعك من النثر والشعر، ومشاغل النفس والفكر

***

ونهض الصديق الشيخ علي يوسف مودعاً بعد زيارته.. وكان الجفاء وقتئذ قد عاد بين الخديو عباس والسيد محمد توفيق البكري، فقد نقم الأمير عليه أموراً دفعته إلى قطيعته، وأسلمته إلى نقمته، وكان قد كتب في جريدة "اللواء" مقالاً سنة ١٩٠٨ لم يرتح لموضوعه الخديو، فغضب عليه. وزار "السيد" الآستانة. فأنعم عليه السلطان برتبة الوزارة العلمية، فكان العالم الوحيد الذي أنعم عليه في مصر بهذه الرتبة. فجاهر الخديو بأنه سيسعى لبعض أنصاره العلماء في الحصول عليها من السلطان، فقال السيد توفيق:

- أؤكد أن سمو الخديو لن يظفر بالأنعام بهذه الرتبة على مصري غيري. وكان يعني بذلك أنه آخر من أنعم عليهم بهذه الرتبة، ولما كان عدد المنعم عليهم محدوداً في الدولة، فليس الأنعام ممكناً إلا إذا مات أحدهم..

وسمع السيد توفيق أن الخديو توعده، وانتقص قدره وسعى حساده لدى حاكم البلاد بالدس والوشاية، فازداد توتر العلاقات بينهما. وجاءت الحفلة السنوية للمولد النبوي الشريف، فحضرها السيد توفيق البكري وسائر مشايخ الطرق بمريديهم وأعلامهم ومواكبهم دون موكب السادة البكرية، فغضب الخديو وسأله: لماذا لم يحضر موكب البكري؟.. فأجاب السيد: إن هذه بدعة ليست من الدين، فانتهزه الخديو أمام الحاضرين بكلمات رد عليه السيد بأشد منها، وترك الحفل دون أن يستأذن من الخديو، وذهب إلى بيته في حال نفسية شديدة أثرت في أعصابه، وأخذ الخوف يساوره ثم انقلب الخوف إلى خيال مملوء بالمردة والشياطين، وتمادى هذا الخيال، فتطور إلى مرض مقلق يتراءى فيه أعوان الخديو وقد أحاطوا به، وأقبلوا عليه يريدون به شراً، فاعتزل الناس، وأوى في منزله إلى غرفة مقفلة الباب لا يسمح لأحد بدخولها إلا إذا هدأت أعصابه، وعاد إليه هدوءه، وزايلته أوهامه

وكان الشيخ علي يوسف يزوره من حين إلى حين، ليخفف عن صديقه ما يعانيه من الوساوس النفسية، والاضطرابات العقلية.. فيصيب منه تارة يقظة ورشداً، وتارة أخرى قلقاً وانسياقاً مع الأوهام والأحلام، فكان يرى من الأشباح في اليقظة ما يراه الحالم في المنام، وقد وصف مرضه العقلي في ساعة من رشده في بيت لعله آخر مت نظمه من الشعر، قال:

"قد كنت أحلم قبل اليوم في   فصرت أحلم بعد اليوم يقظاناً"

وقد اشتد عليه المرض، حتى لم يدع له وقتاً طويلاً من هناء النفس، ومتعة الفكر، والأنس إلى الصحب والأصدقاء.. وخالطه الخيال المشوش، واستولى عليه الوهم المخيف، فاعتقد أنه مضطهد من الخديو عباس الثاني، مطارد برجاله، وكان يصرخ في بعض الأحيان قائلاً:

- إليَّ أيها الناس.. يا بوليس.. يا نيابة.. يا حكومة.. يا رئيس النظار.. رجال الخديو يريدون قتلي!..

واستمر يخلط في أقواله وأحاديثه.. ولازمه هذا الخوف، وتراءت له الأشباح في صباحه ومسائه، وقيامه ومنامه. وكان إذا اشتدت به الحال نهض ففتش تحت الأسرة والمقاعد، ووراء الأبواب والستائر، خشية أن يكون أحد رجال الخديو متربصاً له

وأخذ يبعث بالرسائل إلى النائب العام ليحميه، وإلى محافظ العاصمة ليبعث إليه من رجال البوليس من ينقذه، ثم يكتب البرقية تلو البرقية إلى بطرس باشا غالي رئيس النظار وقتئذ يشكو له رجال الخديو، ويتهمهم بتآمرهم عليه، فيرد عليه رئيس النظار بأن الحكومة ستتخذ الإجراءات اللازمة لحمايته، ثم يأمر النائب العام أن يزوره في قصره ليطمئنه

وطلب السيد توفيق صديقه الشيخ علي يوسف ذات يوم، ورغب إليه في الذهاب إلى الخديو ليرسل إليه رئيس ديوانه ليطمئنه، فأجاب الصديق رغبة صديقه، وقابل سموه، وشرح له حالته، فأشفق عليه.. وبعث أحمد شفيق باشا رئيس الديوان الخديوي ليؤكد له رضاه عنه، ويذهب عنه

وساوسه، لكن الداء قد استفحل.. واستبد بنفسه فلم يفده توكيد ولا اقتناع، ولم يغنه عطف ولا إشفاق

***

وبقى الأديب الكبير في مصابه بنفسه يتألم، ويشعر بالاضطهاد من الخديو، ورجاله، ومن الحكومة، بل من أصدقائه وذويه وأهله، بل من العالم كله. وعاش في خيال مخيف تتراءى فيه أشباح القتلة والشياطين، بعد أن كان يطير بعقله الذكي، وقلبه الشاعري في أجواء سداها نور وجمال، ولحمتها أحلام وآمال، ونجيه فيها ضوء الهلال كما يقول:

"أيا ضوء الهلال لطفت جدا ... كأنك في فم الدنيا ابتسام"

"يحبب لي سناك العشق حتى ... يصاحبني وأصحبه الغرام"

"بدا الهلال كأنه خنجر من ضياء، يشق الظلماء، أو قلادة، أو سوار غادة، أو سنان لواه الضراب، أو الليل فيل وهو ناب، أو عرجون قديم، أو نون من خط ابن العديم[١٩]، أو برثن ضيغم، أو مخلب قشعم"

ويقول على قبر عزيز: "أطلق الدمع وأطلق، فقد غربت الشمس في المشرق، فيا هزيمة العقل، وصولة الجهل، ويا وحشة الدور، وآنسة القبور،

(١٩) ابن العديم من المشهورين في خط النسخ، ومن علماء القرن السادس الهجري، وهذه الفقرات من كتاب صهاريج اللؤلؤ للبكري

أقبر هذا أم جفن فيه سيف جراز، وترب فيه تبر وركاز[٢٠]، وقليب هريق فيه ذنوب من كرم، وجفر[٢١] تهدم فيه بنيان من همم

"كم ذابت في ذاك الثرى خدود وجباه، وثغور وشفاه، وسلب من أنف شمم، وكم خربت فيه قصور، وهتكت ستور، وجمعت أضداد وفرقت أمهات وأولاد

لم يكونـــــوا إلا كركـــــب تأني برهـــة في مناخـــه ثم ســـارا

"سبحانك اللهم وسعدانك، من حبس، إلى رمس، ومن عبث، إلى جدث..!!"

وسبحانك اللهم وسعدانك من صحة إلى مرض، ومن خيال رفيع الشأن، إلى أوهام طافت بها وساوس الشيطان، فغاض هذا النبع، وجف هذا العين، وتشععت هذه القوة، وانطفأت تلك الجذوة، وسكت هذا الشادي البكري الألمعي، فما سمعت له أذن صوتاً بعد النكبة، ولا طربت بأدبه نفس بعد الكارثة، واعتزل الناس، أو هم اعتزلوه، ومات السيد البكري قبل أن يموت بثلاث وعشرين سنة

***

وكان السيد توفيق من أصدقاء الخديو عباس في مبدأ عهده، ثم دس له الخصوم عنده، فأخرجه من ساحته، وألجأه إلى الاستقالة من مشيخة

---

(٢٠) الركاز ما ركزه الله من المعادن

(٢١) القليب البئر، والذنوب الدلو، والجفر البئر الواسعة

الطرق الصوفية، ثم عاد فرضي عنه، وصفت له الأيام، وابتسم له الحظ، وعاد إلى مشيخته

وفي ذلك الحين أقبل أحد أعياد الجلوس، فتألفت لجنة لعقد مباراة بين الشعراء لاختيار أحسن قصيدة تقال في مدح الأمير، ففاز السيد توفيق فيها بالميدالية الذهبية

وأخلص للخديو أيما اخلاص، ووالاه ولاء ضحى فيه بصداقته للأستاذ الإمام الشيخ مُحَّد عبده، وتقديره له واعترافه بفضله. وكان إصلاح الأزهر، فأراد الخديو أن يغير بعض أعضاء مجلس الإدارة بآخرين من الموالين له، فكان السيد توفيق البكري أول الساعين لخدمته. وقد بعث بخطاب وقتئذ إلى الخديو قال فيه:

"مولاي أدام الله ملكه..

"أخبرني مُحَّد بيرم بك أمس بخبر، ولكنه يقبل قدم أفندينا بألا يسمعه أحد، فإنه إن سمع لغط، وذلك الخبر هو أن الشيخ مُحَّد عبده توجه أول أمس إلى اللورد كرومر، وقال أن سمو مولانا الخديو يريد رفتي ورفت مجلس الإدارة جميعه، وطلب منه أن يتداخل في الأمر، فقال اللورد بأنه لا يمكنه التداخل، ولما يئس الشيخ مُحَّد عبده منه، قال ائذان لي حينئذ أن أتوجه للإسكندرية، وأتكلم مع سمو الحديو.. فقال له اللورد: أنا لا أمنعك أن تتوجه، ولكن الأليق أن تنتظر سموه إلى أن يحضر، فخرج الشيخ مُحَّد عبده وقابل بطرس باشا غالي، فأشار عليه بالسفر إلى الإسكندرية، فقال الشيخ

مُحَّد عبده لكثير من أصحابه: "إني سأسافر هذا المساء إلى الإسكندرية، لمقابلة ولي النعم".. فأَشيع الخبر في مصر بأنه سافر، حتى أنه كُتِب في بعض الجرائد. ولكني طلبت مقابلة الشيخ مُحَّد عبده أمس فحضر عندي، فسألته عن المسألة بوجه الإجمال، لأعرف رأيه.. فوجدت أنه خضع، وغيَّر الموضوع حيث قال: "إنه لا يوجد أدنى توقف منا في تغيير مجلس إدارة الأزهر، ولكن لم نفهم قصد سمو أفندينا تماماً، فنحن ننتظر مقابلته بالذات لنفهم الغرض فننفذه"، وكذلك شيخ الجامع قال لشفيق بك صباحاً بأن المشايخ مستعدون لتقديم الاستعفاء، ولكن لسمو أفندينا بالذات، وهذا كله غير ما كانوا يقولونه قبل مقابلة الشيخ مُحَّد عبده لكرومر. ورأي عبدكم أن سموكم لا تظهرون لهم أدنى غضب، ولكن حيث أنهم لم يفهموا، ولم يثقوا بأن أكون أنا واسطة بين سموكم وبينهم، فسموكم تفهمونهم المسألة، وتأمرونهم بتنفيذها في الحال، وقبل صدور الأمر بالتنفيذ تتكلمون مع اللورد كرومر فيها من باب حسن المعاملة

"هذا، وعندي أشياء كثيرة سأتشرف بعرضها عند تشريف الركاب العالي إلى هنا. أدام الله مولاي ولي النعم مؤيداً بالعز والنصر دوام الدهر

العبد الخاضع: مُحَّد توفيق البكري

"حاشية– المبدأ الذي يتخذه مولاي في هذه المسألة هو هذا: إني أريد إصلاح الأزهر، لأني أعتقد إني بإصلاحه أصلح حالة الأمة الدينية والأدبية، ولكن لجنة الإدارة الحالية، لا يمكنها أن تنفذ الإصلاح لسبب

هو أن أعضاءها قسمان: قسم ضعاف جداً لا يصلحون للعمل، وقسم أذكياء، ولكن الثقة الدينية مفقودة منهم، فلجنة بهذه الصورة لا يمكن أن علماء الأزهر يقبلون لها أمراً ولا نهياً، وكل إصلاح منها يقابل بالرفض والهياج، فأحببت أن أبقى الأذكياء، وأبدل الضعفاء بآخرين حائزين للاقتدار والثقة، فيكون من مجموع الكل لجنة مقتدرة ذكية فيها ثقة يمكنها أن تقنع العلماء بقبول الإصلاح

"أما الأعضاء فعندنا أسماء كثيرة منها الشيخ النجاتي مفتي الأوقاف الذي شمله مولاي بعنايته أخيراً"

واندفع السيد توفيق، في ضعف نفسي، إلى مناصرة الخديو عباس وتأييده، وخذلان خصومه، ثم دارت الدائرة عليه، فكان لذلك وقع شديد في نفسه، وكانت العزلة مبدأ داء عصبي شديد، ثم تفاقم الداء، ومكث ثلاث سنوات يعاني آلامه في مصر، ثم سافر إلى مستشفى العصفورية بلبنان سنة ١٩١٢ فبقي فيه إلى سنة ١٩٢٨، وعاد إلى مصر، ضعيف البنية منهوك القوى، يخطو إلى القبر، ويستقبل الفناء.. وما زالت أوهامه ملازمة له، لكنها كانت تتخللها في بعض الأحيان فترات يثوب فيها إلى رشده، ويذكر سابق عهده، ويروى لمحدثيه جميل أيامه، وما سمح به الدهر من لحظات ابتسامه، ويستعيد الحوادث ويسوق الذكريات.. وكلما مرَّ على حادث ذكر رجاله بالخير، المحسن منهم والمسيء، حتى إذا أتى على حادث الأستاذ الشيخ مُحَّد عبده استغفر لنفسه، وندم على ذنبه

وقبل وفاته بأيام، كان إذا جاء ذكر الشيخ مُحَّد عبده، وما وقع له معه قال لمن حوله: "أحب أن يذكر عني كل من يعرض للكتابة في هذه الحادثة أنني أخطأت وإنني آسف لهذا الخطأ"

وكان اعترافه بخطأه في حق الإمام آخر أحاديثه، فلم يسمع منه بعده حديث منطقي، حتى كان يوم السبت ١٣ أغسطس سنة ١٩٣٢، فوافاه الأجل المحتوم بعد ما ذاق من دنياه أشق ما يذوقه الصحيح والسقيم

الفصل الثالث

أديبتان من الشرق

باحثة البادية

الآنسة مي

باحثة البادية

ورفع الطبيب يده وهو يقول: "خلاص.. ضاع الأمل"..! وصاح الحاضرون: "ماتت ملك"..!

وأجهش الجميع بالبكاء..

وذهل الوالد "الشيخ" حفني بك ناصف، وكأنه لم يكن مقدراً أن للموت سلطاناً على "باحثة البادية"، أو كأنه كان يرى أن لها من نبوغها ونفعها للمجتمع، شفيعاً لدى الأقدار، يدفع عنها اليأس، ويضمن لها الحياة أبد الدهر. وقد خدعته عاطفة الأبوة التي تحتل جوانح الآباء، وتزين لهم أن أبناءهم فوق الموت، يفزعون حين يتصورون أن للموت يداً. تمتد إليهم في يوم من الأيام، وهم تحت سلطان هذه العاطفة القوية الطاغية لا

يكادون يؤمنون بفناء الأبناء حتى في الخيال ودائرة الأوهام، فكيف بالواقع؟!

فإذا حدث ما ليس منه بد، ووقع ما ليس منتظراً، وصدمتهم الحقيقة، كانت الكارثة هائلة، والفجيعة لا تحتمل، والصدمة تصرع النفوس، وتذهل الألباب

لم يكن من الغريب إذن على "الوالد" حفني ناصف أن يذهل يوم وفاة "باحثة البادية" بل لعله من الغريب ألا يذهل لذبول زهرتها، وخمود جذوتها في ربيع الحياة، وفي وقت كانت تقود فيه نهضة نسائية، وتقوم بحركة إصلاحية في حياة المرأة المصرية.. كانت كاتبة شاعرة، خطيبة بليغة مؤثرة، تناقش وتدافع عن المرأة وعن حقوقها المهضومة، رائدها في ذلك الاعتدال، والسير على سنة الدين الحنيف من المبادئ السامية التي تتمشى وحاجة المجتمع وتطوره ورقيِّه

كانت تدعو إلى مجاراة العصر الحاضر بقدر ما تسمح به الحاجة، والاقتباس من الحضارة الأوربية بقدر ما يلائم حياة البلاد وينفع الحياة العائلية والاجتماعية، ولا ينافي القومية وروح الاستقلال التي تجب المحافظة عليها. وقد قالت في محاضرة ألقتها على السيدات في نادي حزب الأمة: "إن الضعيف إذا لم يرزق قوة التمييز خيَّل له أن كل ما يأتيه القوى حسن، ذلك مثلنا أمام المرأة الغربية، فهل ترون أن نثبت للملأ خمولنا وخلونا من

التمييز؟.. أو ترون أن نعمل على حفظ قوميتنا وتقوية روح الاستقلال فينا وفي الأجيال القادمة من أولادنا؟

"إذا أردنا أن نكون أمة بالمعنى الصحيح، تحتم علينا ألا نقتبس من المدنية الأوربية إلا الضروري النافع بعد تمصيره، حتى يكون ملائماً لعاداتنا وطبيعة بلادنا. نقتبس منها العلم والنشاط والثبات، وحب العمل. نقتبس منها أساليب التعليم والتربية، وما يرقينا حتى نبدل من ضعفنا قوة. ولا يجوز في عرف الشرف والاستقلال أن نندمج في الغرب، فنقضي على ما بقي لنا من القوة الضعيفة أمام قوته المكتسحة الهائلة"

وقالت في موضع آخر: "لا أدرى أنفضل المرأة الغربية في معرض الأخلاق أم تفضلنا، فهي أشجع منا في اقتحام الخطوب، وإن كانت لا تقل عنا في المصائب، ونحن لا ينقصنا ذكاء كذكائها، وإنما ينقصنا عزم وثبات كعزمها وثباتها. هي تعمل لتعيش، ونحن تتكل أما على آبائنا أو أزواجنا، فلا نعمل شيئاً. وهذا الاتكال معيب في نفسه

"والمرأة الغربية تعتني بكل شيء حتى التافه، ونحن بما ركب في طبعنا من المسألة نميل إلى الإهمال والكسل. وهي ولاشك أنشط منا، وأثبت على العمل.. إلا أننا أكثر قناعة، وأشد رضا بالقليل"

***

وكانت تجاهد في سبيل مبادئها طوراً بالكتابة في الصحف، وطوراً بالخطابة في المجتمعات، وكانت في ذلك أمل الوالد، وفخر مصر. وهي أول فتاة مصرية بل شرقية انبرت تكتب وتخطب وتنظم الشعر في الدفاع عن حقوق جنسها.. وعن حقوق الرجال أيضاً. وقد نظمت قصيدة حينما أعلن قانون المطبوعات الذي يحد من حرية الصحافة(٢٢) جاء فيها:

يا أمة نشرت منظومها الغير	حتام صبر ونار الشر تستعر
ماذا تقولون في ضيم يراد بكم	حتى كأنكم الأوتاد والحمر
ستسلبون غداً أغلى نفائسكم	حرية ضاع في تحصيلها العمر
حرية طالما منوا بها كذباً	على بني النيل في الآفاق

بقيت "ملك حفني"- أو باحثة البادية كما كانت تسمَّى نفسها- تجاهد في سبيل مبادئها، وتخدم النهضة النسائية مع قيامها خير قيام بالواجبات الزوجية، وقد امتحنت في حياتها امتحاناً قل أن تصبر عليه فتاة، ومع ذلك فلم تنل المحنة من آرائها في حقوق الرجال والنساء، ولم تؤثر الحوادث الممضة في اعتدالها وحكمتها في معالجة مشكلة الجنسين، وإن أثرت في صحتها، فأصيبت قبل وفاتها ببضع سنوات بمرض عرق النسا، فمكثت تعانيه في حلوان نحو أربعة أشهر. وفي هذه الأثناء بعثت إليها الأديبة الآنسة مي بخطاب تحدثت فيه عن نهضة المرأة العربية وما تعانيه من متاعب في ذلك الحين، فردت عليها باحثة البادية بهذا الخطاب:

(٢٢) نشر في الجريدة والمحروسة

إلى الآنسة مي ..

تفضلت فكتبت إلى كلمتك العذبة في "الجريدة"، وكنت إذ ذاك بين مخالب الموت، فلم يكن في وسعي أن أمسك القلم لأرد عليك وإن كانت مخيلتي لم تبخل بالرد. كانت رسالتك عزاء جميلاً لي في مرضى الطويل المؤلم، وبلسماً لجراحي البالغة التي قلت أنك عثرت عليها. آلامي أيتها السيدة شديدة، ولكني أنقلها بتؤدة كأني أجر أحمال الحديد، فهل تدرين يا سيدتي ما هو لي.. ليس لي بحمد الله ميت قريب أبكيه، ولا عزيز غائب أرتجيه، ولا أنا ممن تأسرهم زخارف هذه الحياة الدنيا ويستولى عليهم غرورها فأطمع ف أكثر مما أنا فيه، وليس لي حال سيء أشتكيه ولكن لي قلباً يكاد يذوب عطفاً وإشفاقاً على من يستحق الرحمة ومن لا يستحقها، وهذا علة شقائي ومبعث آلامي.. أن قلبي يتصدع من أحوال هذا المجتمع الفاسد

ومالي أحمَّل نفسي أعباء غيرها، وليست بمسيطرة على هذا العالم، ولكني كنت عاهدت نفسي على الأخذ بيد المرأة المصرية ويعز على أن أتخلى عن هذا العهد وإن كان تنفيذه شاقاً ومحفوظاً بالصعوبات ويكاد اليأس يسد طريقي إليه

كنت اعتزلت الكتابة لا لنضوب مادتها عندي ولا اكتفاء بالقليل الذي كتبت من قبل، ولكني كنت مللت المناداة بإصلاح المرأة المصرية وثبط عزمي ما أراه من انصراف فئة المتعلمين والمتعلمات الجدد عن العمل

لتكوين القومية المصرية المطلوبة، وما حركتهم التي ملأوا بها القطر صراخاً إلا عنوان نهضة كاذبة

تسألينني يا سيدتي أن أدلك وسط هذه الأحوال المتضاربة والآراء المتشعبة عن الطريق الذي يحسن بالفتاة نهجه، وإنما لحال توجب الحيرة. ولا ندري أي الطرق نسلك لنصل سريعاً إلى الغاية التي نقصد إليها. كلنا يرمي إلى تقدم الفتاة وتنورها، وإعدادها لأن تكون زوجة صالحة وأمًّا نافعة أبناءها ووطنها، ولكن لكل مناد بالإصلاح وجهة هو موليها.. فبعضهم لا يرى لهذا التأخر والجهل من سبب إلا كان راجعاً للحجاب وهؤلاء قرروا وجوب سفور المرأة المصرية حالاً ونسوا حكمة التأني والتحفظ عند إرادة الانتقال من طور مظلم مألوف إلى طور لم يعهد من قبل تكتنفه المدهشات واللوامع البراقة الجذابة التي تكاد تغشى الأبصار

وفريق لا يرى للسفور فائدة ويقول أن الحجاب لا ينفي العلم وأن إطلاق الحرية للمرأة أخيراً كان سبباً لفسادها، وأن أطراد تعليم المرأة وتثقيفها سيكون مجلبة للشغب ولخروجها عن حدود وظيفتها في المستقبل كما خرجت أختها العربية الآن. فأي الطريقين نسلك ومن تتبع؟ أننا معشر النساء لا يزال ظلم الرجل يرهقنا واستبداده يأمر وينهي فينا حتى أصبحنا ولا رأي لنا في أنفسنا. فإذا قال لنا اختبئن حتى تدفن بالحياة صوناً لكُنَّ وتدليلاً كما يقول المتنبي في رثاء أخت سيف الدولة:

علـــى المـــدفون قبـــل الـــترب صـــوناً

وكقوله في أخت ممدوحة الثانية من رثاء أيضا:

وما رأيت عيون الأنس تدركها   فهل حسدت عليها أعين
وهل سمعت سلاماً لي ألم بها   فقد أطلت وما سملت عن

إذا أمرنا الرجل أن نحتجب احتجبنا، وإذا صاح الآن يطلب سفورنا أسفرنا، وإذا أراد تعليمنا تعلمنا. فهل هو حسن النية في كل ما يطلب منا ولأجلنا، أم هو يريد بنا شراً؟.. لاشك أنه أخطأ وأصاب في تقرير حقنا من قبل ولاشك أنه يخطئ ويصيب في تقرير حقوقنا الآن

نحن لا نأبى أن نتبع رأي العقلاء والمصلحين من الأمة، ولكننا لا يمكننا كذلك أن نعتقد أن كل من يتصدى للكتابة في موضوع المرأة من العقلاء المصلحين. ليدعنا الرجل نمحص آراءه ونختار أرشدها، ولا يستبد في (تحريرنا) كما استبد في (استعبادنا). إننا سئمنا استبداده. إننا لا نخاف من الهواء ولا من الشمس، وإنما نخاف عينيه ولسانه، فإن وعدنا أن يغض بصره كما يأمره دينه، وأن يصون لسانه كما يوصيه الأدب نظرنا في أمرنا وأمره، وإلا فكل مناصر يفعل ما يشاء. والسلام عليك أيتها الفاضلة. من المعجبة بك المثنية على أدبك الجم وعلمك الغزير

باحثة البادية

كان نتيجة جهادها لنهضة المرأة، أن ضعفت صحتها في أواخر سني الحرب الكبرى، وهي بعد لم تتجاوز الثانية والثلاثين، وزاد في ضعفها ما كانت تعانيه من آلام نفسية لمرض والدتها، وشيخوخة أبيها، واتهام شقيقها "مجد الدين" بتهمة سياسية كانت تؤدي به إلى الحكم عليه بالإعدام في عهد السلطة العسكرية التي فرضت الأحكام العرفية على البلاد

في وسط هذه الآلام، وبين هذه الأعباء التي كانت تحملها بصبر وجلد، وعزم وثبات، أصيبت سنة ١٩١٨ بالحمى الأسبانيولية، وهي ببادية الفيوم، فنصحها الطبيب ألا تفارق غرفتها، ولا تركب عربة ولا قطاراً، ولكنها الأخت الحنون، والابنة البارة التي ترى من واجبها أن تلازم والديها يوم الجلسة التي حددت للنظر في تهمة أخيه أمام محكمة الجنايات، فخاطرت بحياتها، وخرجت برغم إرادة طبيبها، وسافرت إلى القاهرة، ونزلت بمنزل أبيها بشبرا

وجاءها نبأ براءة أخيها "مجد الدين"، فسرت واطمأنت، ولكن الحمى كانت قد تمكنت منها، وأتاح لها عبء السفر أن تتفاقم شدتها، حتى أضعفت حركة التنفس، فنصح الطبيب بمساعدتها بالأكسجين، فكان يعبأ لها في أنابيب جلدية ويعطى لها

وفي يوم ١٧ أكتوبر ساءت حالتها، واشتدت وطأة الحمى عليها، وذهب شقيقها مسرعاً إلى الصيدلية لجلب الأكسجين. وما كاد يعود إلى منزله حتى قابل في الطريق زوجها عبد الستار الباسل وقد عقد لسانه، بدأ

عليه الهلع، فأيقن أن الخطب قد نزل، وأن "باحثة البادية" قد فارقت الحياة بهمومها وآلامها، وصعدت روحها إلى السماء

ولكنه فزع بآماله إلى الكذب، واصطحب زوجها إلى أقرب طبيب، فاستدعياه، وذهبا معه إلى حيث ترقد الأديبة النابغة على فراشها

وخادع الجميع أنفسهم في موتها، وزعموا أنها مغمى عليها. ولكن أين الإغماء من الموت؟.. وأين الخداع من الحقيقة؟.. وما كان للموت أن يخدع

وأقر الطبيب بعجزه، واستسلم للقدر، ورفع يده وهو يقول:

- خلاص، ضاع الأمل..

وصاح الجميع: "ماتت ملك.."

وذهل الوالد حفني ناصف، وخر مغمى عليه صريع الأشجان والآلام كما قال حافظ إبراهيم:

قـــد زعزعتـــه يـــد القضـــا	ء وزلزلتـــــه يـــــد القـــــدر
أنا لم أذق فقـــــــد البنـــــــ	ـــين ولا البنـــات علـــى الكـــبر
لكنـــــــــني لمـــــــا رأيـــــــ	ـــــت فـــؤاده وقـــد انفطـــر
ورأيتـــــه قـــــد كـــــاد يحـــ	رق زائريـــــــــه إذا زفـــــــــر
وشـــــــــــهدته أني خطـــــــــا	خطـــــوا تخبـــــل أو عثـــــر
أدركـــت معـــنى الحـــزن- حـــز	ن الوالـــــدين- فمـــــا أمـــــر

الآنسة مي

الحياة مد وجزر، وآمال وأحلام، وأفراح وأشجان، وابتسام ودموع هكذا هي الحياة، وتلك هب طبيعتها المعمرة المدمرة، المضحكة المبكية، السارة المحزنة، المحسنة المؤلمة

وكلنا يتعاطى هذه الكأس ويذوق حلوها ومرها. ويسبر منها الهناء والآلام..

كانت الآنسة مي منذ هبطت مصر طفلة تعيش في ظلال أبوين بارين لم ينجبا غيرها، فأودع الله لهما في تلك الابنة الوحيدة من النجابة والنبوغ وشرف السمعة، ما لم يودعه في آلاف من البنين والبنات، فكانت قرة عيونهما، وعزاءهما الوحيد في الدنيا وآية فخرهما في هذه الحياة

عاش الأبوان سعيدين بتلك الابنة النابغة، مغتبطين بما أكسبت جنسها من جمال الأحدوثة، وبما قامت به لقومها من خدمات أدبية مجيدة، وبما أضافته من صفحات ممتازة إلى تاريخ الأدب العربي، وتاريخ المرأة العربية في الشرق الحديث. ثم شاءت الحياة القاسية، أن تمتد يد الآلام إلى سعادة هذين الأبوين وأن تنقص من هناءة هذه الأسرة الكريمة، فمرض الوالد "الأستاذ الياس زيادة" مرضاً عضالاً، واشتد عليه المرض، وزاد من شدته ما كان يصادفه من بعض الشركاء الذين يقاسمونه قطعة أرض في لبنان..

وانقطع الوالد أشهراً في منزله يعاني آلام هذا المرض الوبل. وقد كان يخفف من آلامه، ويعزيه في مصابه ما يراه من حنان زوجته ورعاية ابنته، وعظيم برها، وفائق فضلها على النهضة الأدبية التي رفعت شأنها وأتاحت لها فخراً لامعاً بين الآداب الأخرى. ولقد كان هذا الفخر جديراً بأن يمد بغبطته وسروره في حياة الأب، لولا أن للعمر نهاية وللأجل غاية، فطوي القضاء آخر صفحة من صفحاته في سنة ١٩٢٩..

***

كان لوفاة هذا الوالد البار تأثير عظيم في نفس الآنسة مي، فذاقت لأول مرة مرارة الحزن النبوي، وجرعت أول كأس لمأساتها الأخيرة منذ هذا المصاب الأليم، وابتدأت قصتها المؤثرة بهذا الحادث الجسيم

وأطعمت هذه الوفاة "البعض" فيها، فعانت شقاء هذا الطمع، وصاروا يلاحقونها في كل حين حتى ضاقت بهم، وضاقت بالدنيا وسئمت الحياة. وهي في ضيقها الشديد، وسأمها الطويل تصبر ولا تشكو..

ومرضت والدتها واشتد عليها المرض، فتفاقم الخطب، وتضاعفت الآلام. ثم شاء القدر إلا أن ينزل بالكارثة الثانية فتوفيت الأم الحنون، فتجدد حولها طمع الطامعين، فكانت تصرفهم بما عرف عنها من بر وكرم

وكان صيف سنة ١٩٣٥، فجاء إليها بعضهم يطالبها بثلاثمائة جنيه، لأن أرضها مرهونة فطلبت أن تطلع على وثيقة الرهن فأطلعوها وضيقوا

عليها هذا الطلب. حتى ضاقت بحالها واشتدت آلامها، وهي في شكواها وضيقها.. لا تصرِّح أحد بما يثير في نفسها هذه الآلام، فأصيبت بمرض "الشعور بالاضطهاد". وجسم بعضهم هذا المرض فكتب إلى أقاربها في لبنان ينبئهم بأن الآنسة مي أصيبت بالجنون...! ويوصي بإرسالها إلى مستشفى العصفورية فجاء أحد أقاربها، فوجدها حزينة كئيبة، ضيقة بالدنيا، فطلب منها هذا القريب أن تسافر معه إلى لبنان لتغير الهواء فأبت، فألح عليها كثيراً فقبلت وسافرت معه إلى بيروت ونزلت في داره. وبعد أيام طلبت العودة إلى دارها بمصر، فأبي هذا القريب وأصر على بقائها بلبنان، فأصرت على العودة وهددت بالإضراب عن الطعام فلم يأبه لهذا لتهديد. ولم يسمح لها بالسفر، فأضربت عن الطعام وبقيت أياماً لا تأكل، فخاطب مستشفى العصفورية في نقلها إليه، وهو مستشفى إنجليزي للأمراض العقلية بلبنان فحملت إلى المستشفى

***

نزلت الآنسة مي مستشفى المجانين، فما أروع تلك الساعة التي سيقت فيها أديبة الشرق إلى هذا المكان.. وما أشد ألمها في النفس وأفظع جرحها في القلوب!..

أهكذا الدنيا؟.. وهل هذا بلاؤها؟.. فما أروع هذا البلاء!.. الآنسة مي نابغة نساء الجيل، وفخر الأدب الحديث، التي أهدت إلى العقول ثروة

عقلية كبرى، وإلى النفوس جيلاً كاملاً من جمال النفس وسمو الشعور، تنزل بين المجانين، وتسلب من خير ما فاقت به الملايين!

ما أهون الحياة، وما أسوأ الدنيا، وأظلم الأقدار!..

والتفتت الآنسة مي حولها في مستشفى العصفورية، وتأملت حالها في ها السجن العجيب، وقالت:

- أو لم يجدوا لي سجناً أشرف من هذا السجن؟.. ما أشد قسوة الإنسان على أخيه الإنسان!..

وحرِّم على الآنسة "مي" تعاطي السجاير، فبقيت تقاسي ألم هذا الحرمان من عادة يصاب المحروم منها بأشد المتاعب والآلام، فبقيت تتوسل وتتلهف لعلها تصيب بهذا التوسل وذاك التلهف قلباً رحيماً يشفق عليها ويثوب إلى الإنصاف فيطلقها من عقالها أو يسمح لها بتعاطي سيجارة واحدة. فلا تجد هذا القلب الرحيم المنصف في ذاك المكان، ولا ترى حولها من الأصدقاء من يعينها في نكبتها، أو يسأل عنها في مصابها

وكأنما "مي" التي ملأت مصر وسائر بلاد الشرق أدباً وفضلاً، وشهرة وفخراً، وتزاحمت النفوس على الإعجاب بها، وتاقت الأسماع والقلوب إلى الإنصات إليها- إذا خطبت أو تحدثت- كأنما "مي" هذه لا يعرفها إنسان ولم تمر ببال زميل من الأدباء أو أخ من الإخوان

ابتأست "مي"، ويئست من الحياة ومن عدالة الإنسان. فأضربت عن الطعام، وصممت على الإضراب حتى تموت. وعبثاً حاول الأطباء أن يصرفوها عن الإضراب، فأصروا أن يغذوها بالأنابيب من الفم والأنف، ومكثت على هذا الحال عشرة أشهر، عانت فيها أشد الآلام وضعفت بنيتها ونقص وزنها حتى صار ٢٨ كيلو جراماً، وطلبت "مي" أن تكشف عليها لجنة من كبار الأطباء فاجتمعت وقررت أن لا شيء بها، وكتب الدكتور مارتان الطبيب الفرنسي تقريراً ضافياً ينفي أصابتها بأي مرض من الأمراض. لكن إدارة المستشفى رأت أن تستمر في المستشفى مدة أخرى حتى تقوى بنيتها!

عجبت "مي" من حظها العجيب، واتصل خبرها ببعض عائلات لبنان، وكان عيد الميلاد، فجاء أحد اللبنانيين المقيمين بفلسطين ليعيد عند أقاربه ببيروت، ويدعى "الخواجه غانم" وهو من كبار التجار، وفي الطريق مرت به السيارة بالعصفورية، فسأل السائق عما يسمعه عن الآنسة "مي" فأخبره أن إحدى قريباته وهي ممرضة في المستشفى أخبرته أن صحتها جيدة ولا شيء بها. وهي في هذا المستشفى كالمسجون البريء..

وصل الخواجه غانم إلى بيروت فاعتزم أن يحدث أقارب الآنسة "مي" في إخراجها فقابلهم وذهبوا معه لزيارتها فوجدها جيدة الذاكرة، سليمة العقل. فخرج من عندها وقد أقسم ألا يعود إلى فلسطين إلا بعد أن تخرج من هذا المستشفى..

بقي الخواجه غانم أربعين يوماً يسعى حتى وفق في مسعاه، وخرجت الآنسة "مي" من المستشفى، ولكن لا إلى بيتها حيث تنعم بالحرية، بل إلى مستشفى للجراحة ببيروت..

سافر الخواجه غانم وقد ظن أن الآنسة "مي" سوف تبارح هذا المستشفى بعد أيام ريثما يستأجر لها بيتاً خاصاً، كما وعدوه بذلك، لكن لأمر ما لم ينفذ هذا الوعد، وبقيت في مستشفى الجراحة عشرة أشهر أخرى

احتجت الآنسة "مي" وأضربت عن الطعام والكلام، أضربت عن الطعام لأنها لا تريد أن تذوق طعام هذه الحياة المرة، وأضربت عن الكلام لأنها أسفت لعقوق الإنسان

وذات يوم زارها بالمستشفى الأستاذ فلكس فارس، فكان أول شخص رأته من أصدقائها بعد عامين لم تر فيهما صديقاً، ولم تمسك فيهما قلماً، ولم تقرأ كتاباً، ثم زارها الأستاذ أمين الريحاني، وكان قد جاء من أمريكا فعجب لحالها، وذاع وقتئذ بين جمهور الأدباء في لبنان أن الآنسة "مي" مسجونة، فانبرت الأقلام تدافع عن قضية "مي"، وتتساءل: "لماذا تسجن هذا السجن العجيب؟". وذهبت طائفة من الأدباء وأبلغوا النيابة. فانتقل النائب العام إلى المستشفى وقابلها. وبعد ٤٨ ساعة من مقابلتها. جاء إليها مدير البوليس ومعه ستة من الضباط المسلحين، واثنان من

المساعدين، وأخرجها من المستشفى في موكب انتظم فيه عدد كبير من سيارات الأصدقاء والمعجبين..

ووصلت الآنسة "مي" إلى المنزل الذي أعد لها وقدم لها الغذاء، فتناولته بيدها لأول مرة.. وأمسكت بالشوكة والسكين بعد عامين كاملين لم تتناول بيدها طعاماً، ولم تمسك بها شوكة وسكيناً..

وعادت إليها حريتها، واطمأنت في مسكنها برأس بيروت، وسافرت إلى الفريكة فقضت بها بضعة أسابيع. وألقت في ذلك الحين خمس محاضرات ورسمت برشتها بعض الصور

***

وقبل مرضها الأخير بقليل كنت أزورها ذات ليلة فلمحت في وجهها شيئاً من التفكير الحزين، وفي حديثها هزة الاكتئاب والجزع. ثم سألتني: "هل تعرف تفسير الأحلام؟"

قلت: "ولماذا.. هل رأيت حلماً؟"

قالت: "إني رأيت حلماً مؤلماً. وقد نهضت من نومي حزينة خائفة"

فقلت لها: "وما هو هذا الحلم؟"

قالت: "رأيت ليلة أمس سيدة مقبلة عليَّ ملتحفة بالسواد، فلم أتبين من هي.. حتى إذا اقتربت مني صرخت قائلة: "أمي.. !"، فبكت... ثم أقبلت نحوي تضمني إلى صدرها وتبكي، فبكيت لبكائها، وقلت: "مالك يا أمي؟.." فلم تجبني..

"واستيقظت من نومي فازعة من هذه الرؤيا، فهي أول مرة أرى فيها والدتي بعد موتها، وقد شغلت بها حتى الآن بل تشاءمت، وأيقنت أني سأموت قريباً، أو يصيبني مرض شديد.."

قصت "مي" هذه الرؤيا، وتقاطرت الدموع من عينيها، ثم استجابت لما عرف عنها من شجاعة وتجمل، وقالت:

- وهل عهدتني من الجبناء؟.. إني لا أخاف الموت ولا أخشاه، أن وراء الموت وجوداً غير ملموس يدعى السعادة. وإني لأشعر باحتياج محرق إلى التعرف إليها والتمتع بها..

فقلت لها: "مثلك من أعطى روحاً عالياً، وأدباً خالداً لن يموت. لكني أشفق من أن تسيطر عليك الأوهام!"

قالت: "إنني لا اخدع بالأوهام، غير إني لا آمن صروف الأيام، فهل تسمح أن تبحث لي عن تأويل رؤياي؟"

فأخذت أطمئنها، ولكنها ألحت أن أستشير خبيراً بتفسير الأحلام فوعدتها وذهبت أفكر فيما عسى أن أعود به إليها في الأسبوع التالي.

وكنت أزورها كل أسبوع مرة، ثم اخترعت لها تأويلاً طريفاً، فلم يخف على ذكائها إنني أصانعها لأدخل على نفسها التفاؤل والاطمئنان. ولم يمض على ذلك بضعة أسابيع حتى مرضت وسافرت إلى لبنان..

***

سافرت "مي" إلى لبنان، وأدخلت مستشفى العصفورية، ومكثت به نحو ثلاث سنوات لمرض عصبي، ثم شاء الله أن ينقذها من سجن هذا المرض بعد شفائها، وعادت إلى مصر، ونزلت في شقة استأجرتها لنفسها، واعتزلت جميع أصدقائها، لأنهم في رأيها لم يكونوا أوفياء لها في محنتها بلبنان. وما علمت بحضورها، حتى وجهت إليها على صحيفة "الأهرام" هذه الأبيات:

أديبة الشرق هزت مصر راحتها	بحسن لقياك ترحيباً وتحناناً
عودي إلى مصر مثل الشمس	تزجي ضياءك آيات وعرفانا
عودي إلى النيل مثل الغيث	يجدد النيل عهداً منك مزداناً
عودي إلى بلد أشجى بلابله	سكوت بلبلك الصداح أزماناً
كم قد حزنا لبعد طال موعده	وكم حسدنا على الأيام لبناناً
وكم شكونا فلم يسمع شكايتنا	دهر يبدل بالأفراح أشجاناً
كنا وكانت ليالي الفن عامرة	فجددي من ليالي الفن ما كان
وأسمعينا حديثاً كله أدب	يروى فؤاداً إلى الإبداع ظمأنا

واطلعي من سماء العبقرية ما غابت محاسنه عن مصرنا آنا
لا أخمد الله نوراً منك مؤتلقا قد صاغه الله إعجازاً وتبياناً

وجعلت أبحث عنها أين نزلت حتى اهتديت. وفي ذات مساء دخلت عليها فجأة فوجدتها جالسة وحدها تسلي نفسها بشغل الإبرة، فحييتها وحيتني، وجلست معها ساعة. ثم صرت أتردد عليها..

وقبل ثلاثة أسابيع من وفاتها انقطعت عنها لسفري، ثم عدت، فعلمت أن "مي" مريضة في مستشفى المعادي، وأنها قبل ذلك أغلقت الباب عليها عدة أيام حتى ظن السكان أنها انتحرت أو وقع لها مكروه، فكسروا الباب، فوجدوها في سريرها شاردة الفكر، غائبة الوعي، صامتة، فجيء لها بطبيب، وأجريت لها الإسعافات، ثم نقلت إلى المستشفى..

استفاقت "مي"، واطمأن الطبيب أن القلب سليم، ولكن كانت تنتابها في فترات، غيبوبة.. ثم تفيق منها..

***

وفي منتصف ليل السبت في الثامن عشر من أكتوبر سنة ١٩٤١ بدأت "مي" تشعر بضيق في التنفس، وأخذت نبضات قلبها تسرع في الخفقان، فجعلت تصعد تنهدات أشبه بتنهدات الطفل وهو في حلم جميل

سألتها الراهبة الممرضة عما تشعر، فلم تقو "مي" على الكلام فرفعت يدها إلى صدرها وأشارت ناحية القلب أن "هذا".. أن "هنا"..

انقطع الأمل ولم يعد للأمصال من قوة.. قد حم القضاء ولم يعد للطبيب البشري من حيلة، وجاء دور الطبيب الروحاني.. نادت الراهبة الكاهن فدخل على "مي" فوجد نفساً جميلة مستسلمة إلى القضاء..

وفي الساعة العاشرة وخمس دقائق من صباح نهار الأحد، التاسع عشر من ذلك الشهر خفق قلب "مي" الخفقة الأخيرة

كانت "مي" في ساعتها الأخيرة أشبه بأن تكون في حلم جميل: بسمة الأطفال على شفتيها، واغماضة رقيقة في جفنيها، وعلى رأسها إكليل من الورود والأزهار.. كأنها كانت في ساعة تأمل وتفكير..

سبحانك يا رب السماء والأرض جعلتها في الحياة جمالاً وجعلتها للموت جمالاً..

وخيَّل إليَّ أن "مي" على فراش الموت تردد شفتاها قولها:

"ثم أوحى إلى بأن هناك وجوداً غير ملموس يدعى السعادة، وشعرت باحتياج محرق إلى التعرف إليها، والتمتع بتلك السعادة الأبدية"!

الفصل الرابع

الشعراء الثلاثة

إسماعيل صبري

مُحَمَّد حافظ إبراهيم

أحمد شوقي

هذا الفصل خاص بهؤلاء الشعراء الثلاثة الذين نبغوا في الشعر فقط، وكانت وفاتهم بهذا الترتيب الزمني...

إسماعيل صبري

- وددت يا حافظ لو أنها كانت هي القاضية
- سلمت يا شيخ الشعراء، ولا ذقنا فيك مرارة الموت وآلام الفراق
- لعلها أحلى من مرارة الوجود في هذه الحياة الكثيرة الأحزان

وأراد حافظ إبراهيم، أن يخَفِّف عن صديقه الكبير، فقال لصبري:

- لقد كانت تلك الغيبوبة التي أصابتك من صدمة القطار "بروفة"!
- كنت أود أن تكون حقيقة، فقد ذقت من بلاء الحياة، ما هون على عناء الموت، وحبب إليّ الراحة الكبرى:

إن سئمت الحياة فارجع إلى الأر ض تـنم آمنـاً مـن الأوصـاب
تلـك أم أحـنى عليـك مـن الأم الـــتي خلفتـــك للأتعـــاب
لا تخـف فالممـات لـيس بمـاح منك إلا ما تشتكي من عذاب
كل ميت باق، وإن خالف العنـ ـوان ما نص في غضون الكتاب
وحيـاة المـرء اغـتراب، فـإن مـا ت فقـد عـاد سـالماً للـتراب

فقال حافظ:

- لو لم يكن في مدح الموت إلا هذا البيت الأخير، لكفاني اقتناعاً برأيك، ولكنا يا إسماعيل باشا ما زلنا في ربيع العمر.. وما أرى هذه الصدمة التي أصابتك إلا أخف صدمات الحياة

قال إسماعيل صبري صدقت:

وجـــدت الحيـــاة طريـــق الممـــا ت، وكـــل إلى حتفـــه يســـرب
ويعثـــر فيـــه الفـــتى بالشـــبا ب ويـــدلف بالعلـــة الأشـــيب
ويتعـــب بالـــزاد فيـــه الفقـــ ـير وأهـل الغـنى بالغـنى أتعب
ويشـقى أخـو الجهـل في جهلـه ويحـــرج بالعـــالم المـــذهب
مــــوارد مشــــروعة للحيــــا ة فــأي مواردهــا الاعــذب؟

***

وكان إسماعيل باشا صبري وقتئذ محافظاً للإسكندرية، وقد سافر إلى القاهرة سنة ١٨٩٧، فاصطدم القطار في طريقه، فأصيب برضوض، وعرته هزة عصبية أفقدته الشعور نحو عشرين يوماً، فلما أفاق لقيه شاعر النيل حافظ إبراهيم فهنأه، فتمنى هو لو كان قد لقى في هذه الغيبوبة أجله، وقال:

مقابر من ماتوا مواطن راحة   فلا تك أثر الهالكين جزوعاً
إن تبك ميتاً ضمه القبر فادخر   لميت على قيد الحياة دموعاً

***

وكان "صبري" قد سئم الحياة، واستخف بمتاعها، وهو بعد لم يطو مرحلة الشباب، فكان يكثر من ذم الدنيا وينعي الاطمئنان إليها، والابتهاج لصفوها، وما كان يضيق بالدنيا لمأرب أضاعه، أو فشل أصابه، فقد أدرك من مفاخرها ما يزيد في طمع الحريص، وظفر من مناصبها بما يغبط عليه، ونال من بسطة الرزق، ورغد العيش، وفخر الشهرة حظاً تخلفت وراءه حظوظ الكثيرين. ولكنه كان رقيق الطبع، مرهف النفس، تؤلمه ومضة البرق إذا بدت في غير أوانها، وتجرحه خطرة النسيم إذا مرت في غير موضعها، فكان يضيق بالدنيا، لأنه يضيق بأهلها، ويتبرم بالحياة، لأنه يتبرم بضعف الأحياء، ويؤثر الانطواء والعزلة، ويثور على المجتمع لأنه ثائر على الأخلاق الفاسدة:

غاض ماء الحياء من كل وجه   فغدا كالح الجوانب قفراً

وتفشى العقوق في الناس حتى كاد رد السلام يحسب براً
أوجه مثلما نثرت على الاجـ ـداث ورداً أن هن أبدين بشراً
وشفاه يقلن أهلاً ولو أد ين ما في الحشا لما قلن خيراً

ثم يخاطب نجم "هالي" وكان قد ظهر في ذلك الحين وتشاءم منه الناس فيقول:

أنت نعم النذير يا نجم "هالي" زلزل السهل والرواسي ذعراً
ظن قوم فيك الظنون وقالوا آية أرسلت إلى الأرض كبرى
أن يكن في يمينك الموت فاقذفـ ـه شواظاً على الخلائق طراً
هل تلقيت من لدن خاذل البا غي وحامي الضعيف يا نجم
أمحيط بكل شيء ومرد كل حي وتارك السهل وعراً
أغدا تستوي الأنوف فلا ينـ ـظر قوم قوماً على الأرض
أغدا كلنا تراب ولا ملـ ـك خلاف التراب براً وبحراً
أغدا يصبح الصراع عناقاً في الهيولي، ويصبح العبد حراً
إن يكن كل ما يقولون فأصدع بالذي قد أمرت حييت عشراً

هذا ما كان لأجله يضيق بالدنيا، ويستجير بالموت. وكان على رقته صارماً في الحق..

حدثني المغفور له داود بركات أنه لما كان في ذلك الوقت محافظاً للإسكندرية استقدم الخديو عباس حلمي الثاني "ثورا" من سويسرا ابتاعه

بمبلغ كبير من المال، وكان الحجر مقرراً على الحيوان القادم من الخارج في عرض البحر حتى يثق الأطباء بخلوه من الأمراض، فحجر إسماعيل باشا على "الثور"، ولم يأذن بانتقاله إلى البر، فأرسل إليه الخديو ليسمح بنقل "الثور" بحراً إلى قصر المنتزه حيث يقضي أيام الحجر المقررة، فرفض ذلك، وقضى "الثور" أيام الحجر في الميناء كسائر الحيوان فغضب الخديو، وبعث أحد رجاله يلومه لمخالفته إرادة سموه فكان جوابه:

- أنا لا أخالف إرادة سمو الخديو بهذا الرفض، لأنه هو الذي أصدر أمره بالحجر على الحيوان القادم من الخارج، ولسموه أن يصدر أمراً آخر بفك الحجر وأنا أطيعه

لكن هذا الجواب لم يكن ليقوم اعتذاراً عن هذه المخالفة. وما لبث إسماعيل صبري باشا أن نقل وكيلاً لنظارة الحقانية (وزارة العدل)

وعلى الرغم من صلابته في الحق، وتشاؤمه في الحياة، وتحديقه كثيراً إلى الموت، كان حلو الدعابة، لطيف المزاح..

حدثني المرحوم أحمد زكي باشا قال:

"كان المرحوم الشيخ سليمان العبد ينظم في كل مناسبة قومية، وفي كل عيد إسلامي تاريخاً ينشده أمام الخديو حين يقابل رجال الدين، فجاءني إسماعيل صبري باشا يوماً في مناسبة من هذه المناسبات، وقد كتب تاريخاً من نظمه وقعه بإمضاء الشيخ سليمان، وطلب مني أن أنشره في

إحدى الجرائد الكبرى، فنشرته صحيفة "الجريدة" التي كان يرأس تحريرها الأستاذ أحمد لطفي السيد، وبعد أيام قابلنا الشيخ سليمان العبد في الطريق، فهنأه إسماعيل باشا بجودة "تاريخه" الذي نشر في "الجريدة"، وأثنى على نظمه، فتقبل الشيخ التهنئة شاكراً..! فغادرناه ونحن لا نكاد نخفي ما عرانا من الضحك

"وكنت مسافراً معه من القاهرة إلى الإسكندرية، فخطر له ونحن في القطار أن ينظم قصيدة يشكو فيها "شركة كوك" إلى "القنصل" على أسلوب الشيخ حمزة فتح الله مفتش اللغة العربية بوزارة المعارف في ذلك الحين، والمشهور بميله إلى استعمال الوحشي من الألفاظ، والإكثار من الجناس في نظمه ونثره، فجعل إسماعيل باشا ينظم، وأنا أكتب حتى أتمها. وكان مطلعها:

يا أيذا "القنصل" المزجي زواجره	صوب السفين السوس سربله
أشكوك كوكك كي ينكب عن	إذ كان كلا، وكل مل كلكله
أباتني والجرشي[٢٣] حشوها	إن مس جنبي خشب الفلك

وبعد ما أتمها وقفنا في صالون القطار، ننشدها ونترنح كما يفعل أهل الأذكار، وبينما نحن في نشوة "الجلالة" وقد أحاطنا شبح الشيخ حمزة بهالته، إذ بالقطار يقف على محطة العاصمة، وإذ بالخادم يفتح الباب،

---

[٢٣] الجرش بكسر الجيم والراء وتشديد الشين المفتوحة هي النفس

فيجد "الجذبة" قد طارت بالألباب، فيتقهقر مذعوراً، ويغلق الباب بقوة، فتنبه من الهيام، ونغرق في الضحك"!

وضحك زكي باشا ضحكة عالية وهو يحدثني عن هذه الواقعة بدار العروبة بالجيزة حتى سقط منه كتاب كان بيده، ثم قال:

"وفي اليوم التالي كتب إسماعيل باشا القصيدة مقلداً خط الشيخ حمزة فتح الله، وبعث بها إلى جريدة "المقطم" فنشرتها بإمضاء الشيخ، فلما صدرت واطلع عليها الشيخ حمزة عجب، وقال لأصدقائه:

- هذا الكلام كلامي، ولكني ما قلته..!

وذهب إلى إدارة "المقطم"، وقابل رئيس التحرير، وأخبره بذلك، فأخرج له الورقة المكتوبة فيها القصيدة فقال:

- وهذا الخط خطي، ولكني ما كتبته..!

واضطر رئيس تحرير "المقطم" أن ينفي في اليوم التالي نسبة القصيدة إليه..

***

وكان إسماعيل صبري لا يسبيه من الحياة إلا جمال المرأة، وكان يروح عن نفسه متاعب الدنيا بالتغزل فيها. وكانت قصيدته "تمثال الجمال"

أحسن ما قيل في الغزل الذي يتمشى مع آداب العصر، وقد ترجمت إلى اللغة الفرنسية، وكانت الحياة عنده بدون التأمل في المرأة لا تساوي شيئاً، بل لو مرت برهة من العمر لا يشعر فيها بالحب، فإنها تستوجب منه الاستغفار:

أبثـــك مـــا بي فـــإن ترحمـــي ... رحمـت أخـا لوعـة مـات حبـاً

وأشـكو النـوى مـا أمـر النـوى ... على هـائم إن دعـا الشـوق لبـا

وأخشـى عليـك هبـوب النسـيم ... وإن هـو مـن جانـب الـروض

وأســـتغفر الله مــــن برهـــة ... مـن العمـر لم تلقـني فيـك صـبا

وكان يعجب بالأديبة النابغة "مي" ويتردد على صالونها في أواخر حياته. وكان يحرص على شهود مجلسها يوم الثلاثاء، وسافر يوماً إلى مدينة الزقازيق، واضطر للتأخر البعض حاجته، فبعث إليها يوم الاثنين بهذين البيتين:

روحـي علـى بعـض دور الحـي ... كظـامئ الطـير تواقـاً إلى المـاء

إن لم أمتـع "بمـي" ناظـري غـداً ... أنكرت صبحك يا يوم الثلاثاء

وبعث إليها يهنئها في أحد الأعياد بغرة العام الجديد، فقال:

يا غــرة العــام جــوزي الأفــق ... إلى الســـماء بآمـــال المحبينـــا

إني ســألت لــك الأيام صــافية ... يا "مـي" قـولي معـي بالله آمينـاً

***

وأصيب في أواخر حياته بمرض القلب، فكان ينتابه كثيراً، ويمنعه من القراءة والتفكير. وتشتد به الآلام فيشتهي ضجعة القبر، ويستغيث بالموت، ويستعجله، ويلومه لتوانيه، ويقول:

يا مـــــوت هأنـــــذا فخـــــذ ... مـــــا أبقـــــت الأيام مـــــني
بيـــــني وبينـــــك خطـــــوة ... أن تخطهـــــا فرجـــــت عـــــني

وغلب عليه التصوف في شعره حين دنا أجله، وأحس قرب نهايته، فكانت أبياته تشف عن الإيمان العميق والطمع في عفو الله، والتخلص من أدران الدنيا، والانصراف إلى الحياة الأخرى

يا رب أيـــن تـــرى تقـــام جهـــنم ... للظـــالمين غـــدا وللأشـــرار
لم يبق عفوك في السموات العلى ... والأرض شـــبراً خاليـــاً للنـــار
يا رب أهلـــني لفضـــلك واكفـــني ... شـطط العقـول وفتنـة الأفكـار
ومـر الوجـود يشـف عنـك لكـي ... غضـب اللطيـف ورحمـة الجبـار
يا عـــالم الأســـرار حســـبي محنـــة ... علمـــي بأنـــك عـــالم الأســـرار

واستمر شيخ شعراء العصر يعاني داء القلب حتى أذاب نفسه، فعادت لا تهفو لشيء، ولا تنشط لقول الشعر إلا ما كان خاصاً بالموت، فأكثر– وهو المقل– في النظم فيه

وكان شهر مارس سنة **١٩٢٣** وقد بلغ التاسعة والستين، فأصيب بذبحة صدرية ثقلت عليه، وعانى فيها آلاماً مبرحة، وساعدت الشيخوخة

وداء القلب هذه العلة القاسية، فنالت من جسم الشيخ الضعيف، واستبدت بصدره، وتحكمت في أمره، وتواني الموت في أقدامه، فضاعف هذا التواني من آلامه. ومكث أياماً معلق النفس، معذب الجسم. وزاره حافظ إبراهيم، فقال له: "ألم أقل لك منذ ست وعشرين سنة بعد صدمة القطار: "وددت يا حافظ لو أنها كانت هي القاضية.." "فقلت لي: "سلمت.." ..فأين مني السلامة اليوم، وقد حملت عناء الحياة الطويل، وعناء الداء الوبيل، وأنا أقضي الآن على فراشي كما يقضي الذبيح"

ثم سكت، وانتابته سكرات الموت فذهب في ٢١ مارس مبكياً من دولة الفضل والأدب

محمد حافظ إبراهيم

دخلنا عليه مسكنه بالجيزة.. أنا وبعض المريدين قبل أن ينزل به الحمام بقليل من الزمان، فألفيناه في جلباب أبيض وعباءة بنية، وقد أمسك مدلكا طبياً في يده، فقلنا:

- ما هذا يا شاعر النيل؟

قال:

- مدلك للأمعاء، كلما ألمت بها آلام فزعت إليه، واستجرت بعجلتيه، فأديرهما على معدتي وأمعائي من الشمال إلى اليمين، وقد أديرهما

على ساقي من أسفل إلى أعلى، ففيهما فائدة زعمها لي الطبيب، وصدقتها التجربة

قلنا: قد يغنيك عن هذه الأداة حمية وصيام عن الشراب والطعام، فما نحسب تعب أمعائك، إلا من كثرة غذائك!

فقال: ما هذا يا أولاد؟.. كنا ننقم من الدهر شقاءه، فجئتم تنقمون منا هناءه، لقد جعنا في شبابنا، فلنأكل في شيخوختنا، وليس من الموت بد، سواء أصمنا أم أكلنا، فخير لنا أن نموت شباعاً من أن نموت جياعاً:

- وهل يغني الشبع إذا دنت ساعة الموت، وحلَّ الأجل؟..

- لا، كما لا يغني الجوع!

- لكن في الجوع ما يكسب الجسم صحة، ويطيل الحياة..

- لا أظن، ولست أطمع أن تطول حياتي، ووددت لو لقيت الموت عما قريب، وإني لأعجب من دلفه في بطء وكأنما أدركته الشيخوخة على توالي الأجيال، فما يستطيع أن يسرع الخطى ليشفي نفساً سئمت العيش، ومرضت من الحياة والأحياء:

عجبت لعمري كيف مد فطالا وما أثرت فيه الهموم زوالاً
وللموت ما لي قد أراه مباعداً وجل مرادي أن أوسد حالاً

- إذن فدعك من المدلك، وليكن ما يكون!

- يا خبثاء.. أآلام في النفس، وآلام في الجسم. والله ما حرصت على البقاء بقدر حرصي على الصحة، وما طمعت في السلامة إلا فراراً من بلاء الداء، وقد يفر من النار المنتحر بلهيبها، ويتشبث بالنجاة الدافع بنفسه إلى الغرق

- ولماذا تتألم نفسك الآن، وقد بسط الله لك الرزق، فصرت من كبار الموظفين وعداد المحظوظين؟!

- ما تألمت لبؤسي في الحياة فقط، بل لبؤس مصر، وضعف أخلاقها، واضطراب أحوالها، فلا والله ما تقوم لهذه الأمة قائمة إلا إذا أتيحت لها تربية خلقية. وعندي أن تغلق المدارس خمس سنوات يتعلم فيها الشباب الأخلاق، أو أن تغير وزارة المعارف برنامجها العلمي ببرنامج خلقي تستفيد منه الأمة، ويخلق لنا رجالاً، فنحن لسنا في حاجة إلى العلم بقدر حاجتنا إلى الأخلاق:

يقولــون في الــنشء خــير لنــا ... وللــنشء شــر مــن الأجنــبي
أفي الأزبكيـــة مثـــوى البنيـــ ... ـن، وبين المساجد مثوى الأب
أمـــور تمـــر وعـــيش يمـــر ... ونحــن مــن اللهــو في ملعــب
وشــعب يفــر مــن الصــالحا ... ت فرار السليم من الأجرب

- لكنك تظلم أمة رزحت في الاحتلال طويلاً، وناءت بأوزاره، فأفسد أمرها، وأضعف أخلاقها

- هذا حق، فقد أنساها الأجنبي ماضيها المجيد، وميراثها التليد، بل أنساها كل شيء حتى الكرامة والرجولة

لحي الله عهد القاسطين الذي به تهـدم مـن بنياننـا مـا تهـدما
سـلام علـى الـدنيا سـلام مـودع رأى في ظـلام القـبر أنسـاً

- أراك تكثر من ذكر الموت حتى فاضت به أشعارك، وكلما اعتراك ضيق فزعت إليه، وأشدت بالثناء عليه، أفترى فيه علاجاً لنفسك، وتفريجاً لهمك، أم أنه فرار من الميدان؟..

- كلا، بل رأيت الموت للحر أعصم، ونجاة الكريم من لؤم الحياة أكرم، وما أنا بهارب من الميدان، ولكن حال مصر يستوي فيها الشجاع والجبان..

فقـد غـدت مصـر في حـال إذا جـادت جفـوني لهـا باللؤلـؤ
كـأنني عنـد ذكـري مـا ألم بهـا قـرم[٢٤] تـردد بـين المـوت

لقد ضاعت الحقيقة فيما بيننا، واستوي الحسن والمسيء، وهضم العالم العامل، وأكرم المفسد الجاهل، وشابت الفضيلة، وأهلكت الحزبية المودة، وفتكت بسداد الرأي، وعصفت بالكرامة. وأصبحت الوطنية عندنا تجارة مأربها الربح الشخصي، وغايتها النيابة أو كرسي الوزارة. وما أنا وحياة تخاذلت فيها الهمم وفسدت فيها الذمم

[٢٤] القرم بفتح القاف السيد العظيم، والبطل الشجاع

وكان حافظ إبراهيم رقيق الطبع دقيق الحس، يتألم لكل شيء يبعث الألم حتى لو كان مصدر الألم نفسه، وقد أصيب في أواخر حياته بشهوة البطن، وهي شهوة تنوء المعدة فيها بأحمالها كلما جاء الطعام، حتى أضعفت أمعاءه البطنة، واشتدت بها الآلآم، فاضطر إلى عمل جراحي بها يدعى "عملية أفرنوف". وقد نصحه الطبيب باستعمال المدلك كلما شعر بالألم أو أحس وقوف الهضم

وكنا نتردد على مسكنه في زمرة من الأدباء، وغاب عنه ذات مرة زائروه، وانقطعوا مدة عن زيارته، فلما قابلناه ارتجل هذه الأبيات:

أنا في الجيـــــــــــــــزة ثاو ... لـــــيس لي فيهـــا أنـــيس

أنكـــر الأنـــس مكـــاني ... ونأى عــــني الجلـــيس

لـــيس يـــدري مـــن رآني ... أطليـــق أم حبـــيس؟..

فرد عليه الأستاذ محمد الهراوي بأبيات منها:

أنـــت في الجيـــزة خـــاف ... مثلمـــا تخفـــى الشـــموس

قـــابع في ركـــن بيـــت ... قـــد أظلتـــه الغـــروس

وقابله ذات مرة المرحوم مصطفى صادق الرافعي وكان قد أزمع السفر إلى بلاد اليونان. فقال له الرافعي:

- ألا تخشى أن تموت هناك، فتموت يونانياً؟!..

فقال حافظ:

- أو تراني لم أمت في مصر، أن الذي بقي هين..!

وانتقل حافظ من الجيزة إلى مسكن آخر بضاحية الزيتون بعد إحالته إلى المعاش بقليل. وفي ذاك الحين كتب له صديقه الأستاذ خليل مطران هذه الأبيات:

حبست على الوظيفة منك نوراً	تفقده الحمى والليل غاش
وقيدت القريض على افتقار	من الوطن العثور إلى انتعاش
فما صدقوا وغيرك قد عنوه	بقولهم أحيل إلى المعاش

***

وفي هذه الفترة التي فصلت بين نهايته في الوظيفة، ونهايته في الحياة نشر قطعاً من الشعر السياسي أعادت سابق عهده في هذا المجال، وكان منها في حياد الإنجليز:

لا تذكروا الأخلاق بعد حيادكم	فمصابنا ومصابكم سيان
حاربتم أخلاقكم لتحاربوا	أخلاقنا فتألم الشعبان

ومرَّ حَافظ على مسكنه الأول بالجيزة قبل وفاته بخمسة أشهر. فاهتزت في نفسه الذكريات، وأخذ يودع الحياة، ويقول:

قالوا تحررت من قيد الملامح فعش حراً ففي الأسر ذل كنت تأباه
فقلت يا ليته دامت صرامته ما كان أرفقه عندي وأحناه أسرى الشبيبة
أحياء وأن جهدوا أما المشيب ففي الأموات أسراء

كان هذا الوداع في ٢٦ فبراير سنة ١٩٣٢، وكان في ذلك الحين أحسن صحة، وأبهج نفساً، وقد خلع عنه حياة الوظيفة في دار الكتب بعد عشرين عاماً، وإن لم يكن طول هذه المدة مكلفاً بعمل كما يكلف الموظفون. وقضى حافظ المدة الباقية من حياته بين أصدقائه لم ينقطع عنهم يوماً، ولم يعتكف لداء، بل بقي معهم مرحاً طروباً كعادته إلى ما قبل موته بقليل. وكان إذا ذكر الضعف والشيخوخة وما يليها من موت قال أنه يعتقد أن موته سيأتيه من أمعائه، لأنها أضعف ما فيه، وهي لا يصلحها دواء ولا صيام

واستمر حافظ لا يبالي بالموت، أو قل استمر يمدحه ويناجيه، حتى كانت ليلة العشرين من شهر يولية سنة ١٩٣٢ فسكن مرضه المعوي، وحدث جلساءه في تلك الليلة بما يشعر به من صحة جيدة، لم يعهدها منذ سنوات

لكن لم يدر حافظ أن ما شعر به من صحة جددت في نفسه الأمل، كان خدعة القضاء، وصحوة الفناء. وكان الجسم إذا شعر بالموت مقبلاً عليه اهتزت خلاياه، واستجمعت ما فيها من قوة لتكافح الكارثة، فيشعر المريض بانتعاش نفسه، ونشاط صحته، ثم لا يلبث حتى تخمد جذوته،

وتخبو حركته، كالمصباح إذا شارف النهاية توهَّج واشتد لمعانه حتى يكاد يبهر العيون، ثم يتخاذل ويحترق

كذلك كان حافظ.. فقد كان في الليلة السابقة لليلة وفاته بصحة جيدة، ذكر بها عهد الشباب، وريعان فتوته، ونضارة بهجته، فجلس بين أصدقائه مسروراً، ثم آب إلى بيته متفائلاً في نحو منتصف الليل

اطمأن حافظ في مخدعه، وظن أن الحياة قد امتدت له سنوات أخرى، وأن شبابه الذي ضاع في شجو وأنين، وخيبة وأشجان، عاد إليه ليستأنف حظه في رغد من العيش بعد بؤس، وابتسام من الأيام بعد عبوس

أو أن الشيخوخة أرادت أن تديل له من الشباب، وتعوض له ما ضاع عليه من متاع، وأن تأتي بالمعجزة في حياة شاعر أهرمته الهموم قبل أن يوافيه الهرم، وقوضته الأشجان قبل أن تقوضه الشيخوخة، وعاش طول حياته كئيباً مكلوماً

نعم، أو أن الحظ الذي طالما بكاه وناجاه، قد أسعفه في تلك الليلة وواتاه، أو أنه طوي من الأيام ما عاد به القهقري فاستأنف عهد "الإمام"، وما كان يعيش فيه من سعادة روحية، وعطف جميل، وحظ جزيل، أو أن لحظات من الجنة أعارته بهجتها في أواخر لحظاته، فانتعشت روحه، وذهب عن جسمه الألم

نام حافظ، ولم تنم عنه عين الموت، ولم تطل به راحة الكرى، حتى أشرع إليه الخطى، ووقف شبحه على سريره يناجيهَ:

ها أنذا يا حافظ، دعوتني مراراً فلم أجبك، وناجتني أياماً فلم أسمع إليك، وأقبلت مستنجداً فأعرضت عنك، وشكوت مرارة الحياة فقسوت عليك، وفزعت من ظلام الخطوب ففررت منك، ومدحتني بما لا تمدح به الغيد الحسان، وأرباب العروش والتيجان، فما عطفت نحوك، ولا سمحت بلقائك، لكنك وقد بلغت النهاية، واستوفيت من الحياة ما شاء القدر، فقد جئت مستجيباً لندائك، مسرعاً بعد بطء إلى شفائك، باعثاً بك إلى برد الثرى الذي تمنيته فقلت:

حـــن جنبـــاي إلى بـــرد الثـــرى   حيــث أني مــن عــدو وحبيــب
مضـــجع لا يشـــتكي صـــاحبه   شـدة الـدهر ولا شـد الخطـوب

***

وكانت ليلة الحادي والعشرين من يوليو سنة ١٩٣٢ وهي ليلة الوفاة فشعر بألم شديد يدب إليه لم يسبق أن شعر به. ثم أغفى قليلاً ولكنه ما لبث أن استيقظ على ألم هائل انتابه في الساعة الثالثة بعد منتصف الليل فمنعه من التأوه، ولم يستطع أن يفوه إلا بهذه العبارة:

- عاوز طبيب.. ادعوا لي صديقي عبد الحميد البنان يجيب لي طبيب حالاً

وكان السيد عبد الحميد البنان نائماً في تلك الساعة، فاستيقظ على دق التليفون دقاً مزعجاً فهب من فراشه وسأل: "من المنادي؟" فإذا به داعية من بيت حافظ تبلغه نبأ مرضه المفاجئ، وترجعوه أن يحضر توا مع أحد الأطباء، فأسرع السيد عبد الحميد إلى ضاحية الزيتون ومعه الطبيب، ودخلا على شاعر النيل، فوجداه صريع "الحمى الشوكية" فنادياه فلم يجب، والتفت إليهما ودمعت عيناه، ثم تحركت شفتاه في غير صوت بالتأوه والاستغاثة، ولم يستطع حركة ولا كلاماً..

ثم ودع الحياة في سلام، غير آسف على الدنيا وما تحويه من خطوب وأشجان وآلام..

أحمد شوقي

لما قال أمير الشعراء أحمد شوقي في رثاء شاعر النيل حافظ إبراهيم:

قد كنت أوثر أن تقول رثائي	يا منصف الموتى من الأحياء
لكن سبقت وكل طول سلامة	قدر، وكل منية بقضاء

قلنا: لقد نعى أمير الشعراء نفسه، وآذنت شمس حياته بالمغيب، وما نحسب أنه مقيم بيننا طويلاً، وقد لا ينتهي العام، حتى تفتقده بين الصفائح والرجام

وكنا وقتئذ في آخر يولية سنة ١٩٣٢ ولم يجف دمعنا على شاعر النيل، ثم مضت بعد وفاته ثلاثة وثمانون يوماً، وفي صبيحة اليوم الرابع

والثمانين– وهو ١٤ أكتوبر– طوي مصر وسائر الأقطار العربية نبأ فزعت فيه دولة الأدب بآمالها إلى الكذب، لأنه كان نبأ مفاجئاً، ولأنها كانت تتمنى لشوقي حياة طويلة، ولها من نبوغه ثروة جديدة

وقبل أن يموت بأيام عاد في المساء إلى داره "كرمة ابن هانئ"، فلما دخلها وقف بالحديقة وقال لسكرتيره:

– ترى.. كم قبراً تسع هذه الدار؟..

فدهش السكرتير، وقال له:

– ولماذا هذا السؤال يا باشا؟![٢٥]

فقال: "لا شيء، لكنه خاطر مر بنفسي، فذكرت الموت، وطالما خالجتني ذكراه في هذه الأيام، فهب أنني مت فماذا يكون؟!"

– عشت يا أمير الشعراء، ولا روعت فيك مصر، ولا فجع بك الشرق العربي

– لا تخف فليس الموت بالمصيبة العظمى، وقد يكون منجاة من حسد حاسد أو حقد حاقد، والقبر أبقى من هذه الدار، وهو لا يشغل غير عشرة أمتار، أما هي فقد شغلت خمسة آلاف متر، فلو بنيت في مكانها قبور لاتسعت لخمسمائة قبر، أليس كذلك؟

---

[٢٥] كان شوقي يدعى بين عارفيه بهذا اللقب لأنه كان يحمل رتبة الامتياز من الدولة العثمانية

فأسقط في يد السكرتير، وعاد شوقي فاستأنف كلامه، فقال:

- أي أن كرمة ابن هانئ تشغل من الأرض ما يكفي ثلاثة آلاف من "الموتى" فما أعظم طمعنا في دار الفناء، وقناعتنا في دار البقاء

- أراك اليوم تذكر الموت، وقد نهيتنا عن ذكره في مجالسك، وتمنيت لنا منه النجاة!؟

نعم، ولكني ما خفته يوماً، وما ذممته قط ولا لذت منه بالفرار، ولا نقمت لأجله على الأقدار:

أنا مـن لا يـرى الفـرار مـن المـو ... ت، ومـن لا يـرى مـن المـوت
إنمـا المـوت منتهـى كـل حـي ... لم يصـب مالـك مـن الملـك
سـنة الله في العبـاد، وأمـر ... ناطـق عـن بقائـه، لـن يـردا

"ولماذا الفرار من راحة بعد عناء، ونعيم بعد شقاء، فإن "الحياة كعهدك بها معصية، عن الحظيرة مقصية[٢٦]، وخلوة حلوة عواقبها نغص، ومشاربها غصص، أفعى خداعة، ولذة لذاعة، شوك بغَّض الورد، وقذى نغَّض الورد[٢٧]، أمور شتى الأعنَّة، وحوادث وقعَّ وأجنَّة، فقل لمن أطال التفكير، وبالغ في التنكير، وكد باله، ومد بلباله، واحترق باحتراق الذبالة:

---

[٢٦] هذه الفقرات من أسواق الذهب لشوقي

[٢٧] الورد بكسر الواو الإشراف على المساء للاستسقاء

خـــــل اهتمامـــــك ناحيـــــه وخـــذ الحيـــاة كمـــا هيـــه

تتسع لخمسمائة قبر، في كل قبر ستة أموات، فتكفي إذن ثلاثة آلاف ميت، فبئس حرص الإنسان وبئست نفسه المدمنة على الشهوات:

والـنفس عاكفـة علـى شـهواتها تأوي إلى أحقادهـــا وتثـــور
والعـيش آمـال تجـد وتنقضـي والموت أصدق والحياة غرور

"نعيش ونمضي في عذاب كلذة، وفي لذة كعذاب. ونذهب من الأحلام في كل مذهب، ثم تنتهي هذه الأحلام إلى ذهاب. ونبني من التراب قصوراً ونحن لعمر الحق تراب. والفلك دائر ما لعصاه مستقر. ودولابه بالعالم سائر، وعلى جانبيه المرتقي والمنحدر. نقض إيوان كسرى من أساسه، وأتى الأهرام من أم راسه، ودهى صرح الحمراء، فقوض منه أعظم البناء، ولم تبق له الخطوب إلا عمداً قائمة، كأنما هي على عباب الأيام عائمة

"أين رومية وقيصرها، وجنة[٢٨] الطلح ومعتمدها، وأين نابليون وصولته، وصقر قريش ومنيته[٢٩] لقد صار القصر له قبراً، ثم ذهب القبر وصاحبه، وأصبح ذكراً في الأفواه،وخاطراً في النفوس، أو سطراً في الطروس.. ثم ماذا، أنسيت السؤال:

---

[٢٨] جنة الطلح هي وادي الطلح، كانت متنزها باشبيلية للمعتمد بن عباد

[٢٩] المنية بضم الميم وسكون النون، قصر عبد الرحمن الداخل بمدينة قراطبة، وقد دفن به

- كم قبراً تسع هذه الدار؟

- ....

- أليست كرمة ابن هانئ تسع خمسمائة قبر، وأليست هذه القبور تتسع لثلاثة آلاف من الموتى، ثم ألسنا مسرفين جداً. لقد شغلنا من الأرض كبيراً، وعطلنا من منافع الناس كثيراً. فبعداً لطمع الإنسان يطلب الجاه، ويستزيد من المال، ويستعمر من الأرض آلافاً، ويكلف نفسه المتاعب أضعافاً، ويبني حوله حجرته حجرات، وفوق طبقته طبقات، ويرجو أن ينطح بها عنان السموات، وما درى أن الحياة دقائق ولحظات. فلما أضله وأعجب عقله. لقد شغل بنفسه عن رمسه، ونسى أنه زائل ولو طال به المدى، وأنه واصل ولو أبطأت به المطية:

كـل حـي وإن تراخـت منـايا ... هـ، قضاء عن الحياة انقطاعه
والـذي تحـرص النفـوس عليـه ... عـالم باطـل قليـل متاعـه

"إني لأشعر بتعب في هذه الأيام، وقد استهلك جسمي الضعف، وعصرتني الشيخوخة، فما أبقت مني غير مخ في عظام، وروح في جسم رمام[٣٠]، وما أحسب أني مقيم طويلاً، فيا ترى على أية الحالتين يأتيني الأجل، أبعد الرقاد أياماً أم في غفلة من النفس، وسنة من الحس

---

[٣٠] رمام بكسر الراء أي بال

وأي المصـــرعين أشـــد، مـــوت علــــى علــــم، أم المـــــوت
وهـل تقـع النفـوس علـى أمـان كما وقعت على الحرم القطاة

***

وكان أمير الشعراء قد اشتد ضعفه في السنوات الأخيرة، وبدا أكبر من سنه، ودفعته شدة ضعفه إلى زيادة عطفه على الفقراء ومواساة البؤساء، وكان يقول: "حسبي أن أسمع من إنسان أنه مريض، أو ضعيف أو بائس، فيعروني ألم عميق، ووجد شديد، هل ترونني أزور الآن العظماء أو ذوي الجاه، لا، إنني ضعيف وأحب الضعفاء"

ثم أنشد قوله عن نفسه:

أقول لهم في ساعة الدفن خففوا علـيَّ ولا تلقـوا الصـخور علـى
ألم يكـف هـمُ في الحيـاة حملتـه فأحمل بعد الموت صخراً على

***

وركب سيارته من داره قبل وفاته بقليل مع سكرتيره، فذكرا في الطريق الأزمة الاقتصادية الناشبة في العالم في ذاك الحين، فتحدث عن وجوب الاقتصاد في تلك الأيام، ثم وصل إلى مكتبه، فتقدم إليه بعض ذوي الحاجة، فنفحهم خمسة جنيهات، ثم قال لسكرتيره:

---

[٣١] الموت الفوات الذي يأتي فجأة

- كنا نقول من دقائق أنه يجب الاقتصاد في هذه الأيام، فهيا بنا نتصرف قبل أن يدركنا آخرون

وبينما هو يهم بركوب سيارته إذ أقبل عليه بائس، فقال له: "ليس معي شيء" وأمر السائق بالسير. وما كادت السيارة تبتعد قليلاً عن المكتب حتى أمر السائق بالرجوع. وقال لسكرتيره:

- ابحث عن الرجل الذي صرفته، فلعله يكون في حاجة أشد من الذين تقدموه..

فبحث عنه حتى وجده فعاد به، فقال له شوقي:

- لا تؤاخذني، فأنا مريض وأعصابي ضعيفة. فلا تتكدر من حدَّتي ونفحه مبلغاً من المال..

وكان شوقي قد أصيب بمرض تصلب الشرايين في أواخر حياته، وكانت أعصابه طول حياته ضعيفة، وقد زادت ضعفاً بهذا المرض، وبما كان يبذله من مجهود أدبي في شيخوخته، فأصبحت تتأثر بأقل مؤثر، حتى تكاد تتأثر بخطرات النسيم، أو بلمس الحرير. وكان إذا دخل عليه إنسان ممن يعرفهم ومن لا يعرفهم اختلجت أعصابه، فيسلم عليه في حركة عصبية ترتعش لها يده، ويمكث نحو دقيقتين في هذه الرعشة فلا يطمئن الزائر إلى حديثه إلا بعد برهة، أو بعد أن يشرب القهوة

وقد نصحه طبيبه كثيراً بالكف عن العمل والإنتاج، والانقطاع إلى

الراحة من عناء الفن، ولكن العمل الأدبي كان له طبيعة، والإنتاج الشعري كان له ديدناً، فكان من المحال أن يحقق رجاء الطبيب

واستمر يسهر الليل كله، ويعاني قرض الشعر، وتأليف الروايات، حتى أشرف على الموت، بعد ما مهد لها بهذا الضعف الجسمي، والمجهود النفسي الذي كابده أربعين عاماً، فخلف للأدب العربي ثروة ضخمة، وبني لنفسه مجداً خالداً

***

وكانت أوائل أكتوبر سنة ١٩٣٢، فاعتزمت "جمعية القرش" إقامة احتفال في يوم ١٤ من هذا الشهر لافتتاح مصنع الطرابيش، ورغبت إليه أن يتوج هذه الحفلة بقصيدة من قصائده، فنظم لها هذه القصيدة:

الملــــك بالمـــــال والرجـــــال لم يـــبن ملـــك بغـــير مـــال
والمـــال ركـــن الشـــعوب يـؤوي إليـــه في الســـلم والقتـــال

ثم قال:

الحمـــــد لله قـــــام منــــا أواخــــــر تمـــــوا أولي
وســـد جيـــل مكـــان جيـــل لله مـــــن ســـــابق وتال

وما درى أحد أن أمير الشعراء سيغادر عالم الشقاء في اليوم الذي تلقي فيه آخر قصيدة له وهو على فراش الموت

ففي اليوم السابق لهذا اليوم أحس شوقي بتحسن في صحته، فطابت نفسه لصباح ذلك اليوم الهنيء الذي ذاق فيه من متاع العافية والصحة ما لم يذقه منذ سنوات، وكان يستعيد بما خالجه من طروب وسرور وبهجة الماضي، وما طوي فيه من عيش ظليل، وعهد باسم الوجنات جميل

وفي منتصف السابعة مساء ركب أمير الشعراء السيارة مع سكرتيره، وذب للرياضة في مصر الجديدة... وفي الطريق قال له:

- أراني اليوم منشرح النفس جداً، فإني أشعر براحة تامة، واعتدال في بنيتي، وقد تناولت الطعام بشهية

وفي عودته مر بأحد المطاعم، فتناول فيه العشاء ثم توجه إلى دار جريدة "الجهاد" فدخل حجرة السكرتير، وعلم صاحبها ورئيسها الأستاذ مُحَّد توفيق دياب بقدومه، فانتقل إليه، فقدم له شوقي بك سيجارة، ولاحظ الأستاذ دياب أنه يسعل سعالاً خفيفاً، فسأله عما به، فأجاب:

- ذلك برد بسيط، وهو عارض منتشر في هذه الأيام

- لعله من اختلاف الفصول..

- أظن ذلك...

***

ومكث شوقي إلى الساعة الحادية عشرة في جريدة "الجهاد" ونهض قائلاً: "إني ذاهب إلى داري لأستريح، وألتمس شيئاً من الدفء"

وركب السيارة حتى وصل إلى كرمة ابن هانئ، وقبل أن يدخل غرفته وقف برهة في الحديقة، وقال لسكرتيره:

- هيه.. كم قبراً تسع هذا الدار؟..

- لماذا يا باشا نعود إلى هذا السؤال؟!..

- لا شيء.. لكنه خاطر مر بنفسي كما مر بها منذ أيام..

- أنه وهم باطل يمر كثيراً بنفوس الناس..!

- بل إن الموت حق.. ثم.. ألم أقل لك أن هذه الدار تسع خمسمائة قبر وأنها تتسع لثلاثة آلاف من الأموات..

- لقد ذكرت لي إنك بصحة جيدة، فلماذا هذا الوهم المخيف؟..

- لا شيء.. لا شيء.. اذهب ونم

وأوى أمير الشعراء إلى مضجعه، وأراد النوم، فاعتراه أرق وسعال، فتدثر حتى دفئ، لكنه لم يسكن إلى الدفء، ولم يطمئن إلى الفراش، وشعر بآلام في صدره، ثم ضيق في تنفسه فأيقظ الخادم وأمره أن يقوم بإسعاف خاص بالتصلب الشرياني، فلم يفده هذا الإسعاف. فأمره أن يستدعي الدكتور جلاد، وأن يوقظ أسرته

وكان الموت يسرع إليه الخطى، وينشر أجنحته على سريره، ويناجي شاعراً طالما ناجي النجوم في أفلاكها، والطيور في أجوائها، والأزهار على أفنائها، وطوي القرون القهقري حتى أتى الرشيد في ناديه، والمأمون في

مغانيه، وسيف الدولة في مجالس متنبيه، فسحر النفوس بعجائب سحره، وامتلك القلوب بعظمة شعره، وسبق الشعراء الأوائل بعظيم إنتاجه، وبزَّهم بفيض نفسه، وباهر آثاره..

وعاد الخادم، فوجد سيده يجود بنفسه، فطمأنه إلى حضور الطبيب، فقال شوقي:

- لا أمل بعد الآن. إن أمري قد انتهى، فسلام على أولادي وأصدقائي

وحضرت السيدة زوجته وأولاده، فرأوه في النزع الأخير، فارتاعوا. وجاء الطبيب، فوجد الشاعر العظيم يجود بأنفاسه في الساعة الثانية بعد منتصف ليلة الجمعة ١٤ أكتوبر سنة ١٩٣٢

وقد أوصى أن يكتب على قبره من قصيدته نهج البردة هذين البيتين:

يا أحمد الخير لي جاه بتسميتي وكيف لا يتسامى بالرسول
أن جل ذنبي عن الغفران لي أمل في الله يجعلني في خير معتصم

الفصل الخامس

الشعراء الكتاب الثلاثة

حفني ناصف
مصطفى لطفي المنفلوطي
خليل مطران

هذا الفصل خاص بهؤلاء الأدباء الذين نبغوا في الشعر والكتابة. وكانت وفاتهم بهذا الترتيب الزمني...

حفني ناصف

في سنة ١٩١٤ ميلادية أحالت وزارة المعارف إلى حفني ناصف تطبيق رسم المصحف الشريف الذي طبعته على رسم مصحف الإمام عثمان بن عفان، وعاونه في هذا العمل المرحوم الشيخ أحمد الإسكندري، والشيخ مصطفى العناني. وفي أثناء ذلك بلغ الستين من عمره، فأحيل إلى المعاش مع بقاء هذه المهمة مسندة إليه وإلى زميليه. وقبل أن يحل ميعاد اعتزاله وظيفة المفتش الأول للغة العربية بوزارة المعارف بعشرين يوماً كتب هذه الأبيات، وكأنه كان يحس في أعماق نفسه قرب نهايته، فقال:

بـــــرزت في ســـــحر البيـــــا　　　ن وشـــــاب فيـــــه مفرقـــــي

وقضـــيت عمـــري في الـــبلا   غـــــة ســـــابقاً لم ألحـــــق
وخـــــدمت ديـــــوان المعـــــا   رف مخلصـــــــاً بتفـــــوق
عشـــرون يومـــاً قـــد بقيـــ   ـــين وبعــــدها لا نلتقـــي
فتبلغـــــي يا نفـــــس بالمـــــ   ـــــفروض للمســـــترزق
فـــات الكثـــير مـــن الحيـــا   ة وقـــل منهـــا مـــا بقـــي

وكان حفني بك أحد العلماء والأدباء الستة الذين وقفوا سنة ١٩٠٥م على قبر الإمام الشيخ مُحَمَّد عبده يوم وفاته يرثونه، وهم: الشيخ أحمد أبو خطوة، وحسن عاصم باشا، وحسن عبد الرازق باشا الكبير، وقاسم أمين بك، وحفني ناصف، وحافظ إبراهيم. وقد اتفق أن مات الأربعة الأولون بهذا الترتيب. ولاحظ حفني ناصف ذلك يوماً، وكان قد مرض حافظ إبراهيم، وخاف الموت على نفسه، فبعث إليه حفني يطمئنه بهذه الأبيات:

أتـذكر إذ كنـا علـى القـبر سـتة   نعـــدد آثار الإمـــام ونـنـــدب
وقفنـا بترتيـب وقـد دب بيننـا   ممـات على وفـق الـرثاء مرتـب
أبـو خطـوة وليَّ وقفـاه عاصـم   وجـاء لعبـد الـرازق المـوت
فلـيَّ وغابـت بعـده شمـس قاسـم   وعمـا قليـل نجـم محيـاي يغـرب
فـلا تخـش هلكـاً مـا حييـت وإن   فمـا أنـت إلا خـائف تترقـب
فخـاطر وقـع تحـت القطـار ولا   ونم تحـت بيـت الوقـف وهـو

وخص لجج الهيجاء أعزل آمنا فإن المنايا عنك تنأى وتهرب

***

ولما مات جرجي بك زيدان في أوائل الحرب العالمية الأولى، رثاه حفني بك ناصف بمرثية ذكر فيها فواجع الموت في الحرب، ووصف هذه الحرب الحديثة وصفاً دقيقاً، بل وصفاً يدل على سعة اللغة العربية، وسهولة تطورها مع تطور العصور متى كان الكاتب أو الشاعر متمكناً من لغته، قديراً على الإفصاح والتعبير عن كل غرض من الأغراض قال:

تعال فأرخ للأنام حوادثاً تشيب لها الولدان هولاً وتهرم
وأرهف يراعا للكتابة ماضياً فقد جاء عصر بالحوادث
لئن كان ما أرخت في زمن مضى عظيماً، فما نستقبل اليوم
مدافع تستك المسامع دونها وتخرج من أفواههن جهنم
إذا فغرت أفواهها لكريهة تدك الرواسي، والحصون تحطم
وسفن تبارت في المسير أراقماً إذا زال منها أرقم صال أرقم
إذا أنساب منها بضعة نحو معقل فلا شيء مما ينفث الموت
وغواصة كالحوت تسبح خفية تطيح بمرماها سفائن عوم
وطيارة لا يبلغ النسر شأوها تدل على جيش العدو وترجم
فتنقص منها كالصواعق تارة كرات، وأحياناً تسدد أسهم
وأنبوبة تنساب منها سوائل ترد هواء الجو يعمي ويبكم

متى فارقت أنبوبها صرن صرصراً إذا اشتم منها القوم فالقوم
ففي الجو تصعاق، وفي البحر وفي البر أعضاء تطير، ومعصم
وفي كل ناد رنة وتحسر وفي كل دار أينما سرت مأتم
فيا ويح شبان تخوض غمارها ويا ويل شبان عن الموت
لك الحق فأنعم حيث أنت مع تحب، وخيم بينهم حيث
وفاخر بدار ليس فيها تباغض ونافس بحكم ليس فيه تحكم

قال تلك الأبيات حفني بك قبل أن يموت بخمس سنوات، وكان منذ أحيل إلى المعاش متشائماً لا يرتاح إلى الحياة ولا يطمئن إليها، ويشعر بقرب أجله. وقبل أن يموت بنحو عام أصيب بشلل جزئي فزاد تشاؤمه، وعز رجاؤه في حياة قضاها في جهاد وعناء، وأيقن أن الموت مقبل عليه، وأن ما بقى له من دنياه لا يتجاوز بضعة أشهر أو أسابيع. وكتب وهو على فراشه هذه الأبيات:

أتقضي معي إن حان حيني وما نلتها إلا بطول عنائي
ويحزنني ألا أرى لي حيلة لإعطائها من يستحق عطائي
إذا ورث الجهال أبناءهم غنى وجاها، فما أشقى بني الحكماء

***

وشاء الله أن يخفف عنه هذا الشلل، وأن يتماثل للشفاء، وأن يعود إلى مراجعة المصحف الشريف الذي تطبعه وزارة المعارف على رسم

وبينما هو بين الأمل واليأس: الأمل في أن يعيش بضعة أعوام فوق الخامسة والستين حتى يتم بعض مشروعاته العلمية والأدبية، واليأس من حياة أصابته في نجله الكبير الذي سيق إلى السجن بين شباب الثورة الوطنية

بينما هو كذلك إذ بنبراس حياته الساطع، وبهجة نفسه الباسمة، وزهرة قلبه الناضرة "باحثة البادية" تشكو الداء، فيهلع "الوالد"، ويرتاع لهذه الشكوى ارتياعاً لم يعهده من قبل. وكأنه أحس الخطر، ورأى بعاطفة الأبوة التي تكشف في بعض الأحيان أستار الغيب أن مرضها هذا هو مرض الموت، وأن مصابه ومصاب الشرق العربي فيها ستحل فجيعته عما قريب، وأنه قدر عليه وهو الوالد الحنون أن يفجع في أعز أبنائه إليه، وأكرمهم لديه، وأكثرهم عطفاً في شيخوخته عليه، وأن يشهد هذه الكارثة التي تهد كيان الآباء، وأن يحمل آلام هذا الجرح الذي لا يندمل إلا بالموت

لكأن الأيام نقمت من "حفني" فضله على اللغة العربية، ونبوغه في الكتابة والشعر، وما وهب من ذخر ثمين، وفخر كبير في كريمته ملك "باحثة البادية" التي كان لصوتها صدى في أرجاء الشرق، فأرادت أن تديل منه، فأصابته في شيخوخته بسجن ابنه، ثم كانت الطامة الكبرى بمرض كريمته النابغة..

عادت صحته إلى الضعف، وشعر بالمرض يرتد إليه، ولكنه استقوى،

ونشط إلى علاج ابنته، ومنى نفسه، واستهان بصحته، وأتعب جسمه لتوفير راحتها، وأجهد قلبه لتعجيل الشفاء إليها..

فعل ما في استطاعة أب رحيم رقيق العاطفة أن يفعله، لكن ماذا تجدي الرحمة أمام قسوة القدر، وماذا تفيد الرقة في خشونة الخطب المدلهم، والمصاب الفاجع؟

ساءت صحة "ملك"، وسارت إلى الخطر، ثم ماتت. فكان موتها نذير موته، وكان مصابها داعية مصابه. فلم يقو على حمل الخطب الشديد، واعتكف في بيته مكلوم النفس، مسلوب القلب، محطم الأعصاب، زاهداً في الحياة، ذاهلاً عن كل شيء إلا عن ذكر "ملك"، والتلهف عليها آناء الليل وأطراف النهار

وكانت حفلة تأبينها في الجامعة المصرية القديمة، ورأس الحفلة إسماعيل صبري باشا، وذهب حفني بك محمولاً إليها، لفرط ما أصابه من ضعف وهم ومرض. واستمع إلى كلمات المؤبنين في حزن وألم، حتى إذا جاء حافظ إبراهيم إلى قوله:

وتركـت شـيخك لا يعـي هـل	غـــاب زيـــد أو حضـــر
ثمـــــلاً ترنحـــــه الهمــــو	م إذا تحامـــل أو خطـــر
كــــالفرع هزتــــه العــــوا	صـــف فـــالتوى ثم انكســـر
أو كالبنــــــاء يريـــــد أن	يــنقض مــن وقــع الخــور

قـــد زعزعتـــه يـــد القضـــا ء وزلزلتـــه يـــد القـــدر

حتى إذا جاء حافظ إلى هذا القول في رثائها، بكى حفني بك، وأشفق عليه الحاضرون من شدة اللوعة والألم العظيم. ثم آب بعد انتهاء الحفلة إلى بيته، ودخل مضجعه وأخفى رأسه تحت الغطاء وبكى بكاء مراً، وأخذ ينشد بعض الأبيات بنشيج مؤثر. ثم فقد رشده بضعة أيام. وكان يوم الثلاثاء ٢٦ فبراير عام ١٩١٩ فأسلم روحه إلى بارئها، ولحق بكريمته كأنهما كانا على ميعاد..

كانت الثورة الوطنية وقتئذ متأججة، فلم تتح فرصة لتأبينه، وبقى بلا تأبين حتى كانت ذكرى الأستاذ الإمام التي أنشد فيها حافظ قصيدته البائية العصماء في الحفلة التي أقيمت بالجامعة المصرية سنة ١٩٢٢، فذكر حفني فيها حين قال:

هـــدأت نـــيران حـــزني هـــدأة وانطـــوى "حفـــني" فعـــادت

فتـــذكرت بـــه يـــوم انطـــوى صادق العزمة كشاف الكروب

ثم مضت السنون وأنشئت محطة الإذاعة الحكومية فأحيت له في عهد الثورة المجيدة ذكرى حسنة تحدث فيها بفضله ومناقبه طائفة من أعلام العلم والأدب

مصطفى لطفي المنفلوطي

... وصاح بلهجة صعيد مصر: "آه.. آه.. يا بوي..!"

ثم التفت إلى صديقه، وابتسم ولم يتكلم، وكانت هذه الآهة آخر كلماته، وختام آهاته في الحياة، وكأنما كتب عليه أن يختم حياته بالتأوه والأنين، كما عاش متأوهاً من مآسي الوجود، شادياً بأنات البائسين، وزفرات المتوجعين

وأدار "السيد مصطفى" بعد هذه الآهة وجهه إلى الحائط، وهو على فراشه، وكان صبح عيد الأضحى قد أشرقت شمسه، ودبت اليقظة في الأحياء، ولكن الموت كان يدب في هذا الوقت إلى جسم الأديب في هدوء وخشوع، فلم يتحرك فيه طرف، ولم تنتقض منه يد، ولم تنطفئ لوجهة بهجة، ولم تذبل له عينان، ولم تلم به وحشة، أو يخيم عليه من الفناء ظلام

بل سكن سكوناً بليغاً كسكون الساعة عند نهايتها، وذابت أنوار نفسه في ساحة الأبدية، كما تذوب الأشعة في الجو عند غايتها. واستمر صديقه الأستاذ مُحَّد حسني الجالس بجواره لا يدري أن مصطفى قد بارح عالم البؤساء إلى عالم السعداء، وارتفعت روحه مطمئنة إلى نعيم الخلد، بعد ما عانت آلام الأرض، فناداه:

- يا سيد مصطفى..!

فلم يجب النداء، فعاد يناديه:

- يا سيد مصطفى.. يا سيد مصطفى..

فلم يسمع الدعوة، ولم يجب النداء..

واطمأن السيد مصطفى للموت، وما كان يطمئن إليه يوماً في حياته، ولا يأنس ساعة بذكره– على الرغم من ذمه للحياة وتصويره لجوانبها السوداء– فإذا ذكر المرض أو الموت، أجفل وفزع من ذكرهما، وضرع إلى الله أن يؤخر يومه، وينسأ في أجله، ويديم له الصحة، ويسبغ عليه العافية

وما كان فزعه من المرض أو الموت لجبن في نفسه، أو لحرص على هذه الحياة الفانية، بل كان يجهل من حظه في الآخرة ما يجعله يقف موقف المتردد الحائر، ويخشى على مستقبل أولاده الصغار خطوب الزمان، وحوادث الأيام .

وقد زاد خوفه من المرض والموت بعد الأربعين، وكأنما كان يتنبأ بنهايته حين كتب آخر مقالة في آخر جزء من النظرات بعنوان "الأربعون" قبل وفاته بتسع سنوات. فقال:

"الآن وصلت إلى قمة هرم الحياة، والآن بدأت أنحدر إلى جانبه الآخر، ولا أعلم هل أستطيع أن أهبط بهدوء وسكون، حتى أصل إلى الصفح بسلام، أو أعثر في طريقي عثرة تهوى بي إلى المصرع الأخير هوياً

"سلام عليك أيها الماضي الجميل، لقد كنت ميداناً فسيحاً للآمال والأحلام، وكنا نطير في أجوائك البديعة الطلقة غادين رائحين، طيران الحمائم البيضاء في آفاق السماء، لا نشكو ولا نتألم، ولا نضجر ولا نسأم، بل لا نعتقد أن في العالم هموماً وآلاماً. وكان كل شيء في نظرنا جميلاً حتى الحاجة والفاقة

"... ما أنا آسف على الموت يوم يأتيني. فالموت غاية كل حي، ولكنني أرى أمامي عالماً مجهولاً، لا أعلم ما يكون حظي منه، وأترك ورائي أطفالاً صغاراً، لا أعلم كيف يعيشون من بعدي، ولولا ما أمامي، ومن ورائي، ما باليت أسقطت على الموت، أو سقط الموت عليَّ"

تلك هي النبوءة التي تنبأ بها "المنفلوطي" حين بلغ الأربعين، وذلك ما كان يخافه من الموت، فلولا صبية صغار، ولولا مآل مجهول، ما جزع ولا تشاءم من هذا المصير، ولا أخفى ما كان يصيبه من داء في بعض الأحيان عن أولاده وزوجته. وقد أصيب بشلل بسيط قبل وفاته بشهرين فكتم آلامه عن صحبه وأصدقائه، ولولا ثقل أصابه في لسانه عدة أيام ما علم أحد بمرضه، ولا استدعى طبيباً لعيادته، لأنه كان لا يثق بالأطباء، ورأيه فيهم أنهم لا يغنون عن القدر، ولا يدفعون نازلة القضاء، ولعل ذلك هو السبب في عدم إسعافه من التسمم البولي الذي أصابه قبل وفاته بثلاثة أيام

فقد كان في صحة جيدة، ونشاط تام، لا يشكو علة، ولا يتململ من ألم، وفي ليلة الجمعة السابقة لوفاته كان يأنس في منزله إلى إخوان يسامرهم ويسامرونه، ويفاكهم ويفاكهونه، ويناقشهم ويناقشونه في الأدب والموسيقى والسياسة والاجتماع، إذ كان يعقد هذه المجالس في كثير من الليالي، ويفد إليه بعض أصدقائه من الأدباء والسياسيين والموسيقيين، حتى إذا قضى سهرته معهم انصرفوا إلى بيوتهم، وانصرف هو إلى مكتبه فيبدأ عمله الأدبي في نحو الساعة الواحدة بعد منتصف الليل وفي الساعة الثانية

عشرة من تلك الليلة انصرف أصدقاؤه كعادتهم، وبقي يتصفح بعض الكتب، وأنه لكذلك إذا به يحس بتعب في أعصابه، وضيق بسيط في تنفسه فأوى إلى فراشه، وأراد النوم، فاستحال عليه، ومكث يعاني ألماً في الكلى، وضيقاً في الرئتين

وأقبل صبح السبت ١٢ يولية سنة ١٩٢٤، واستيقظ الأحياء وهو ما زال في أرقه الطويل، واستأنفوا حياة جديدة ويوماً جديداً، واستأنف هو ألماً ممضاً، وضيقاً شديداً. واستمر في ذلك يومه يعاني الأهوال، ويسوقه القضاء إلى النهاية، ويحثه القدر إلى بلوغ الغاية، في عذاب أليم، وبلاء جسيم

ودعي له الطبيب، وكان احتباس البول قد سمم دمه، وانبثت جراثيمه في أنحاء جسمه، فأصيب بذبحة صدرية، فصار يتلوى على فراشه يميناً وشمالاً، جلوساً ونوماً

حتى إذا جاء المساء– وكان مساء وقفة عيد الأضحى سنة ١٣٤٢ الهجرية– اشتد ضيقه، وساءت حالته، ويئس طبيبه، وثقلت العلة عليه، فجعل يضع رأسه مكان قدميه، وقدميه مكان رأسه، ويئن ويتألم، ويستجير من أوجاعه، ويلتمس الشفاعة برقة أدبه، ويرتجل الضراعة لرحمة ربه. ولم تسكن له حركة، ولم تهدأ له نفس، أو يغف له طرف، أو يستقر به مضجع

وكان بجواره في تلك الليلة صديقه الأستاذ مُحَمَّد حسني فأخذ يخفف عنه بالحديث ما يعانيه من تعب، ويهون عليه بالصبر ما يلاقيه من آلام!

وكان "السيد مصطفى" قبل ذلك بأيام قد اتفق مع صديقه المرحوم حسن أنور، وبعض إخوانه من هواة الموسيقى على أن يحضروا إليه في ليلة الثاني من عيد الأضحى بمعازفهم وأعوادهم ليحيوا تلك الليلة في التمتع بنغمات الموسيقى

وفيما كان رحمه الله يعاني الذبحة الصدرية، ويغالب الموت، والموت يغالبه التفت إلى صديقه وقال:

- أحقا إننا سنحيي ليلة الثاني من العيد مع أنور وإخوان أنور؟

قال صديقه: "نعم.. وستكون في صحة جيدة"

فهز السيد مصطفى رأسه، وقال: ".. في صحة جيدة!.. أتمنى.."

ثم سكت وانتابته الذبحة، وألحت في ضيقها، وتفاقمت آلامها، فكان يصارعها وتصارعه، ويجالدها وتجالده، حتى إذا ضعفت مقاومته، وانهارت قوته، استسلم للموت، وصاح بلهجة أهل صعيد مصر:

"آه.. آه.. يا بوي..!"

ثم التفت إلى صديقه وابتسم، ولم يتكلم. ودعاه صديقه مراراً، فلم يسمع الدعوة ولم يجب النداء، فظن أنه قد نام، فأشفق عليه من اليقظة، لأنه قضى الليلة الماضية في أرق شاق. وكف عن النداء

وهنا دخلت سيدة عجوز من أهله لها خبرة بمثل هذا المنظر الفاجع، فنظرت إلى "السيد" وأمسكت بيده وقالت للصديق: "أسمعك تنادي الرجل عدة مرات، وهو ميت"!

فتنبه الصديق من غشيته، وكأنما كان الموت يخادعه في صديقه، وصاح، وصاح من بالمنزل: "وا مصيبتاه..!"، وصرخ أطفاله: "وا أبتاه..!"

وبانت بالمنفلوطي المنية، فبانت عن عشاق أدبه هذه العبرة التي كان يزجيها إلى النفوس بعبراته، وتلك المتعة التي كان يهديها إلى القلوب بنظراته، وبان الإنس الشامل الذي ظلل كل قارئ لكتبه، والخلق الكامل الذي تجلى في سيرته وأدبه، وذابت العاطفة الرقيقة التي لا تباريها رقة السلافة، والنفس السامية الصافية التي لا تحكيها خفة النسيم ولا صفاء الماء، وكانت للعاشقين برداً وسلاماً، وللبائسين عطفاً وحناناً، ولليائسين عزاء وسلوانا

رحل ذلك كله فيما عدا ما بقي من آثاره، وغاض ذلك النبع الفياض، وكان منهلاً عذباً لكل قارئ، ومورداً حلواً لكل متأدب، وانطفأت تلك الجذوة التي كانت تنقد أسى وألماً للمساكين، وتلتهب حزناً ولوعة للمحبين، ورقد هذا القلم الذي طالما سهر الليالي، فكم من عبرة أسالها، وكم من رأفة استثارها، وكم من نظرة دبجها، وكم من رواية جال فيها ساجعاً بين أفنان البيان، يقطر ذوباً من القلب، وصوباً من النفس، وفيضاً من الجمال

طوي الموت ما بين المنفلوطي وبين الناس على أثر الاعتداء على الزعيم سعد زغلول، فلم تذكره أفواه المؤبنين، ولم يشيعه آلاف المشيعين ممن يعجبون بأدبه، ويشيدون بنبوغه وفضله

اختـرت يـوم الهـول يـوم وداع ونعـاك في عصـف الـرياح
هتـف النعـاة ضـحى فأوصـد جـرح الـرئيس منافـذ الأسمـاع
مـن مـات في فـزع القيامـة لم يجـد قـدماً تشـيع أو حفـاوة سـاعي

لكأن هذه الحمائم الساجعة في رياضها، وهذه الازاهر الباسمة على أفنانها، وهذه الآرام الراتعة في فيافيها، وهذا النسيم المختال بخطراته، المدل بلثماته، وقد سمعت بموته، وتحطيم قيثارته، فوجمت الحمائم، وذوت الازاهر، واعتقلت الفجيعة فيه الآرام، فسقطت شجية بخطبه في يوم شغل الناس فيه بإصابة "سعد" فنسوا كل شيء حتى هذا المصاب العظيم، واستهانوا بكل خطب حتى هذا الخطب الأدبي الجسيم، فحمل الهول عنهم تلك الطيور الوفية التي طالما ناجاها، وتلك الأزهار الندية التي طالما استوحاها، وتلك الظباء الرشيقة الآسرة التي تحاكي أسلوبه في رشاقته وسحره وأسره للقلوب

وقد قال في آخر نظراته يودع الشباب بل يودع الحياة:

"ليكن ما أراده الله. أما ما أمامي، فالله يعلم إني ما ألممت بمعصية إلا ترددت فيها قبل الإلمام بها، ثم ندمت عليها بعد وقوعها، ولا شككت يوماً من الأيام في آيات الله وكتبه، ولا في ملائكته ورسله، ولا في قضائه

وقدره، ولا أذعت لسلطان غير سلطانه، ولعظمة غير عظمته. وما أحسبه يحاسبني حساباً عسيراً على ما فرطت في جنبه بعد ذلك

"وأما من ورائي، فالله الذي يتولى السائمة في مرتعها، والقطاة في أفحوصها، والعصفور في عشه، والفرخ في وكره، سيتولى هؤلاء الأطفال المساكين، وسيبسط عليهم ظله ورحمته وإحسانه

"وداعاً أيها الشباب، فقد ودعت بوداعك الحياة. وما الحياة إلا تلك الخفقات التي يخفقها القلب في مطلع العمر، فإذا هدأت، فقد هدأ كل شيء، وانقضى كل شيء

"أيا عهد الشباب وكنت تندي   على أفياء سرحتك السلام"

خليل مطران

سألت المرحوم خليل مطران يوماً: "ما هي أمنيتك في الحياة؟"، فقال: "الحياة إلى الساعة الأخيرة في العمل، والموت متى جاءت ساعته بلا وجل"

وقد عاش خليل غني النفس، فقير المال. وكان مثلاً غريباً في القناعة والعفة والإيثار لغيره.. ونذكر أنه في سنة ١٩٤٠، قطعت الحكومة إعانة النقابة الزراعية، فكتب تقريراً عن حالتها اقترح فيه تخفيض ميزانيتها وفي مقدمة ذلك تخفيض مرتبه. ولم يأخذ مرتباً منها، بل كان يصرف على

شئونها من جيبه الخاص حتى أداها بمبلغ ألف وتسعمائة جنيه. لم تدفعه النقابة له إلا قبل وفاته بثلاثة أشهر..

ولقيته بعد ذلك في النادي الشرقي. وكان داء النقرس قد أثر في مفاصله وأعصابه "بعد عرق النسا" الذي أصيب به منذ عامين. فجلسنا نتحدث عن الحياة والناس، فقال لي:

أن سنة ١٩٤٧، كانت شؤماً عليَّ فقد مرضت فيها، وفقدت أربعة من أقاربي، وأنا الآن نصفي حي ونصفي ميت، وأشار إلى فخذيه لأنهما ضعفتا حتى لا تكادان تحملانه. وأخذ يتمثل بأغنية بدوية وهي:

"نصحتك يا جلب (يا قلب) ما ... سكران بدا (بداء) الهوى، ما
جلبت (ما قبلت) نصحي ... فضلت نصحي"
"وجسمي صار نص ميت ونص ... ونص الحي باقي للعذاب"

وفي فبراير عام ١٩٤٨ سافرت لأعمال صحفية، تغيبت عن القاهرة مدة، فلما قابلته في النادي الشرقي، وكان ضعيفاً بسبب مرضه سلمني رقعة كتب فيها بخطه هذه الأبيات الثلاثة وقال إني كتبتها لأرسلها إليك ولكني أحمد الله إني لقيتك لأسلمها لك. وكانت آخر شعره. وهي:

يا صديقي نأيت عني ولا أستـ ... ـطيع سعياً وتشتهي النفس
أنا أشكو إليك حاجات قوم ... شغلت عقلك الكبير وقلبك
أن تجد ساعة بها لك روح ... من عناء الجهاد فأذكر محبك

وفي أغسطس من هذا العام كنت ببورسعيد، فبعث إليه خطاباً للسؤال عن صحته، فأجابني بخطاب قال فيه: "أنا ما زلت ضعيفاً جداً، وأظن أنهم سينقلونني إلى مينا هاوس في هذا الأسبوع لعل هواء الصحراء الجاف يعينني على الشفاء من آلام أعصابي، وهي شديدة..." وقد انتقل إلى مينا هاوس، ومكث مدة ليست بالطويلة، ولكنها زادته آلاماً، وحركت مرضه الدفين، مرض "الربو" فاعتزم أن يعود من مينا هاوس إلى مسكنه بالتوفيقية وهو يعاني هذا المرض الأليم، ألم مرض النقرس، وزرته في ذلك الحين فوجدته في حالة شديدة من الضعف والإعياء، ولكن كان كما نعهده، يقظاً سليم الفكر، ولما سألته عن حاله قال:

"عشنا وشفنا سنين ومن يعيش يشوف العجب"
"شفنا الضني والأنين جعلناه لروحنا طرب"

وقال: "أنا لا أطمع في العيش ولا أريده إلا لأرعى هؤلاء الصغار وهو يعني أولاد أخيه" ولم أسمعه يشكو أو يتأوه من مرضه، بل كان صابراً حامداً قوي النفس، قوي الإيمان. ولكنه كان يأسى في بعض الأحيان لانقطاع إخوانه عنه في مرضه، فلم يكن يزوره إلا القليلون. ومع أنه كان يلتمس المعاذير لهم، ولكني سمعته في إحدى الزيارات يردد هذين البيتين من نظمه:

خدعت بمن عايشت أيام موردي لهم مورد، والمحفل الضخم
فلما انقضى ما كان للناس مأملاً إذا يممويي خاب في الناس

ولقد شاء أن يوقع على وتره الأخير لحن الرضي، وسكينة النفس، فنظم في آخر ما نظم قصيدة سماها: "الشاعر" يصف فيها نفسه وفلسفته ونهاية حياته. قال:

مـــاذا يريـــد الشـــعر مـــني ... أخـــنى عليـــه علـــو ســـني
هـــل كـــان مـــا ذهبـــت بـــه الأ ... يام مــــــن أدبي وفــــــني
أحســـــنت ظـــــني والليـــــا ... لي لم توافـــق حســـن ظـــني
ورجعـــت مـــن ســـوق عرضـــ ... ـــت بضـــاعتي فيهـــا بغـــبن
أفكـــــان ذلـــــك ذنبهـــــا ... أم كـــان ذنـــبي لا تســـلني
خمـــــدت بي النـــــار الـــــتي ... رفعـــت بعـــين العصـــر شـــأني
هـــــي شـــــعلة كانـــــت تنـــــ ... ـــير قـــريحتي وتنـــير ذهـــني
أيام لي طــــــــرب وقلــــــــ ... ـــبي موقـــع الســـهم المـــرن
لا تنـــــــدبني للعظـــــــا ... ئـــم بعـــدها لا تنـــدبني
ولي الربيــــع وجــــف عــــو ... دى وانتهـــى عهـــد التغـــني
وعــــدمت لــــذات الــــرؤى ... وعــــدمت لــــذات التمــــني
إني ختمــــــت العــــــيش في ... وادي المخيلــــة أو كــــأني
فــــإذا بــــدت لــــك همــــة ... مـــن دائـــب يشـــقى ويبـــني
فعــــذيره خــــوف التشــــ ... ـــبه بالرحـــى مـــن غـــير طحـــني
ويكـــد كـــد النحـــل وهـــ ... ـــي لغيرهـــا تســـعى وتجـــني

إن الحقيقـــــة حــــين نبـــــ ـــــلغها لتكفينـــــا وتغـــــني
فيهـــا الجــــلال بكــــل معـــ ـــناه، وفيهــا كــل حســـن
فـــــإذا تولينـــــــا، فهـــــل أسمــــاؤنا عنـــا ســــتغني
لـــو لم يكـــن في الــــذكر للــ أعقــــاب نفــــع لم يشـــقني
أمـــا الجــــزاء، فـــإنني أستـــــ ـــــتوفيت منــــه فـــوق وزني

هذا ما وقَّعه الخليل على وتره الأخير، قبل أن يحطم الموت قيثارته، وقبل أن يسكت فيها حلاوة الأنغام، وهي صورة لنفسه في شيخوخته وما كان يشعر به نحو الماضي، والحاضر، والمستقبل..

***

واشتد المرض على شاعرنا الكبير قبل وفاته بأسبوعين، واقتربت نهايته فلم يفقد انتباهه ويقظة نفسه حتى كان قبيل وفاته بثلاثة أيام فبدأ يرحل بخياله إلى العالم الآخر.. فكان يخيَّل إليه أن أمه، وأخاه المرحوم جورج، وملاك من السماء يزورونه في غرفته، فيرحب بهم، ويقول:

– أهلاً.. وسهلاً..

ويلتفت إلى من حوله وإلى ممرضته، ويقول:

– أوقدوا الأنوار.. إن الضيوف الكرام قد حضروا...

ثم يتنبه، وينظر إلى من بجواره ويقول: "إني أرى شيئاً جميلاً.. إني أرى العالم الآخر ما أحلاه.. إنه حقاً جميل.. ما كنت أدرى أنه بهذا النعيم.."

وقبل وفاته بأربعة أيام أصيبت زوجة أخيه بأزمة في الكبد فلم يخبروه، فكانت في إحدى الغرف تتأوه وتتألم، فكان يسمع تأوهها، ويقول:

- من الذي يتأوه، ولا أستطيع تلبيته.. إنها أول مرة لا ألبي فيها متألماً..

ولما اشتدت سكرات الموت طلب ماء، فأحضروه وأرادوا أن يقطروه في فمه بالملعقة، فأبي إلا أن يحمل كوب الماء ويشرب، فأعانوه على ذلك حتى شرب وقد بقى محتفظاً بقواه الذهنية إلى ما قبل وفاته بساعات، ثم غاب عن عالم الفناء ليرحل إلى عالم الخلود والبقاء..

الباب الثاني

نوابغ من الغرب

الفصل الأول

رجال أدب

فيكتور هوجو
ادجار ألن بو
الكسندر بوشكين
ليو تولستوي

فيكتور هوجو "الكاتب الشاعر الفرنسي"

- هأنذا أموت يا أوجست..!!

- ما هذا يا فيكتور؟.. وما الذي تقول؟.. إنك بخير.. وسوف تبرأ من مرضك وتعيش طويلاً..!

- إنني أموت.. وإذا عشت فإنني أعيش في أشخاصكم

قال ذلك فيكتور هوجو، لصهره "أوجست فاكيري" وهو على فراش مرضه الأخير، وكان يرقد عليه منذ ثلاثة أيام، ويشعر باقتراب النهاية.. ثم التفت إلى صديقه الأديب "بول موريس" وكان يعوده، فقال له:

- لشد ما يتألم المرء- يا عزيزي- حينما يرى أنه يموت..! ويرحل إلى الأبد

فقال بول:

- ولكنك لا تموت.. فلا حاجة للألم والخوف..!

- بل هو الموت يا صديقي..!

وصمت هوجو لحظة، ثم قال باللغة الأسبانية:

- لست خائفاً الآن.. وليحضر على الرحب والسعة..!

وصدرت في الثامن عشر من مايو عام ١٨٨٥م، نشرة طبية شغلت الناس في كل مكان على حياة هذا الأديب، جاء فيها:

"أصيب فيكتور هوجو بالتهاب رئوي. والمعروف أنه كان يقاسي منذ مدة قرحة في القلب"..

وكان الأديب الكبير يقاسي من فكرة الموت ضرباً من الفزع النفسي، وقد عرف عنه أنه كان يخلع على الجسد الميت إحساسات الإنسان الحي، ولكنه كان يؤمن بوجود الله، وخلود الروح التي كان يرى مظاهرها في كل شيء: في الطبيعة، وفي الأحلام، وفي قرقعة منضدة تتحرك، وفي نبضات قلب يخفق.. فقد كان يعتقد في عالم الأرواح، ويؤمن

بالاتصال الروحي، وكان معنياً بإجراء التجارب في تحضير الأرواح. ولما مات ابنه شارل كتب يقول:

- لو لم أكن أومن بالروح، لما استطعت أن أعيش بعد الآن ساعة واحدة..!

***

وانقضى اليومان التاليان بين فترات من التحسن الطفيف كانت تعقبها فترات من التدهور والقلق.. وفي اليوم العشرين خط "هوجو" هذه العبارة:

- الحب هو الحياة.. والحياة هي العمل..!

وفي اليوم التالي قال الشيخ المريض في فترة صحو لحفيدته الصغيرة التي كان يحبها حباً شديداً:

- وداعاً يا جان...!

وفي اليوم نفسه تلقت "مدام لوكروي"- أرملة ابنة شارل هوجو- الرسالة التالية من "الكاردينال جيبير" رئيس أساقفة باريس:

"سيدتي...

"إنني أشارك مسيو فيكتور هوجو مشاركة قلبية في آلامه، وأشاطر أسرته ما تكابده من قلق وانزعاج، وقد صليت من أجله وأقمت أمام المذبح المقدس قداساً للمريض الشهير، وأرى من الواجب المحبب إلى نفسي أن أخفَّ إليه لنجدته، وأحمل له من التأسي والمواساة ما تشتد حاجة المرء إليه في هذه النازلة القاسية. على الرغم من أنني ما زلت ضعيفاً، وفي فترة نقاهة من مرض يشبه مرضه إلى حد كبير...

"وتفضلي يا سيدتي بقبول أخلص مشاعري مع احترامي الواجب" فردت عليه السيدة "لوكروي" برسالة شكرت فيها عنايته واهتمامه، وأفضت إليه بأن الأسرة تريد التقيد بإرادة فيكتور هوجو نفسه الذي كتب في وصيته:

"إنني أوصى للفقراء بخمسين ألف فرنك

"وأريد أن تحملوني في نعشهم إلى المقبرة

"أرفض البركة والطقوس من كل الكنائس

"وأطلب صلاة من الناس جميعاً، ومن أجل الجميع

"وإني أومن بالله.. !"

وهكذا كان الأديب الشيخ في مرض الموت.. وهو الذي لم يمرض قط مرضاً خطيراً في حياته المديدة، التي ذاق فيها فجيعة الموت في أولاده

الذكور، وفي ابنته وزوجته "آديل فوشيه"، وفي حبيبته "جوليت درooويه"..
هذا عدا مآسي الحروب التي شاهدها. والثورات التي عاصرها، والأصدقاء الذين فقدهم، والشخصيات التي نسجها خياله في مسرحياته وقصصه..

وكان "هوجو" يعيش وقتئذ مقطب الجبين، كما يعيش منذ سنوات عديدة، وهو يتلقى في صمت ذلك التكريم الإجماعي للمجد الأدبي الخالد الذي كان يتمتع به. وكانت متعته الوحيدة في أواخر أيامه هي الجلوس إلى حفيدته الصغيرة "جان" وشقيقها "جورج" ابني ولده المتوفي "شارل هوجو"!

***

وفي صبيحة يوم الجمعة الثاني والعشرين من مايو، بدأ احتضار الشاعر العظيم، وكانت حشرجة الموت أول الأمر صوتاً مكتوماً خشناً كصوت أمواج البحر على صخور الشاطئ.. ثم أخذ يضعف شيئاً فشيئاً حتى انتهى..!

وكانت الساعة الواحدة والدقيقة السابعة والعشرين من بعد الظهر حينما فارق الشيخ الحياة، تحت قصف الرعد وزمجرة عاصفة ثلجية كانت تجتاح باريس في تلك الساعة الواجفة الحزينة، وكان جمهور غفير يترقب في قلق شديد أنباء الأديب المحتضر تحت نوافذ بيته..

وانطفأ نور هذه القريحة الوقادة، وانطوت صفحات حياته الإنسانية النابغة.. وكان آخر ما نطق به بيتاً من الشعر جاء صحيح الوزن على الرغم من سكرة الموت، جاء في ترجمته:

"هنا تنتهي معركة الليل والنهار"

ترى ما الذي كان يعنيه "فيكتور هوجو" بهذا القول؟.. وما هو الليل؟.. وما النهار؟..

إننا لنجد الجواب على هذا كله فيما سبق أن كتبه منذ عشرة أعوام، عن المستقبل، بعد وفاة ابنه "فرانسوا فيكتور"، إذ كتب يقول:

"في يوم من الأيام، قد يكون قريباً، سوف تدق الساعة من أجل الأب كم دقت من أجل الابن، ويبلغ يوم الكادح نهايته، وحينئذ يحين دوره، فيوضع بين أربعة ألواح من خشب، ويبدو كالنائم، ويصبح ذلك الشيء المجهول الذي يطلقون عليه: "الميت"، ثم يحملونه إلى الفتحة المظلمة حيث العتبة التي يستحيل التنبؤ بما وراءها..

"ولا يكاد ينهال التراب، وتكف المعاول، ويخيم السكون، حتى تغادر الروح رداءها البالي، هذا الجسد، وتخرج ضوءاً من أكداس الظلمات.."

***

وما كاد نبأ موت "فيكتور هوجو" يذاع في باريس حتى رفع مجلساً

الشيوخ والنواب جلستيهما حداداً على الراحل العظيم، وتقرر أن يدفن جثمانه في "البانثيون" Le Pamthèon[٣٢]، مقبرة العظماء، بعد عرضه تحت قوس النصر

وظلت أمواج من الكتل البشرية تتدفق على قوس النصر لتلقى نظرة أخيرة على جثمان الأديب العظيم حتى ليلة **٣١** مايو عام **١٨٨٥**، ثم نقل هذا الجثمان من ميدان النجم إلى البانثيون في موكب رهيب لم يعرف له نظير منذ وفاة نابليون بونابرت، يحيط به مئات من الفرسان حملة المشاعل، ويحف بالنعش حرس شرف من اثني عشر شاعراً شاباً، يتبعهم طوفان بشرى مؤلف من مليونين من البشر

وانتشر هنا وهناك على النوافذ والحوانيت والشرفات والنواصي عدد لا يدركه الحصر من اللافتات التي تحمل كل واحدة منها بيتاً له من الشعر أو أبيات أو عبارة، كما قامت أخرى على نواصي الشوارع وواجهات المتاجر الكبرى تحمل أسماء رواياته ومسرحياته ودواوين شعره. ولم يحدث قط من قبل أن خرجت أمة عن بكرة أبيها تشيع شاعراً من أبنائها إلى مقره الأخير

إدجار ألن بو "الأديب الروائي الأميركي"

- يا إلهي.. أنقذ روحي من هذا العذاب..!!

---

[٣٢] استند البرلمان في هذا القرار الذي يخالف وصية الميت إلى ما نصت عليه الجمعية التأسيسية من أن البانثيون هو المدفن الذي خصصه الوطن لعظماء الرجال

وكانت ممرضتان في مستشفى "واشنطون كول" تمسكان بإدجار ألن بو في هذه اللحظات الحرجة، وهو يجود بأنفاسه على سرير الموت، ويردد هذه العبارة الأخيرة التي تنطوي كلماتها المؤثرة على مأساة حياته المؤلمة، بما عاني فيها من متاعب العيش، وبلاء الفقر، ونوازل الأمراض والأحزان

وكان على سرير المرض يهذي هذيان المجنون، وقد أصيب باضطراب نفسي، جعله في آخر أيامه لا يعي ما يفعل أو يقول، وقد أثرت الكوارث التي نزلت به في جسمه، فأصابته بالضعف والهزال، وفي عقله فأضاعت منه سلامة التفكير والاتزان، فكان يرى ما لا يراه الناس، ويسمع ما لا يسمعه الناس، وأصبح شارد الذهن، ذاهلاً عن نفسه وعما حوله، وكان في بعض حالاته يفيق من ذهوله، ويرجع إلى اتزانه، فيكتب أو يقرأ، أو يردد بعض عبارات من قصصه. ثم يعود إلى مرضه العقلي، أو يعود المرض إليه، فيرى أشباحاً مخيفة تطارده، أو يرى شبح زوجته الحبيبة التي ماتت بمرض الدرن في عنفوان الشباب. فكان لمصابها أشد وقع في قلبه وجوارحه، وكان موتها أول كارثة نزلت به، وساقت إليه من الكوارث ما أدت به إلى هذه النهاية المؤلمة

فقد كانت زوجته الشابة "فرجينيا" تغني– ذات مساء– على قيثارتها بصوتها العذب الحنون لزوجها "إدجار" وجماعة من أصدقائه وفجأة، مدَّت يدها إلى عنقها.. فقد شعرت بألم جعلها تمسك عن العزف وتسعل سعالاً شديداً، ثم انبثق الدم من بين شفتيها، وتناثر على ثوبها الأبيض الأنيق!

إنها العلامة المشؤومة لمرض الدرن الخبيث الذي مات بسببه كثير من الأعزاء على نفس "إدجار"، ومن بينهم والدته

وأظلمت الحياة في عيني "إدجار" حين نزل بزوجته هذا الداء، وكتب إلى أحد أصدقائه يقول: "إنك لن تستطيع أن تتصور حالة الاحتضار التي أعيش فيها، منذ أن علمت بهذا الخبر المشئوم.. ذلك أنك تعلم أنني أحبها إلى حد العبادة"

وكان قد اقترن "بفرجينيا" ابنة عمته، ولما تبلغ من العمر الرابعة عشرة، وكان هو وقتئذ في الرابعة والعشرين، شاباً جذاباً مرهف الشعور، وكانت "فرجينيا" معجبة به أشد الإعجاب

واندفع "إدجار" يغرق أحزانه في الخمر.. وصار يهيم وحده ليالي طويلة في طرقات "فيلادلفيا" حزيناً يائساً كئيباً، وزاد من يأسه وكآبته ما كان يعانيه من قلة العمل وضيق العيش. وكان كلما تقدم إلى صحيفة وجد الأبواب موصدة في وجهه. وخيَّم البؤس الأسود على رأس الأديب الشاب حتى أصبح لا يملك ما يستطيع به أن يبتاع طعاماً أو فحماً يرد به غائلة البرد عن "فرجينيا" العزيزة التي ألح عليها السعال وهي ملقاة إلى جواره على سرير من القش

وكان أثناء ذلك يكتب قصة كنز غريب: قصة "الجعران الذهبي" وينظم قصيدة "الغراب" الخالدة، ذلك الغراب العجيب الذي ظل يطارده منذ الطفولة والذي يرمز في آن واحد إلى تشاؤمه من الموت والجنون!

وحاول "إدجار" عبثاً أن يبيع "قصيدة الغراب" إلى إحدى الصحف أو المجلات، ورآه أحد أصدقائه الصحفيين ذات يوم يخرج من مكتب رئيس تحرير صحيفة "جراهامز" وعلامات اليأس والمرارة بادية على وجهه، فأثَّر في نفسه منظر الشاعر البائس الحزين.. فقام الصديق بدعوة محرري الصحيفة وعمالها، وقال "لإدجار": "هيا أيها الصديق.. أسمعنا قصيدتك"

وما كاد "إدجار" ينتهي من تلاوة قصيدته حتى خلع أحد الحاضرين قبعته وطاف بها على الموجودين فجمع له بعض المال، وفي تلك الليلة عاد "إدجار" إلى زوجته وفي جيبه خمسة عشر دولاراً

***

ولقد اضطر "إدجار" إلى ترك "فيلدلفيا" وتوجه إلى "نيويورك" حيث نجح في الحصول على عمل في صحيفة "برودواي"، غير أن نقل "فرجينيا" وهي في هذه الحالة من الضعف المتزايد أثر في الأديب الكبير، وجعله يشعر بصدمة عصبية تامة.. كان يبكي طيلة الرحلة دون أن يرفع يداه عن يدي زوجته التي لم تعرف منه سوى حبه الزوجي، وحنانه الأخوي..

وكان كل ما تخشاه "فرجينيا" هي أن تترك زوجها المسكين الذي تحبه في غمرة عالم قاس شديد، فقد كانت تعلم تماماً مدى الخطر الذي كان يهدده بسبب الخمر التي كان الشاعر يحاول أن يدفن فيها أحزانه وآلامه

قالت له "فرجينيا" في حنان عميق: "حينما أموت سأصبح ملاكك

الحارس يا "إدجار"، وكلما ترديت في هاوية ارفع ذراعيك فوق رأسك، فسوف أكون هنا، إلى جوارك لأخف إلى نجدتك وآخذ بيدك"

وكان "إدجار" كلما سمع من زوجته ذلك الحنان الأليم، ازداد حزنه، وأكثر من شرب الخمر، وتعاطي "الأفيون"، وكان يعود إلى بيته في المساء مترنحاً شارد الذهن يتمتم بعبارات غامضة لا معنى لها. وكانت حماته "مسز كليم" تقضي الليل متنقلة بين فراشي مريضين: "فرجينيا" التي تحتضر، وزوجها الذي كان ينتحر في بطء

وقد ازدادت صحة الأديب ضعفاً، وأصبحت يداه تصابان بالرعشة أحياناً إلى حد أنه كان لا يستطيع الكتابة، فصار يملي مقالاته على "مسز كليم" التي استطاعت أخيراً أن تقلد خطه، لأن رئيس التحرير كان يصر على أن يقرأ خط "إدجار" نفسه ليتحقق من أن "بو" في حالة طبيعية وهو يكتب..!

***

وفي خريف عام ١٨٤٦م، ذهب "إدجار" وزوجته إلى قرية "فردهام" على مسيرة ثلاثين كيلو متراً من "نيويورك" على أمل أن تتحسن صحة زوجته، وكان قد أصبح مرة أخرى بلا عمل، وأصبحت "فرجينيا" في حالة تنذر بأن الحياة لن تمتد بها أكثر من بضعة أسابيع كانت تقضيها على سرير من القش.. وأثرت حالة الأديب النابغ في بعض أصدقائه والمعجبين به، فأنبأوا رئيس تحرير جريدة "نيويورك مورنتج اكسبريس" أن الروائي الشاعر

يعيش عيشة الضنك والبؤس.. فنظموا اكتتاباً جمعوا له عن طريقه ستين دولاراً

وانطلق "إدجار" بكنزه الصغير ليبتاع لزوجته الدواء، ولكن الأوان قد فات، وذهب إليها يحمل الدواء.. فوجدها في النزع الأخير.. وانتهت حياة الزوجة المسكينة في الثلاثين من يناير عام ١٨٤٧، وإحدى يديها بين راحتي "إدجار" والأخرى بين يدي "مسز كليم"

وكان آخر ما نطقت به: "يا أماه.. أقسمي لي على ألا تتركي إدجار وحده..!"..

ثم تمتمت بكلمة أخيرة من قصيدة الغراب فقالت: Never More تلك الكلمة التي تتردد في حزن عميق في كل بيت من أبيات قصيدة الشاعر الخالدة!.. وكانت "فرجينيا" وقتئذ في الرابعة والعشرين، وهي نفس السن التي ماتت فيه والدة "إدجار"، وبنفس المرض!

***

وفي ذلك الصباح الذي دفنت فيه "فرجينيا" لازم "إدجار ألن بو" الفراش بدوره مصاباً بحمى خطيرة أقعدته عن العمل والسعي لرزقه

وأخذت الهواجس والرؤى العجيبة تساور "إدجار"، ثم خفت عنه وطأة الحمى، وفي هذه الأثناء كتب قصته: "أريكا" وهي آخر قصة له، يقص فيها تكويناً غريباً للكون وطبيعة العالم!

وظلت شياطينه تطارده دون هوادة، حتى حاول الانتحار ذات مساء، ولكنهم تمكنوا من إنقاذه في اللحظة الأخيرة

وفي يونيو من عام ١٨٤٩ سافر "إدجار" إلى "فيلادلفيا" حيث كان عليه أن يقرأ قصته الأخيرة على نخبة مختارة، غير أن انتظار الحاضرين له قد طال دون جدوى، أما هو، فقد توجه فور نزوله من الباخرة إلى صديقه الرسام "جون سارتين" وقال له: "هناك أناس يتآمرون على قتلي.. إن ثلاثة من الرجال الملثمين يطاردونني من نيويورك، وأرجو أن تخبئني عندك في مخبأ أمين"

***

وطلب "إدجار" من صديقه الرسام أن يعيره موسى ليحلق بها شاربه حتى لا يتعرف عليه مطاردوه "الخياليون"، ولكن "سارتين" خشي أن يقطع "إدجار" رقبته فأدعى لأنه لا يمتلك موسى، واكتفى بأن قص له شاربه بنفسه بالمقص، فعاد الصفاء قليلاً إلى نفس "إدجار"، واستقل القطار في رفقة صديقه الرسام عائداً إلى "نيويورك" دون أن يلقى محاضرته المنتظرة!

واشتد المرض النفسي "بإدجار" فأصبح لا يعيش إلا في عالم الأشباح، ويقضي فترات طويلة مستغرقاً في شرود غريب!

وفي نهاية سبتمبر من عام ١٨٤٩، كان عليه أن يذهب مرة أخرى ليلقى محاضرته في "فيلادلفيا"، ولكن طال انتظارهم له في هذه المرة أيضاً

دون جدوى!

واختفى خمسة أيام كاملة حتى لم يدر أحد أين يوجد "إدجار ألن بو" أكبر أدباء أمريكا، وأخيراً عثر عليه أحد رجال الشرطة ملقى على أحد الأرصفة في مدينة "بالتيمور" ولحيته لم تحلق منذ عدة أيام– وكان شارد الذهن ذاهلاً بسبب الرؤى المخيفة، حتى اضطر أصدقاؤه إلى نقله في الحال إلى مستشفى "واشنطون كول" وهو في أشد حالات اضطرابه النفسي ومرضه العقلي

وكان "إدجار" يردد في هذيانه نصاً من خاتمة قصته "آرثر جوردن بينم" يقول فيه: "ولكن.. في طريقنا، ظهر فجأة شبح إنسان ملثم، حجمه أكبر بكثير من حجم أي ساكن لهذه الأرض، وكان لون بشرته أبيض ناصعاً كالثلج.."

***

ولم يكد ينقضي على دخول "إدجار" المستشفى يوم واحد حتى فاضت روحه في تمام الساعة الخامسة من صبيحة يوم ٧ أكتوبر عام ١٨٤٩ وهو يردد في ألم: "يا إلهي.. أنقذ روحي من هذا العذاب.."

وهكذا انتزع الموت "إدجار ألن بو" من بين أشباحه وهواجسه وهو وحيد على سرير حقير في المستشفى، ولم يعش أكثر من عامين بعد رحيل زوجته مصدر وحيه والهامه، وبموته انقشعت اللعنة المشئومة التي ظلت

تلاحق أسرة "بو" والتي نزلت على رأس "إدجار"

وبعد موته بيومين اثنين، جاءه خطاب من فرنسا فتحته "مسز كليم" كان مرسله يلتمس في تواضع "الأذن بأن تترجم إلى الفرنسية إحدى القصص التي كتبتها أعظم شخصية روائية عرفتها أمريكا"!..

وكانت هذه الرسالة، تحمل توقيع الشاعر الكبير "شارل بودلير"!

الكسندر بوشكين "الشاعر الروائي الروسي"

وسقط بوشكين طريحاً على الأرض ينزف الدم من جنبه، وينساب على الثلج، حتى كوَّن بركة دموية حمراء.. وقد أغمى عليه، وغاصت فوهة مسدسه بجواره بين الثلوج، فظن من حوله أنه فارق الحياة، ولكنه ما لبث أن أفاق من إغمائه، وصاح يقول لصديقه "دانزاس" الذي أسرع إليه، وقد أذهلته المفاجأة:

– انتظر، فلا يزال في وسعي أن أصوب طلقتي إليه..!

فأعطاه دانزاس مسدساً آخر أطلقه الشاعر على غريمه "داتنس" وقال له وهو يراه يسقط بدوره:

– هل قتلته؟

فأجابه دانزاس:

- كلا.. ولكنك جرحته في صدره وذراعه..!

فقال بوشكين:

- هذا شيء غريب، فقد كنت أتمنى أن يبعث موته في نفسي السرور. ولكنني أشعر الآن بأن ذلك لم يتحقق. وعلى أية حال، فسوف نستأنف المبارزة بعد أن يتم لكل منا الشفاء

وسكت بوشكين، إذ كانت إصابته شديدة بالغة، والدم ينزف من جرحه بغزارة.. ثم نقل فيرفق على زحافة إلى بيته، حيث كانت زوجته "ناتاليا" تطرز رداء لها في غرفة الجلوس. فما كادت تراه محمولاً مضرجاً بدمائه حتى سقطت فاقدة الوعي..!

وكان بوشكين قد التقى بالآنسة "ناتاليا جو نتشاروف" لأول مرة عام ١٨٢٩ في حفل راقص، كان القيصر "نيقولا الأول" من بين حاضريه. وما كادت عينا الشاعر تقعان عليها وهي واقفة تبتسم عن يمين القيصر حتى تعلق بها قلبه وأدرك على الفور أنها شريكة حياته.. وقبل أن تنتهي السهرة كان قد اتخذ لنفسه قراراً في الأمر: ففي اليوم التالي، سيتقدم رسمياً ليطلب يد الآنسة "ناتاليا جو نتشاروف"، فماذا تهم حريته وفيم تعنيه حياة المغامرة إذا ما قورنت بالاستحواذ على هذا الجمال الكامل، هذه الفتاة التي لا نظير لها والتي فتنت القيصر نفسه؟

***

وقد كان بوشكين وقتئذ في الثلاثين، وكانت هي في السادسة عشرة، فتاة رقيقة كالزهرة الباسمة، ذات جمال رائع، لها ولع بحياة المجتمع وتعشق الحفلات الراقصة حيث كانت تأسر بجمالها أنظار جميع الرجال!

ولم يكن يخالج السيدة "جو نتشاروف"– والدة ناتاليا– شك في أن ابنتها سوف تظفر عاجلاً بزوج ثري نبيل، ولم تكن الفتاة من جانبها تقرأ الشعر، ولم تكن قد أعجبت بعد بروائع بوشكين التي ظهرت متتابعة خلال عشر سنوات، من "روسلان ولودميلا" إلى "بوريس جودونوف" والتي كانت تدر على الأديب الشاب دخلاً لا بأس به، هذا فضلاً عن أن القيصر نفسه– على ما يبدو– كان يشمله برعايته

وفي اليوم التالي.. ذهب "الكونت تولستوي" إلى بيت الأم، نائباً عن "ألكسندر سيرجيفتش بوشكين" ليطلب له يد الآنسة "ناتاليا جو نتشاروف"، وكانت الأم تؤثر أن يكون زوج ابنتها من ذوي الجاه والثراء، كأن يكون وزيراً، أو حاكماً، أو مستشاراً على الأقل. ولهذا، لم يلق هذا الطلب ترحيباً لديها لأول مرة ولزمت جانب الحذر والتردد، ولكنها مع ذلك لم ترفض بوشكين صراحة، وإنما أرادت أن تمسك العصا من منتصفها وآثرت التريث، ومن ثم جاء ردها لا منطوياً على الرفض ولا على القبول الصريح، وقالت للكونت: "إن ناتاليا صغيرة للغاية.. ولهذا فعلينا أن ننتظر، وأن نتذرع بالصبر"

وجاءها في اليوم التالي رسالة من الشاعر الشاب يقول فيها:

"أرى لزاماً على أن أكتب إليك الآن وأنا جاث على ركبتي، ودموع الشكر والاعتراف بالجميل تفيض من عيني، بعد أن جاءني الكونت تولستوي بالجواب.. أن جوابك يا سيدتي ليس رفضاً وإنما أنت تسمحين لي بالأمل". وقد علمت منه الأم أنه سافر من موسكو في الليلة السابقة إلى القوقاز

وبعد فترة تردد دامت أكثر من عام، وافقت السيدة "جونتشاروف" أخيراً على خطبة ابنتها إلى "ألكسندر بوشكين"

***

ولأول مرة في حياة بوشكين الحافلة بالمحن والصعاب، ذاق الشاب طعم الحياة الزوجية بالرغم مما كان يعانيه من ضائقة مالية اضطرته إلى رهن حصته من أملاك والده في "بولدينه" حتى يستطيع تغطية نفقات حفل الزواج وتهيئة مسكنه الجديد. وكان إحساسه بالسعادة عميقاً إلى حد أنه كتب إلى صديقه الشاعر "بليتنيف" يقول: "إنني سعيد في حياتي الجديدة سعادة لا توصف، وأمنيتي الوحيدة هي ألا يتغير شيء في نظام معيشتي بالبيت، إذ أنني لا أتوقع خيراً مما أنا عليه، ولست أبالغ إذا قلت لك إنني أحس كأنني ولدت من جديد"

وأقام بوشكين مع زوجته بادئ الأمر في موسكو، إلا أن حماته كانت سيدة سليطة اللسان، كثيرة المطالب والرغبات، تثير المشاكل، وتخلق الخلاف من لا شيء، وكان يطيب لها أن تحرض ابنتها "ناتاليا" على زوجها

الشاعر، وأن توجَّه إليه سهام نقدها، وتكيل له الذم والعبارات الجارحة، فكان طبيعياً أن يضيق صدر بوشكين بهذا التدخل الشاذ في حياته الشخصية، وكتب إلى صديقه "بليتنيف" يقول: "إنني أعيش هنا كما تريد حماتي، لا كما أريد أنا!".. ثم فرَّ بزوجته إلى بطرسبرج وأقام مؤقتاً بالقرية القيصرية

ولشد ما كان بوشكين يتوق وقتئذ إلى حياة هادئة حافلة بالعمل الفكري والتأليف المفيد، ولكن قدر له أن يقاسي المتاعب والآلام على الدوام. فلما انتقل من موسكو إلى بطرسبرج أحاطه القيصر بطوق جديد من عنايته، فألحقه بمنصب بوزارة الخارجية، وأظهر له كثيراً من ألوان التودد والمجاملة. والواقع أن هذا التلطف الذي أبداه القيصر نحو الشاعر الشاب لم يكن موجهاً إلى شخصه مباشرة، فقد كان نيقولاً الأول لا يرتاح في قرارة نفسه إلى نزعات بوشكين التحررية، وإنما كان الباعث عليه اهتمام القيصر بزوجة الشاعر: الحسناء "ناتاليا جو نتشاروف"

وفي عام ١٨٣٤، منح القيصر "بوشكين" لقب ضابط في البلاط، وذلك حتى يضمن تردد "ناتاليا" الجميلة على حفلات البلاط الراقصة، وحتى يحكم رقابته على الشاعر الأديب في كل وقت

وقد جرت العادة في البلاط الروسي وقتئذ أن يمنح القيصر طائفة من أبناء النبلاء الذين تتراوح أعمارهم بين السابعة عشرة، والثانية والعشرين لقب "ضابط البلاط" كانت مهمتهم التجول في قصر "أنيتشكوف" في

زيهم الرسمي، وحضور المآدب والحفلات في كل مناسبة، ومراقصة سيدات البلاط وزوجات رجال الحاشية، فلا غرابة إذن في أن يسخر هؤلاء الفتيان من الشاعر الذي يبلغ من العمر خمسة وثلاثين عاماً حينما ظهر في البلاط بلباسه الضيق المقصب وسيفه الذي يجرُّه على الأرض، وكتب الشاعر يومئذ في مذكراته يقول:

- لقد انقضت على ثلاثة أيام وأنا ضابط في البلاط.. إن هذه الوظيفة لا تليق بسنِّي، ولكن ما العمل إذا كان القيصر يريد أن يشاهد "ناتاليا" وهي ترقص في قصر "أنيتشكوف"؟..

***

وضاق الشاعر ذرعاً بحياة البلاط، فقدَّم استقالته من منصبه فرفض القيصر قبولها.. كل هذا و"ناتاليا" لا تزال ترقص وتهوى حفلات القصر، ثم أخذت الديون تتراكم على بوشكين ودخل الشاعر التحرري في صراع مقنَّع قاس مع بعض الوزراء وذوي النفوذ.. وأراد أخيراً أن يرحل إلى الريف طلباً للراحة والهدوء حتى يستطيع أن ينقطع بعض الوقت الكتابة والتأليف، فرفضت "ناتاليا" أن ترافقه ومكثت في موسكو!..

وفي الريف، استطاع بوشكين أن يضيف إلى سلسلة روائعه السابقة عدداً من أهم مؤلفاته التي جدت الأدب الروسي، فكتب وقتئذ: "أوجين أو نيجين Eugène Onèguine، و"الفارس البرونزي"، و"الديك الذهبي"، و"السيدة البستونية"، وغير ذلك.. وفي عام ١٨٣٦، أتم كتابة

روايته الأخيرة "ابنة القائد" التي بلغت قمة المجد الأدبي.. كل هذا و"ناتاليا" لا زالت تلهو وترقص!

***

وكانت "ناتاليا" قد تعرَّفت في ذلك الوقت بشاب فرنسي في الرابعة والعشرين من عمره يدعى "جورج دانتس" قدم إلى العاصمة الروسية هارباً من فرنسا أثر ثورة عام ١٨٣٠، وواتاه الحظ في بطرسبرج فألحق بالحرس القيصري، إذ كان شاباً وسيم الطلعة رشيق الحركات يجيد فنون الرقص والحديث.. ولم يمض وقت طويل حتى تعرف "دانتس" إلى البارون "هيكرن" السفير الهولندي في بطرسبرج، وسرعان ما توثقت بينهما أواصر الود والصداقة. ولما كان السفير عقيماً لم ينجب أولاداً، فقد تبنى "دانتس" ومنحه لقب أسرته فصار يدعي "البارون دانتس هيكرن" والواقع أن السفير كان رجلاً غامضاً ملتوياً بارد الأعصاب لا يضمر للشاعر بوشكين أية مودة

وما كاد بصر "دانتس" يقع على "ناتاليا" حتى أعجب بها من أول نظرة، وراح يراقصها ويتودد إليها ويلاحقها في قحة وإلحاح، فلم تمض أيام حتى أخذ خصوم بوشكين ينشرون الشائعات حول زوجة الشاعر والضابط الفرنسي الوسيم

ولم يكن خافياً على البارون السفير أن ابنه بالتبني قد هام حباً بزوجة الشاعر فعزم على أن يخلصها له بأي ثمن، ولكن "ناتاليا" قاومت، وجاءت

الشائعات تترى إلى أسماع بوشكين.. وتتابعت الرسائل الغفل من التوقيع تشير إلى زوجته بأصبع الاتهام، فثارت أعصاب الشاعر الأديب الذي كان يحب زوجته حب عبادة،ويغار على سمعتها من النسيم، وأظلمت الدنيا في وجهه وأخذ يفكر مهموماً في وسيلة يدافع بها عن شرفه، وأية وسيلة يمكن أن تنقذ هذا الشرف غير الدم؟

وخشى السفير مغبَّة الأمر.. فأسرع بتزويج "دانتس" من شقيقة "ناتاليا" تغطية للفضيحة المتوقعة، غير أن هذا الزواج لم يهدئ من ثائرة بوشكين

***

وفي اليوم الرابع من شهر نوفمبر عام ١٨٣٦، تلقى الشاعر رسالة بالبريد غفلاً من التوقيع، تعمد مرسلها إثارة شعور بوشكين وإضرام نار الغيرة في قلبه، وقد جاء بالرسالة ما يلي:

"اجتمع القواد والفرسان العظام لفرقة حملة القرون السامية برياسة رئيس الفرقة السيد ناريشكين وقرروا بالإجماع انتخاب الكسندر بوشكين نائباً لرئيس فرقة حملة القرون، ومؤرخاً لتلك الفرقة"

و"ناريشكين" هذا الذي جاء ذكره في الرسالة كان زوجاً لحظية القيصر الكسندر الأول، وقد أراد موسلو الرسالة من ذكره بتلك الطريقة الساخرة أن يعرضوا بشرف الشاعر، والتلميح إلى أن زوجته "ناتاليا" إن

هي إلا محظية لنقولا الأول، كما كانت زوجة ناريشكين محظية لاسكندر الأول!..

وكان بوشكين مقتنعاً تمام الإقتناع بأن البارون هيكرن هو الذي أوحى بإرسال هذه الرسالة الشائنة.. ولذا عقد العزم على دعوة السفير نفسه إلى المبارزة، غير أنه أدرك أن مركز هيكرن الدبلوماسي وكبر سنه يتنافيان مع شروط المبارزة، ولكن ما العمل؟.. أيتحدى "دانتس"؟.. كلا، فإن هذا الضابط الفرنسي الرقيع المطرود سوف ينتحل شتى الأعذار لكي يتحاشى القتال!

واهتدى بوشكين في النهاية إلى وسيلة تحقق له أغراضه، فجلس إلى مكتبه يحرر إلى الصغير خطاباً مملوءاً بالشتائم والإهانات المقذعة التي لا يمكن أن يرد عليها وأن تغسل إلا بالدم. وقد كتب الشاعر في رسالته يقول:

"سيدي البارون، فلتسمح لي أن أستعرض ما حدث. إنني أعلم بسلوك ابنك منذ مدة طويلة، وقد اكتفيت بدور المراقب، مستعداً للتدخل في الوقت الذي أعتبره مناسباً، ثم وقع حادث ساعد لحسن الحظ على أن يأتي بالحل للمشكلة. والواقع، أن هذا الحادث لو كان قد وقع في أي وقت آخر لاعتبرته حادثاً مشئوماً. وقد وصلتني عدة رسائل خالية من التوقيع، فأدركت أن الفرصة قد أصبحت سانحة. وأنت بالطبع تعرف بقية ما حدث. ولقد أجبرت ابنك على أن يمثل دوراً يدعو للرثاء، حتى أن

زوجتي لم تتمالك نفسها من كثرة الضحك بعد أن أدهشها جبنه ووضاعته!..

"وإنني مضطر إلى الاعتراف يا سيدي البارون، بأن دورك في هذا الموضوع لم يكن دوراً لائقاً.. فإنكن وأنت تمثَّل أحد الرؤوس المتوجة، قد تصرفت من الوجهة الأبوية تصرف القواد للسيد الصغير: ابنك!.. ويبدو أن كل تصرفاته الملأى بالأخطاء كانت بايعاز منك. فأنت بلا شك الذي أمليته ما كتب من أشياء تدعو للأسف. وأنت، مثل أية امرأة فاجرة عجوز، الذي كنت تتربص في كل ركن مظلم لزوجتي لتحدثها عن غرام صبيك، وحينما أصيب بالجدري واضطر إلى ملازمة منزله، قلت أنه كان يموت بسبب حبه لها، وقلت لها: ردي إليَّ ولدي!..

"ويمكن أن تفهم من هذا جيداً، إنني لا يمكن أن أسمح لأسرتي بعد كل ما حدث بأن تكون لها أدنى صلة بأسرتك. ولقد كان على أساس هذا الشرط أن وافقت على أغفال هذا الموضوع القذر، حتى لا ألوَّث شرفك في عين بلاطنا وبلاط بلادك، كما كان في وسعي وفي نيتي أن أفعل، ولا يمكن أن أسمح له بأن يخدش مسامعها بنكات ثكنات الحرس، وبأن يمثل أمامها دور العاشق المخلص التعس، في حين أنه ليس إلا سافلاً وضيعاً جباناً. ولهذا أجدني مضطراً إلى أن أتوجَّه إليك، لأطلب منك أن تضع حداً لكل هذه المناورات، إذا كنت تريد أن تتحاشى وقوع فضيحة أؤكد لك أنني لن أتراجع عن إثارتها في هذه المرة. وأنه ليشرفني، يا سيدي البارون، أن أكون خادمك الخاضع المطيع. ألكسندر بوشكين"

وقبل البارون "هيكرن" التحدي، وأناب عنه ابنه بالتبني "جورج دانتس" لمبارزة بوشكين في مدى أربع وعشرين ساعة..

***

وتم الاتفاق على أن تكون المبارزة في السابع والعشرين من شهر يناير، عام ١٨٣٧م، وكان بوشكين هادئاً قبيل المبارزة، فأخذ يراجع بعض الأعمال المتعلقة بمجلته الأدبية كأن شيئاً لم يحدث، وأجب على عدة رسائل وردت إليه. وفي الساعة المحددة، أقلت زحافتان بوشكين وشاهده "دانزاس"- ودانتس وشاهده- وتوجهت الزحافتان إلى ضواحي بطرسبرج، حيث وقفتا عند مكان يدعى بالنهر الأسود، وهناك هبط الأربعة، وأخذوا يسوون بأقدامهم المساحة المغطاة بالجليد الكثيف، ويقيسون المسافة التي سوف يطلق منها كل من بوشكين ودانتس النار على صاحبه..

وألقى الشاهدان بمعطفيها على الجليد، ليحدد كل منهما لموكله الحاجز المعين لإطلاق النار.. ثم بدأ كل من المتبارزين يحشو مسدسه. ونادى الشاعر قائلاً: "ألم تنتهيا بعد؟.." ..لقد كان نافذ الصبر لأن الاستعداد كان يثير أعصابه، وقد أوشكت أصابع يده أن تتجمد من شدة البرد.

وأخيراً، نادى عليه شاهده دانزاس طالباً منه أن يتقدم، وأوقفه على بعد خمس خطوات من معطفه

ورفع بوشكين بصره لأول مرة إلى الرجل الواقف أمامه.. لقد تمكن أخيراً من أن يجيء به ليضعه على بعد عشرين خطوة من مسدسه!.. ونظر بوشكين إلى "دانزس" يستحثه على الإسراع بإعطاء إشارة البدء، ثم رآه وهو يشير بقبعته على مهل، فسار نحو الحاجز وهو يرفع مسدسه. وفجأة سمع صوت طلق ناري، وفي الوقت نفسه أحس بوشكين بأن شيئاً قد صدمه في جنبه، كما لو كان ضربة يد شديدة. ومادت الأرض تحت قدمي الشاعر، وأحس بأنه يسقط في هوة سحيقة مظلمة

وأسرع إليه "دانزاس"، وفجأة ثاب بوشكين إلى رشده، وكان قد خيل إليه بأن قروناً طويلة قد مرت عليه منذ سقطته، وحاول جاهداً أن يرفع جسمه من على الأرض مستنداً إلى يده اليسرى، ثم قال لدانزاس: "انتظر، فلا يزال في وسعي أن أصوب طلقتي!"

فأعطاه "دانزاس" مسدساً آخر أطلقه الشاعر على غريمه، وقال وهو يراه يسقط بدوره:

- هل قتلته؟

فأجابه "دانزاس" بقوله:

- كلا، ولكنك جرحته في صدره

فتمتم بوشكين يقول في إعياء:

- هذا شيء غريب، فقد كنت أتمنى أن يبعث موته في نفسي السرور.. ولكنني شعر الآن بأن ذلك لم يتحقق!.. وعلى أية حال، فالأمر لدي سواء، فسوف نستأنف المبارزة بعد أن يتم لكل منا الشفاء!

***

وكان الدم الذي أنساب من جرح الشاعر قد كون على الثلج بركة صغيرة حمراء يتصاعد منها البخار، فنقل في رفق على زحافة إلى بيته حيث كانت زوجته "ناتاليا" تطرز في انتظاره بغرفة الجلوس، فما كادت تراه محمولاً ومضرجاً بدمائه حتى سقطت فاقدة الوعي عند قدمي "دانزاس"!

وعاني بوشكين آلاماً مبرحة في ساعاته الأخيرة، غير أن الشاعر العظيم كان يتحملها في رجولة وهدوء. وظل القيصر نيقولا يضايقه حتى وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، إذ أرسل إليه خطاباً يطلب فيه أن يقوم بطقوس الكنيسة الأرثوذكسية، وإلا فإنه سوف يحرمه من معاش زوجته وأطفاله!

وقبل أن يلفظ بوشكين نفسه الأخير، طلب العفو من أصدقائه الذين يحيطون به ثم طبع على جبين زوجته قبلة الوداع، وودع أطفاله، وفي الساعة الثانية والدقيقة الخامسة والأربعين من بعد ظهر اليوم التاسع والعشرين من شهر يناير عام ١٨٣٧، أسدل الستار على حياة العبقري الخالد..

ولما بلغ خبر وفاته القيصر نيقولا الأول، قال شامتاً:

- لقد كنت أتوقع له هذه النهاية!..

وظل جثمان الكاتب الكبير معروضاً في بيته ثلاثة أيام، واحتشد عند مدخل البيت جمع غفير من الناس يربو عددهم على مائتي ألف شخص، كلهم يريدون أن يلقوا على جثمان الشاعر نظرة الوداع الأخيرة

وحينما أدرك القيصر أن دفن جثمان بوشكين في بطرسبرج أو في موسكو سوف ينجم عنه كثير من المتاعب، أصدر أمره بنقل جثمانه سراً إلى دير "سفاتوجورسكي" بالقرب من قرية ميخايلوفسك

وفي صباح اليوم الأول من فبراير سنة ١٨٣٧، شاهد جماعة من الفلاحين في ضواحي بطرسبرج، زحافة تحمل تابوتاً تجرها جياد أربعة، وهي تجد السير تجاه الجنوب، وتعدو في أثرها جماعة من الحرس المسلح!

ليو تولستوي "الكاتب الروسي المفكر"

"الفلاحون.. الفلاحون.. هم الذين يجب أن تنظروا إليهم، وهم يموتون..!"

ثم استغرق تولستوى في غيبوبة طويلة، وبعد أن تنبه قليلاً جلس في فراشه وأخذت ابنته ألكسندر، وابنه سرج يصلحان له الوسائد تحت رأسه، وسألاه:

- هل تريد شيئاً؟ ..

فقال لهما بصوت فيه بقية من قوة، وبعبارة مفهومة:

– لا.. لا.. أريد فقط أن أنبهكم إلى أنه يوجد في العالم خلائق كثيرة غير ليو تولستوي.. أنكم لا تنظرون إلا إلى ليو تولستوي..!

وكانت هذه كلماته الأخيرة، وهو يعاني سكرات الموت بعد أن عاني أياماً آلام الحمى التي انتابته في رحلته إلى "شاموردينو" سنة ١٩١٠، وهو في الرابعة والثمانين من العمر. وكان قد هجر بيته هرباً من زوجته العجوز التي اشتد الخلاف بينها وبينه في أواخر حياته، فأراد أن يعيش بعيداً عنها في هدوء. فنهض مبكراً وهي نائمة دون أن يشعرها بعزمه على السفر، ومشى في سكون إلى حجرة ابنته ألكسندر، ودق الباب، فاستيقظت، فرأت والدها واقفاً أمامها، يرتدي ملابسه، وفي قدميه حذاء غليظ، فقال لها:

– أنا ذاهب.. أنا ذاهب نهائياً يا ألكسندرا.. ساعديني في إعداد حاجاتي..!

فأسرعت ابنته إلى مساعدته، ولم تكن وحدها.. كان معها طبيبه الدكتور دوشان ماكوفنسلي، وابنة عمها فارياً. وكانوا يعملون في صمت، لا يتبادلون غير كلمات متقطعة، وبصوت خافت جداً..

وتولت ألكسندرا ترتيب أدواته ومخطوطاته وكتبه، وتولى الدكتور دوشان إعداد الأدوية، وعنيت فاريا بالثياب والأمتعة. وقد أشار تولستوي

إلى المخطوطات، وقال لابنته: "احتفظي بها جيداً"، فسألته: "والمذكرات؟.."

فأجاب: "أخذتها معي"!

وكانت حركاته هادئة.. ولكن نبرات صوته كانت تنم عن تأثره واضطرابه.. والتفت إلى ألكسندر وقال لها:

- يجب أن تبقى هنا، ساشا... وبعد بضعة أيام سأبعث في طلبك لكي توافيني في المكان الذي أكون قد اخترته للإقامة فيه... قد أذهب أولاً إلى شاموردينو، عند أختي ماشا

شكت الأسرة في أنه ذهب إلى شاموردينو، فطلبت زوجته من أحد أفراد أسرته أن يلحق به إلى هناك، ويحاول أن يعيده إلى البيت

في ٢٨ أكتوبر وصل تولستوي إلى دير أوبتينو.. ووصف رحلته بهذه العبارات: "نمت في منتصف الساعة الثانية عشرة.. غفوت إلى ما بعد الثانية. ولما استيقظت، سمعت– مثل الليالي السابقة– أصوات أبواب تفتح ووقع أقدام.. في الليالي السابقة لم أنظر إلى ناحية الباب، لكنني في هذه المرة نظرت... فرأيت نوراً في حجرة مكتبي، وخيل إليَّ أن يداً تعبث بأوراقي... إنها زوجتي تبحث عن شيء.. ربما كانت تقرأ شيئاً... في الليلة الأخيرة– كانت قد ألحت علي بألا أقفل بابي بالمفتاح.. إنها تترك بابي غرفتها وغرفتي مفتوحين لكي تراقب حركاتي كلها

"إنها تريد أن تعرف كل حركة وكل كلمة تصدر مني... سمعت أصواتاً أخرى.. الباب يفتح.. إنها تمر.. هذا يثير في نفسي الاشمئزاز والاستنكار.. حاولت أن أنام مرة أخرى، ولكن بدون جدوى.. قضيت ساعة كاملة أتقلب يميناً ويساراً.. ثم أشعلت الشمعة وجلست.. فتح الباب ودخلت زوجتي صوفياً اندريفنا بحجة السؤال عن صحتي، وأظهرت دهشتها لرؤية الشمعة مضاءة... الاستنكار والاشمئزاز يبلغان الذروة في نفسي، أكاد أختنق.. وصل نبض إلى ٩٧..

"لا أستطيع البقاء ممدداً.. وفجأة، قررت نهائياً أن أذهب.. كتبت لها رسالة.. بدأت أعد حوائجي الضرورية، لكي أهرب في أسرع وقت.. أيقظ ساشاً.. ثم دوشان، فساعداني في إعداد الحوائج.. إنني أرتعش خوفاً من أن ترانا، من أن تثير مناقشة... من أن تنتابها نوبة عصبية!"

ثم واصل وصف هربه.. كيف خرج.. خوفه من المطاردة.. انتظاره في المحطة وهو يرتعد.. وأخيراً كيف تحرك القطار فهدأت مخاوفه... والسفر بالدرجة الثالثة، المزدحمة بجماعة من عامة الشعب... ثم الوصول إلى أوبتينو

أما ألكسندر، فقد تركت والدتها في رعاية الأسرة، وغادرت البيت للحاق بأبيها في شاموردينو، وصحبتها فاريا ابنة عمها في هذه الرحلة

***

وقد وصفت ألكسندرا هذه الرحلة، وساعات والدها الأخيرة، فقالت:

- كانت عمتي ماري (ماشا) تقيم في شاموردينو مع أبتها ليزا.. فاستقبلنا أبي بترحاب ودي وإدراك لحالته النفسية، أنه يشعر بالراحة والهدوء مع أخته وابنتها. ولم تكن الصدفة وحدها هي التي جعلته، في تلك اللحظات الدقيقة من حياته، يفكر في الالتجاء إلى شخص تجمعه به رابطة الدم

كان أبي معجباً بقوانين الأديرة والجو الهادئ الذي يسود فيها وقد تحدث طويلاً إلى رهبان أوبتينو وراهبات شاموردينو

كان يود البقاء في شاموردينو.. وقد عثر هناك على بيت منعزل عرض عليه بإيجار لا يزيد على ثلاثة روبلات في الشهر.. وكان يرغب في استئجاره لكن الأخبار والرسائل التي حملتها إليه معي أقلقته وأزعجته

كنت اجلس مع عمتي ماشا في حجرتها بالدير.. وأتحدث إليها في ذلك الجو الدافئ. وكان أبي يصغى إلى حديثنا، ولكنه لا يشترك فيه.. وفجأة رأيت يديه تتقلصان على مساند المقعد. ثم نهض واقفاً، وأسرع إلى الحجرة المجاورة بخطوات ثابتة. وأدركت أنه قد اتخذ قراراً ما، بعد أن فكر فيه طويلاً. وبعد لحظة، ناداني فذهبت إليه. ولما دخلت قال لي:

- ابعثي بهذه الرسالة إلى والدتك

وكان نص الرسالة كما يلي:

- أمضيت يومين في شاموردينو وفي أوبتينو. وسأذهب إلى مكان أبعد منهما. ولا أذكر لك ذلك المكان لأنني أعتقد أن الفراق لابد منه، بالنسبة إليك وبالنسبة إلي.. لا تظني أنني هربت لأنني لا أحبك: فأنا أحبك وفي آن واحد أرثي لحالك بكل مشاعري.. غير أنه لا يسعني أن أفعل غير ما فعلت. فليكن الله في عونك يا عزيزتي. إن الحياة ليست لعبة يلهو بها الإنسان، ولذا فإنه لا يحق لنا أن نتخلص منها حسب أهوائنا، ولا يقل حماقة عن هذا أن نقيس الحياة بمقياس الزمن. فالشهور القليلة الباقية لنا من هذه الحياة قد تفوق في أهميتها جميع السنين الماضية. فيجب إذن أن نعيشها وفاقاً لما تقتضيه الظروف

"وفي اليوم التالي، عند الصباح، استأنفنا السير. ولم يتمكن أبي من أن يودع أخته. بل لم ينتظر، وحول العربة الثانية التي طلبناها لنقل أمتعتنا إلى محطة كوزلسك.. فقد كان عصبياً، متسرعاً، مثل اليوم الذي حزمنا فيه الأمتعة بالبيت

"ركبنا القطار في اللحظة الأخيرة، بدون أن نعلم إلى أين نحن ذاهبون. وتمكنا، فاريا وأنا، من وضع الحقائب في القطار بصعوبة

عرف الناس أبي وانتشر في عربات القطار خبر وجوده فيه. بسرعة فائقة. وأحاطنا الموظفون بمظاهر التكريم، وأعطونا حجرة خاصة.

وساعدوني في إعداد كرات من الشعير لأبي، وأقاموا بالباب حراسة مشددة، ليمنعوا عنا تطفل المسافرين

بعد الساعة الثالثة مساء ، ناداني أبي: كان يرتعش.. فألقيت عليه غطاء، وأخذت درجة حرارته ترتفع.. كان محموماً، فشعرت بإعياء شديد، واضطررت أن أجلس، وتولاني العناء واليأس

أدرك أبي حالة الذعر التي استولت عليَّ.. فبحث عن يدي وضمها بين يديه. وقال:

– احتفظي بشجاعتك، ساشا.. فكل شيء على ما يرام.. كل شيء على أحسن ما يرام!

عندما وقف القطار في أول محطة، أسرعت وجئت بماء ساخن. ونصحني الدكتور دوشان، بأن أقدم لأبي الشاي الساخن ممزوجاً بالنبيذ، ففعلت.. ولكن الرعشة بقيت كما كانت، والحرارة ظلت في صعود

وجاء وقت أدركنا فيه الحقيقة الواقعة، وهي أنه لم يعد بالإمكان مواصلة السفر، ونحن على تلك الحالة. وفي الساعة الثامنة مساء، وصل القطار إلى محطة تشييع فيها الأنوار، اسمها استابوفو.. فقررنا أن ننزل هناك

ذهب الدكتور دوشان لمقابلة معاون المحطة، وطلب منه أن يجد لنا مأوى لليل. ولم يكن في البلدة الصغيرة فنادق.. فقدم لنا معاون المحطة بيته لننزل فيه

اجتزنا المحطة وأنا أسند أبي، بين صفين من الناس الذين دفعهم حب الاستطلاع إلى الإحاطة بنا.. ولما عرفوا أبي حيوه برفع قبعاتهم، وكان يمشي بعناء وقد خارت قواه، ويحاول بجهد كبير أن يرد على تحيتهم برفع يده إلى قبعته

وما كدنا نخلع عنه ثيابه ونمدده في السرير، حتى غاب عن الوعي. وانتابته رعشة شديدة عمت الناحية اليسرى من جسمه، من وجهه إلى ذراعيه وقدميه. وبدا لنا أن النهاية تقترب، فأرسلنا في طلب طبيب القرية، فجاء.. وحقن أبي بمادة مقوية للقلب

وفي ٢ نوفمبر، عند الساعات الأولى من النهار، بدأت الحرارة تصعد بسرعة. وجعل أبي يسعل ويبصق دماً.. أن المرض يمزق الرئتين، فأرسلت برقية إلى أخي سرج هذا نصها: "الحالة خطرة.. أردت أن أخبرك أنت وثانيا.. وأخشى قدوم الآخرين"

كنت فعلاً أخشى قدوم والدتي!..

فإن دوشان تلقى في ذلك اليوم برقية تفيد بأن والدتي ذهبت إلى تولا، وإنها من هناك طلبت قطاراً خاصاً في الساعة الرابعة بعد الظهر، وسافرت به إلى استابوفو مع أخوتي وأحد الأطباء وإحدى الممرضات

وذعرت من الخوف..!

كيف السبيل إلى حماية أبي؟..

هل بلغ عدم التبصر بأفراد الأسرة كلهم حداً أصبحوا معه غير قادرين على إدراك الحقائق؟..

ولكن، لحسن الحظ، أسرع أخي سرج وسبقهم جميعاً.. فقد أدرك هو أن أية صدمة يلاقيها أبي ستكون قاضية عليه، لأن قلبه أصبح في حالة هبوط مخيف

وفي نفس اليوم، أرسل سرج إلى إخوتنا برقية يقول فيها إن حالة أبي في تحسن، وإن كان القلب لا يزال ضعيفاً، وأضاف أن مجيء والدتي سيكون له لدى أبي وقع قاتل!

ولم يكن أبي يعلم، في تلك اللحظات العصبية، أن خبر مرضه قد انتشر في كل مكان، وطاف حول العالم، وأن الأسرة كلها تجتمع في استابوقو..

فقد عسكر حول المحطة جيش من المصورين. ووقف الصحفيون يرقبون، ويتسقطون الأخبار، ويتلقفون كل كلمة تخرج من بيت معاون المحطة الصغير..

أما نحن، فكنا نحيط بتولستوي ليلاً ونهاراً، ولا نسمع ولا نتتبع غير دقات قلبه وسير تنفسه

تناوب في نفوسنا الأمل واليأس.. تهبط الحرارة فيعاودنا الأمل، وترتفع الحرارة فيتولانا اليأس من جديد.. الرئتان أصبحتا مصابتين،

والقلب يخفق بصعوبة.. وحتى هبوط الحرارة أصبح دليلاً على أن الجسم لم يعد قادراً على المقاومة. وبعد أن كان التنفس سريعاً، أصبح متقطعاً

جعلنا نصلح وضع الوسائد تحت رأسه فسمعناه يتمتم: "الفلاحون الفلاحون.. هم الذين يجب أن تنظروا إليهم وهم يموتون!.."

مر يوم ٤ نوفمبر وأبي في شبه غيبوبة. كان يهذى.. يحاول أن يقول لنا شيئاً.. ثم يفقد كل حركة. كانت أصابعه وحدها، أصابعه التي لم يبق على عظامها غير الجلد، تتحرك باستمرار على الغطاء. أما نظره، من خلال عينيه الجاحظتين، فقد خيل إلينا أنه متجه إلى داخل نفسه لا إلى ما يحيط به، كأنه غارق في تأملات لا نستطيع إدراكها لأنها مستعصية

وفجأة، تمتم أيضاً: "البحث.. البحث.. دائماً البحث.."

ووصل أطباء من موسكو.. ولكن كل أمل كان قد اضمحل

***

في ٦ نوفمبر، جعل يلاطف جميع الذين كانوا حوله..

يقترب منه الدكتور دوشان، فيقول: "عزيزي دوشان.. عزيزي دوشان.."

نصلح فراشه، فأشعر بأن يده تبحث عن يدي.. ظننت مرة أنه يريد شيئاً يستند عليه، لكنه ضغط فقط على يدي مرتين. فغمرت يده بالقبلات، وتجالدت كي لا تنهمر دموعي

في اليوم ذاته، كنت جالسة مع ثانيا على طرف سريره. وفجأة، بحركة عنيفة رفع رأسه وجلس. فاقتربت وسألته إذا كان يريد أن نصلح له الوسائد أو يريد شيئاً.. لكنه قال بصوت فيه بقية من قوة وبعبارات مفهومة:

"لا.. لا.. أريد فقط أن أنبهكم إلى أنه يوجد في العالم خلائق كثيرة غير ليو تولستوي.. إنكم لا تنظرون إلا إلى ليو.."

تلك كانت كلماته الأخيرة، الموجهة إليَّ وإلى ثانيا..

وفي المساء، تفاقمت حالته.. أعطوه أوكسجيناً ليساعده على التنفس وحقنوه بالكافور.. فهدأ.. ونادى سرج:

– سرج.. الحقيقة.. أحب كثيراً.. إنهم..

وتراخت قواه.. فنام.. وتحسن تنفسه، وخيل إلينا أن الخطر قد ابتعد.. وذهب البعض إلى فراشهم.. وبقي المكلفون بالسهر ليلاً

وفي منتصف الليل، استيقظ الجميع..

كان أبي يلفظ أنفاسه الأخيرة!..

الفصل الثاني

رجال تصوير وموسيقى

فنسان فان جوخ
ولفجانج أماديوس موزار
لودفيج فان بيتهوفن

فنسان فان جوخ "المصور الهولندي"

وزار الفنان فنسان فان جوخ أخاه "تيو" وزوجته في منزله بباريس في يوليو عام ١٨٩٠م. وكان شقيقه في ذلك الحين يعوله ويعني به في مرضه الأخير، فأكدت له هذه الزيارة أنه ينبغي ألا يظل عبئاً على أخيه، فلما عاد إلى هولندا كتب إليه يقول:

– أنك عاونتني يا أخي كثيراً، وآثرت الفقر لتعولني. وأرى واجبي الآن أن أرد إليك ما أنفقت علي، أو أن أسلم الروح وأوثر الموت على الحياة..!

ثم عكف فنسان في النصف الثاني من الشهر على رسم لوحته الأخيرة الرائعة: "غربان تطير فوق حقل القمح"

وفي اليوم السابع والعشرين حمل أدوات الرسم ساعة الأصيل، وانطلق بها إلى حقل القمح الأصفر، وهناك في أعلى التل رفع وجهه إلى الشمس، وأطلق على صدره رصاصة من مسدس كان يحمله!..

ولم تصب الرصاصة قلب فنسان، فعاد إلى غرفته فوق مقهى "رافو" وقد عنى بربط أزرار سترته، حتى لا تفضح الدماء المتدفقة أمره. ومر من أمام السيد "رافو" صاحب المقهى، وكان جالساً مع زوجته في المدخل، فنظرت إليه المرأة في دهشة، ثم قالت لزوجها في قلق بعد أن اختفى فنسان داخل البناء:

– أرجو أن تصعد بسرعة لترى ماذا بالفنان الشاب..!

وكان فنسان قد انتابه مرض عقلي من جراء ما أصابه من الفقر واليأس وشقاء الفن والفنانين في ذلك الزمان، ولم يكن قد اتجه إلى العناية بالفن في أول نشأته، ولم تكن التربية الفنية في أول حياته هي وسيلته إلى الحياة

ولكن كل شيء حوله كان يدل على أن هذا الشاب الهولندي ذا الشعر الأحمر، الذي كان يعمل بائعاً للصور في محتف "جوبيل" بلندن، والذي كان في الثانية والعشرين من عمره سيكون له مستقبل حسن في فن التصوير. ولقد كان له عم هرم يملك نصف متاحف جوبيل في بروكسل وباريس وبرلين ولاهاي وأمستردام. ويقال أنه ينوي أن يوصي للشاب بكل

ما يملك. وكان له عم ثان له عدة حوانيت كبيرة لبيع الصور في بروكسيل، وثالث يملك أكبر متجر في هولندا بأسرها

ولكن "فنسان" وجد نفسه فجأة وقد فقد كل متعة في بيع الصور، فقد أحب لأول مرة في حياته فقوبل حبه بالامتهان.. وفي الليلة التي قال فيها لفتاته "أورسولا": "أتقبلين أن تكوني زوجتي؟.."

أجابته قائلة وقد اتسعت عيناها من الدهشة: "زوجتك! ..هذا محال، فأنا مخطوبة.. وخطيبي في "ويلز"!.." ثم أفلتت يدها من يده، ودارت على عقبيها وأضافت تقول في صوت كالهمس كان له في نفس الفتى وقع الصاعقة: "يا له من بائع صور أحمق.. أحمر الشعر!"

وأدارت هذه اللطمة رأس "فنسان"، إلا أن الألم– وهذا من دواعي العجب– قد أرهف إحساسه بالألم في نفوس الآخرين كما جعله لا يطيق النجاح الصاخب الرخيص

ولم يكد ينقضي شهر على هذا الحادث حتى نقض "فنسان" يديه من تجارة الصور وترك عمله في متحف "جوبيل"، وانتظم قسيساً في مدرسة لطائفة "النظاميين" (الميثوديست)، وكان تلاميذها من أحياء "لندن" الفقيرة، وفي بيوتهم عرف "فنسان" لأول مرة معنى الفاقة الحقيقة، فقد كانت الأسر تحشد كقطعان الماشية في غرف عارية باردة، وأفرادها ينتفضون من شدة البرد ووجوههم تنطق بالسقم والبؤس، وتذكر وهو ينصت إلى قصص تعاستهم قول أحد المفكرين: "إن الإنسان لم يخلق على

هذه الأرض ليسعد وحسب، ولا ليكون شريفاً فقط، ولكن ليقوم من أجل الإنسانية بمساع عظيمة، وليرتقى إلى مرتبة النبل"

فخطر للشاب أن من الخير أن يكون المرء "إنجيلياً" في مثل هذا الحي البائس..

وذات يوم من أيام الآحاد، كلف "فنسان" بأن يلقى عظة في كنيسة كبيرة على جمهور حاشد يضم نخبة ممتازة من الناس، فكان لصوته وحماسته وعيبه النافذتين وقع عظيم، وتمنى حينما التف حوله السامعون لمصافحته لو انه استطاع أن يحمل نجاحه هذا ليضعه في تواضع عند قدمي "أورسولا"ويشركها معه فيه، وانطلق يسير تحت وابل المطر حتى أتى بيتها فوجده غارقاً في الأضواء والمركبات مرصوصة أمام بابه، ووقعت عيناه على "أورسولا" مستندة إلى ذراع شاب نحيل طويل القامة، وهما واقفان بالباب والناس يخرجون وينثرون عليهما الأرز وهم يضحكون! فقفل الشاب راجعاً تحت المطر المنهمر ليحزم متاعه ويغادر مدينة "لندن" إلى غير رجعة

***

ولم ينقض وقت طويل حتى أدرك "فنسان" أن التربية الدينية لا تلائمه، وكان السؤال الذي يشغل باله ويضنيه في كل لحظة من لحظات الليل والنهار هو: هل ينبغي أن يكون قسيساً محترماً بارعاً؟ وما القول فيما ينشد من فعل الخير وتقديم العون للفقراء والمرضى والبائسين؟

واقترح عليه أحد أصدقائه أن يذهب لتحقيق آماله في منطقة البوريفاج وهي منطقة الفحم في بلجيكا، حيث يعمل المعدنون دائماً وهم في خطر من الغاز والانفجارات أو الفيضان، ويأخذون أجوراً لا تكاد تكفي لما يسد الرمق، ويعيشون في أكواخ بائسة ينتفض فيها أولادهم ونساؤهم أكثر العام من أثر البرد والحمى!

فذهب "فنسان" إلى "البوريفاج" منتدباً من قبل اللجنة الإنجيلية، ولم يترك كوخاً في البلدة إلا زاره مواسياً وحمل إليه الطعام، ولا مريضاً إلا عنى به وجلب له الدواء، ولا مكروباً إلا هون عليه وصلى معه، وكثيراً ما كان يبذل للعمال ما كان في جيبه من مال قليل، ولم يكن يخفى عليه إن هذا عبث لا جدوى فيه، إذ كان هناك مئات من الرجال والنساء والأطفال في "البوريفاج" يتضورون جوعاً أو يفتك بهم البرد والمرض!

وعاد الشاب ذات يوم إلى غرفته وهو يوشك أن يفقد عقله من جراء ما يحيط به من المآسي والآلام، فأجال بصره في أرجاء غرفته المريحة، وسريره الوثير، ثم ألقى نظرة على صوانه المليء بالملابس، وبدا له أن لديه من الطعام لوجبة واحدة أكثر مما عند هؤلاء المعدنين لمدة أسبوع كامل، فشعر فجأة بأنه منافق كذاب، وجبان أثيم، يعظ الناس ويزيِّن لهم فضائل الفقر وهو يعيش في رغد وسعة!

فجمع "فنسان" ما زاد عن حاجته من الثياب وقدمها إلى من هم أشد حاجة إليها، وانتقل إلى كوخ لا نافذة له ولا بلاط، تغشاه الريح إذا

ما هبت وتنفذ إليه الأمطار والثلوج، وأخذ يعيش كما يعيش عمال المناجم، فيأكل من طعامهم وينام على فراش كفرشهم، بل لقد دهن وجهه بتراب الفحم كي يبدو مثلهم، فأصبح أخيراً واحداً منهم وصار له الحق في أن يبلغهم تعاليم الإنجيل.. وكان ينفق أكثر مرتبه على غيره، وأضناه الجهد وقلة الطعام، فكان يروح ويغدو وهو محموم، وعيناه كأنهما جمرتان تتقدان، وأعصابه تكاد تتمزق، إلا أنه ظل متجلداً قوي العزيمة على الدوام

وذات يوم، حدث بالمنطقة حادث احترقت بسببه جلود ثلاثة من الأطفال واضطر "فنسان" إلى تمزيق سترته وملابسه الداخلية وقميصه، ثم سراويله ليتخذ منها جميعاً ضمادات يعصب بها جلود الصبية المساكين بعد أن دهنها بالزيت، فأعلنت "اللجنة الإنجيلية" أن مسلك "فنسان" "شائن وأخرق"، وقطعت عنه مرتبه بعد أن نهته عن الوعظ!

وهكذا أفلس الشاب مرة ثانية فوجد نفسه بلا عمل، ولا مال، وأصبح لا يدخل كوخاً، أو يواسي مريضاً، أو يكلم أحداً إلا فيما ندر.. بل شر من ذلك كله أنه فقد قوة روحه وقدرته على البدء من جديد!

***

وانقضت شهور ثم استيقظ شيء في نفس "فنسان"، إذ قال لنفسه أنه لا يمكن أن يكون عاجزاً كل العجز، وأن في وسعه أن يسهم على نحو ما في إسداء بعض الخير إلى الناس، ولكن.. كيف السبيل إلى ذلك؟

وكان الشاب في تلك اللحظة جالساً عند باب المنجم، فأخذ يرسم العمال وهم يخرجون، وأدرك فجأة في المساء وهو يعيد رسم ما صور أنه لا يزال يحن إلى عالم الصور، فعكف بعد ذلك على العمل، وعاد يدخل الأكواخ كما كان يفعل من قبل، وفي يده ورق وقلم في هذه المرة بدلاً من الإنجيل، وراح يرسم ويرسم، فصور الأسرة وهي جالسة إلى طعام العشاء، والزوجة وهي مائلة على القدر، والأطفال وهم يمرحون ويلعبون.. وانقضى عليه أحد عشر يوماً وهو عاكف على الرسم، عاشها على أرغفة من الخبز اقترضها وليس في جيبه درهم واحد، ولكنه كان يشعر مع ذلك بأنه هانئ سعيد، وعرف أن خدمة الكنيسة لم تثر في نفسه هذه النشوة الغامرة التي أثارها فيها الفن الخلاق

وانقضت شهور أخرى ثم مرض "فنسان" فلازم الفراش محموماً غائر العينين، وعلى هذه الحال وجده شقيقه "تيودور"– وكانوا يلقبونه "تيو"– الذي جاءه فجأة دون أن يخطره بمقدمه.. وكان "تيو" في الثالثة والعشرين من عمره، ولكنه كان تاجراً ناجحاً يبيع الصور في باريس وينعم ببسطة في الرزق، ويستمتع بكل مباهج الحياة.. فساءه أن يجد أخاه ضحية الحاجة والمرض، وكان يحبه حقاً وينزله من نفسه منزلة خاصة، فصمم على انتشاله من هذا الجحيم، وقال له: "اسمع يا فنسان.. إذا كنت قد اهتديت حقاً إلى العمل الذي تحبه وتتقنه، فلم لا نكون شركة بيننا؟ أنت تقدم العمل، وأنا أدبر المال اللازم، وفي استطاعتك أن تعيش حيث تشاء: في باريس، أو أمستردام، أو لاهاي.."

واستقر "فنسان" في "لاهاي" حيث تتلمذ على المصور المعروف "أنطون موف" واستأجر "ستوديو" بمائدة ومقعدين و"بطانية"، وعكف على الرسم. وكان الفنان الشاب ينام في الأستوديو على الأرض ويقاسي آلام الوحدة. هذا فضلاً عن أن النماذج التي كان بحاجة إليها ليصورها كانت تكلفه ثمناً غالياً، وربما تأخر وصول الفرنكات المائة التي يمده بها شقيقه "تيو" كل شهر فيفلس وتضيق به السبل، ويتمنى لو أن القدر من عليه بلحظة واحدة يستطيع فيها أن ينعم مرة في حياته بالراحة والاطمئنان

وتلقى "فنسان" أول طلب للوحاته من عمه كورنيليوس فإن جوخ تاجر الصور الفني، طلب منه اثني عشر لوحة، كل واحدة بفرنكين ونصف فرنك!.. فسر "فنسان" بذلك أيما سرور، وبعث بالصور إلى عمه على الفور، غير أنه اضطر أن ينتظر طويلاً حتى يتلقى الفرنكات الثلاثين!

ومضى الصيف، وكان "فنسان" يغادر البيت في الصباح المبكر فلا يعود إلا بعد حلول الظلام، غير أن الشتاء ما لبث أن جاء فاضطره إلى العمل في البيت، الأمر الذي كان يضطر الفنان إلى أن يستيقظ في الساعة الخامسة صباحاً ليعني بشئون البيت!

وأخيراً أقبل الربيع، وكانت أحواله قد زادت سوءاً، فكتب إلى شقيقه خطاباً قال فيه: "عزيزي تيو، ذهبت إلى مدينة آرل، أرجو أن تعلق بعض لوحاتي على الجدران حتى لا تنساني. أقبلك.. فنسان"

وفي آرل، خلبت لبه ألوان الريف الجنوبي، فأخذ يسائل نفسه: "كيف يرسم هذه الألوان الرائعة؟ السماء ذات اللون الأزرق العميق، والشمس ذات الصفرة الوهاجة، وحمرة الأرض، وأزهار البساتين؟.." وراح الفنان يستيقظ كل صباح قبل الفجر، ويعود في المساء يحمل تحت ذراعه لوحة قد أتم رسمها!.. وكانت كل لوحة يرسمها ترجمة رائعة خالدة للطبيعة الوهاجة، ولم يكن يحيا حياة شخصية، وإنما كان أداة عمياء للرسم، أداة تعمل لأنها لا تستطيع الآن أن تعمل. كانت حياته شيئاً واحداً لا غير: القدرة الهائلة على الخلق والإبداع

وانتابه الأرق ذات ليلة، فقصد إلى "الميزون دي توليرانس"، وهناك تسللت إلى جواره فتاة قالت له وهي تبتسم: "إنني أدعى راشيل".. ونظ إليها "فنسان" فوجدها جميلة الوجه ذات عينين واسعتين زرقاوين وشعر أسود في لون الفحم، فقال لها:

– إنك رائعة الجمال يا راشيل!

فابتسمت له الفتاة وتناولت يده وهي تقول:

– إنني أحب أن يعجب بي الرجال، فكم هذا جميل.. أليس كذلك؟

وحينما هم الفنان بالانصراف، قبلت الفتاة أذنه ثم قالت:

– إن لك أذناً صغيرة جميلة كأنها أذن جرو!.. تعال لتراني كل ليلة فقال فنسان:

- ليس كل ليلة يا راشيل، فليس معي المال اللازم لذلك..

فقالت الفتاة:

- إذا لم يكن معك المال فأعطني أذنك إذن.. إنني أحب أن ألعب بها!

وودعته الفتاة وهي تقول: "لا تنس أن تبعث إلي بأذنك الصغيرة"

وظل الفنان يعمل طيلة الصيف بكل طاقته حتى كاد يقتله العمل، ونفذ ما كان يملكه من المال مرة أخرى فعاش أربعة أيام على ثلاثة وعشرين قدحاً من القهوة ورغيف واحد من الخبز

وقاده الحظ ذات مرة إلى بيت أصغر، وهو بيته الأصفر الشهير الذي أحبه الفنان حباً جارفاً، وكان البيت قائماً بذاته، وأرضه من البلاط الأحمر. وجدرانه بيضاء، وواجهته إلى الشمس. وكان إيجاره بخمسة عشر فرنكاً في الشهر!

كان البيت واسعاً، فما أبدع أن يستقدم إليه صديقه الفنان الشهير جوجان!.. أما تيو فينبغي أن يجيء إليه دائماً ليقضى معه أجازته!

وجاء جوجان، وكان لقاء حاراً صاخباً بين الصديقين، غير أنهما ما كادوا يستقران في البيت حتى أخذا يختلفان في آرائهما نحو الفن، فكانا بالنهار يقذفان بعضهما بألواح الألوان، وبالليل تتصارع شخصياتهما صراعاً

شديداً. ولجأ الفنانان إلى شراب "الإبسان" لتسكين أعصابهما ولكنه زادهما ثورة

وذات ليلة، كانا في أحد المقاهي، فتناول "فنسان" قدحاً وقذف بها في وجه جوجان، فاتقاها جوجان وحمل صديقه إلى البيت. وبقي فنسان بعد ذلك الحادث هادئاً عدة أيام، وحينما كان الصديقان يتناولان عشاءهما ذات ليلة في صمت واكتئاب غادر جوجان البيت دون أن ينبس بكلمة واحدة!

وحينما وصل جوجان إلى خارج البيت، سمع خلفه وقع خطى سريعة قصيرة يعرف صاحبها جيداً، فالتفت إلى الوراء فوجد صديقه يتحفز للهجوم عليه وقد أمسك في يده بموسى حادة!.. وهجم عليه فنسان فاستدار جوجان على عقبيه في سرعة.. وفجأة، وقف فنسان يحدق في صديقه لحظة، ثم انكفأ يعدو إلى البيت. وقضى جوجان هذه الليلة في أحد الفنادق

وبعد ذلك بقليل من الوقت شاهده الناس يتوجه إلى "الميزون دي توليرانس" ورأسه معصوبة بضمادات كثيرة، فلما بلغه الفنان أخذ يبحث بين الموجودين عن راشيل، ورأته الفتاة فأسوعت من فورها نحوه وهي تقول: "أنه أنت أيها المجنون ذو الأشعر الأحمر؟.. هل ستأتي الآن معي؟"

فأجابها فنسان قائلاً وهو يمد يده إليها بلفافة مربوطة:

– كلا، ولكن إليك هذا التذكار

- كم أنت لطيف حقاً!.. ما هو هذا التذكار؟

- افتحي وانظري ما بداخل اللفافة!

فحلت الفتاة الرباط، فظهرت على وجهها أروع مظاهر الرعب، فقد وجدت بداخلها أذن يقطر منها الدم!.. وسقطت الفتاة مغشياً عليها على درجات السلم

وحينما استيقظ الفنان في اليوم التالي وجد شقيقه تيو إلى جوار فراشه، فراح يبكي وينتحب في مرارة وهو يقول: "عزيزي تيو.. حينما أستيقظ وأحتاج إليك أجدك دائماً إلى جواري!"

وظل تيو صامتاً لا ينبس بكلمة

***

وبعد أسبوعين، أذن الطبيب للفنان بأن يواصل الرسم، ولكنه حذره بشدة من الإغراق أو التهاون. ومضت عدة أسابيع، ثم حدث أن كان فإنسان ذات ليلة في أحد المقاهي، وإذ به يدفع الطبق إلى الأرض ويركل المائدة بقدمه ثم يثب وهو يصيح قائلاً: "إنكم تريدون أن تسموني"

وحضر اثنان من رجال الشرطة وحملاه إلى المستشفى، وما لبث

الطبيب بموافقة تيو وبناء على رغبة فنسان نفسه أن قرر إدخاله مستشفى "سان ريمي" للأمراض العقلية، وهناك أوصدت الأبواب على الفنان العظيم

ولاحظ فنسان فيما بعد أن النوبات التي تعتريه دورية، وأنها تنتابه مرة كل ثلاثة أشهر. وذات يوم وصلته رسالة مسجلة من شقيقه تيو يقول فيها: "أخيراً، بيعت لوحتك– الكرم الأحمر– بأربعمائة فرنك، فأهنئك. وإنني لواثق من أن لوحاتك سوف تباع قريباً في كل مكان في أوربا"

وكان هذا المبلغ هو أكبر مبلغ تلقاه الفنان في حياته، فتحسنت صحته وأحواله النفسية، وأقبل على العمل في حماسة منقطعة النظير، غير أنه صار يحتاط بعد أن عرف مواعيد النوبات، فكان يرقد بضعة أيام، ثم ينهض مرة أخرى ويعكف على العمل

وقبل أن تعتريه إحدى النوبات بيومين، احتاط لها الفنان فأوى إلى فراشه وهو في صحة جيدة. وجاء يوم النوبة المنتظر، ثم انقضى بعده يوم آخر، ولكن "فنسان" كان لا يزال يحس بأنه في حالة طبيعية. ومر يوم ثالث لم يحدث فيه شيء، فضحك الفنان وقال: "ألم أقل إن الطبيب قد أخطأ؟.. لقد ذهب عني المرض وتم لي الشفاء، وغدا أعود إلى الرسم"

وفي الليلة ذاتها، نهض "فنسان" من فراشه، وكل من في المستشفى نيام، ونزل حافي القدمين إلى مخزن الفحم فلوَّث يديه ومرغ وجهه في ترابه ثم راح يقول: "ألا ترون أنني الآن واحد منهم؟.. الآن أستطيع أن أبلغ عمال المناجم كلمة الله!". وعثر عليه الحراس في الفجر بالمخزن وهو

يهمس بصلوات مضطربة مختلطة، ويرد على أصوات وهمية كان يتوهم أنها تتحدث إليه!..

***

وقضى "فنسان" في مستشفى "سان ريمي" ثمانية عشر شهراً، واستقر عزمه أخيراً على أن يغادر المستشفى، إذ كان يتطلع إلى ضوء أكثر توهجاً ويتوق إلى صحبة زملائه من الفنانين بعد أن ضاق صدره بنزلاء المستشفى من المجانين. واقترح عليه صديقه الفنان "بيسارو" أن يتوجه إلى بلدة "أوفير سيرواز" Auvers-sur-Oise لأن بها طبيباً يدعى الدكتور "جاشيه" مغرم بفن الرسم إلى حد الجنون، بل ويمارس الرسم بنفسه

وفي الطريق إلى بلدة "أوفير" في أواخر مايو عام ١٨٩٠م، عرج الفنان على باريس حيث زار شقيقه "تيو" فوجد أنه قد تزوج وأصبح رباً لأسرة، فأحس "فنسان" بمدى عمق وحدته، وخشي في الوقت نفسه أن ينقطع عنه عون أخيه، غير أن موقف "تيو" من شقيقه لم يطرأ عليه أي تغيير

وفي بلدة "أوفير"، استأجر "فنسان" غرفة صغيرة فوق مقهى "رافو" وعكف على الرسم في حماس لم يسبق له نظير، وقد أثر فيه جمال الريف وخضرة الحدائق أيما تأثير، فضلاً عن ذلك الاستقبال الحافل الذي استقبله به الدكتور "جاشيه"

وفي السادس من يوليو عام ١٨٩٠م، قام الفنان بزيارة أخيه "تيو" وزوجته وطفلهما "فنسان" مرة ثانية في باريس، فأكدت تلك الزيارة في ذهنه أنه لا ينبغي عليه أن يظل عبئاً على أخيه، فكتب إلى "تيو" يقول: "إنك عاونتني يا أخي كثيراً، وآثرت الفقر لتعولني. وأرى من واجبي إن أرد ما أنفقت على أو أن أسلم الروح، وأوثر الموت على الحياة. ترى هل آن الأوان لينظر "فنسان" إلى الموت وجهاً لوجه؟!.. وعكف "فان جوخ" خلال النصف الثاني من الشهر نفسه على رسم لوحته الأخيرة الرهيبة: "غربان تطير فوق حقل من القمح". وفي اليوم السابع والعشرين، حمل "فنسان" أدوات الرسم ساعة الأصيل، وانطلق بها إلى حقل القمح الأصفر، وهناك في أعلى التل، رفع وجهه إلى الشمس وأطلق على صدره رصاصة من مسدس كان يحمله!

ولم تصب الرصاصة قلب "فنسان"، فعاد إلى مقهى "رافو" وقد عنى بأحكام ربط أزرار سترته حتى لا تفضح الدماء المتدفقة أمره، ومر من أمام السيد "رافو" صاحب المقهى، وكان جالساً مع زوجته في مدخل المقهى، فنظرت إليه المرأة في دهشة ثم قالت لزوجها في قلق بعد أن اختفى الفنان الشاب داخل البناء: "أرجوك أن تصعد بسرعة لترى ماذا به!"

وما كاد الرجل يدخل غرفة "فان جوخ" حتى وجده ممدداً في فراشه ووجهه تجاه الجدار وقد لوث الدم سترته، فقال له الفنان في بساطة وهدوء: "لقد أردت أن أقتل نفسي فأخطأت الهدف.. هذا كل ما هنالك!"

وقرر الدكتور "جاشيه"، كما قرر معه طبيب "أوفير"، أن إخراج الرصاصة من صدر "فنسان" أمر محال، وأراد الرجل أن يطمئن الجريح فأخذ يحدثه عن الخطأ الذي ارتكبه في حق نفسه، فلم يزد هذا على أن قال له في بساطة: "آه!.. حسناً!" وطلب أن يحضر له غليونه، ولما سئل عن عنوان سكن أخيه رفض أن يشير إليه بكلمة واحدة!

وقضى "فنسان فان جوخ" ليلته وهو يدخن في صمت، صابراً على آلامه، وكان السيد "رافو" وابن الدكتور "جاشيه" يتناوبان السهر عليه

ولما أقبل رجال الشرطة للتحقيق في الصباح اكتفى الفنان الجريح بأن تمتم قائلاً: "إن هذا لا يعني أحداً سواي!"

وكان "تيو" قد أخطر بما حدث على عنوان المتجر الذي كان يعمل به فأسرع من فوره بالمجيء وقد أذهله النبأ وعصفت به الأحزان، فقال له فنسان في مزيج من الهدوء والحنان: "علام البكاء يا أخي؟.. إنما فعلت ما فعلت ابتغاء لخير الجميع!"

ودار بين الشقيقين حديث طويل باللغة الهولندية. وانقضى بعض الوقت ثم سأل "فنسان" أخاه عن رأي الأطباء في حالته فطمأنه "تيو" وأكد له أنه سيتماثل عاجلاً للشفاء، فلم يزد الفنان الشاب على أن قال: "لا جدوى من ذلك، فسوف تدوم الأحزان!"

وأتى ليل جديد فأخذ "فان جوخ" يحتضر في هدوء.. وانتبه الشاب من شروده فجأة وقال لأخيه: "هكذا أريد أن أنتهي" ولا غرو فقد كان الموت بالنسبة إليه أكثر هدوءاً ووداعة من الحياة.. وقضى نحبه دون أن يقاسي مزيداً من الآلام، فلفظ آخر أنفاسه في منتصف الساعة الثانية صباحاً في التاسع والعشرين من شهر يوليو عام ١٨٩٠م.. قضي نحبه ولم يتجاوز من عمره السابعة والثلاثين

وعلق أصدقاء الفنان الراحل لوحاته في الصالة الكبرى بمقهى "رافو"، ووضع نعشه على منصة عالية تحف به الزهور ومن بينها باقة من زهور عباد الشمس، ووضع الحامل الذي كان يستعمله في الرسم أمام النعش، كما وضعت "الفرش" وأنابيب الألوان، التي كانت متعته الكبرى وسعادته الوحيدة في هذه الحياة

ولفجانج أماديوس موزار "الموسيقار النمسوي العبقري"

وقال موزار لمن حوله، وهو يعاني سكرات الموت:

- ألم أقل لكم إنني لم أؤلف اللحن الجنائزي إلا من أجل نفسي وارتسمت على شفتي الفنان العبقري أنغام النفخ في الصور يوم القيامة كما صورها في هذا اللحن الحزين الذي ختم به حياته كفنان، وحياته كإنسان إلى الأبد..!

وكان قبيل وفاته قد أصيب بداء الحمى، فأثر في صحته، وزاد من ضعفه وهزاله، وجاءه في ذلك الحين شيخ غريب، عابس الوجه، قد وضع شارة الحداد على قبعته وذراعه. وقدم له رسالة يقول فيها كاتبها أن زوجته توفيت، ويريد من الموسيقار أن يؤلف له قداساً يلقى في ذكراها بالكنيسة. وهو مستعد لدفع ما يطلبه من المال نظير ذلك العمل الفني. فقرأ موزار هذه الرسالة. ولما انتهى من قراءتها قال للشيخ الغريب:

- إن الرسالة خالية من التوقيع..!

فأجابه الشيخ:

- ليس ذلك بالأمر المهم.. ما دمت قد جئتك بها..!

فقال موزار:

- ومن تكون أنت أيها الشيخ؟..

فأجاب:

- أنا رسول مكلف بأن أعود بالرد، وأن أدفع لك ما تريد إذا شئت!

فتعجب موزار، وأخذ يفكر، ودارت برأسه خواطر كثيرة. وكان قد أمضى حياته القصيرة لم يؤلف فيها لحناً جنائزياً، وكان يتمنى لو أتيح أن

يقدم من إنتاجه شيئاً من الموسيقى الدينية والألحان الجنائزية التي لا تقل أهمية عن فن الأوبرا

واتفق مع الشيخ على وضع هذا اللحن. ثم قال له:

- سأضع اللحن المطلوب، ولكني لا أستطيع أن أعين لك اليوم الذي أقدمه فيك إليك!..

قال الرجل: "لك ما تريد من الوقت الكافي للتلحين، وليس في الأمر عجلة. وما هي قيمة الأجر؟.."

فأجاب موزار: "أربعون جنيها.."

فأخرج الشيخ المبلغ وقدمه إليه قائلاً:

- إني مكلف بأن أدفع لك المبلغ حالاً. وعند تسلمي اللحن سأقدم لك مبلغاً آخر..!

- إلى من أرسل اللحن بعد إنجازه؟..

- سأحضر أنا لأتسلمه بيدي..

وانصرف الشيخ الغريب بعد ذلك. وقد عرف المؤرخون فيما بعد أن مرسل هذا الشيخ وصاحب الرسالة، هو "الكونت فالسيج"، وكان هذا

الكونت مولعاً بتكليف مؤلفي الموسيقى أن يضعوا له الألحان سراً. ثم ينتحلها لنفسه، ويدعى أنها من تأليفه..

***

كان ذلك في يوم من خريف عام ١٧٩١م، وكان نجم حياته يزداد سرعة وتوهجاً وهو منطلق إلى الظلام الأبدي. وقد بلغ العام الخامس والثلاثين من عمره، وأدركه الداء في مدينة فينا. وعلى الرغم من ذلك قام في صيف ذلك العام بتلحين الأوبرا الشهيرة: "الناي السحري" فجاءت تحفة فنية رائعة، حفلت بأعظم الأنغام، وأبرع الفن..!

وكان قد لحنها استجابة لرغبة صديق له، كان مديراً لكثير من مسارح النمسا. وهو "عمانويل شيكانيدر". ثم صار مديراً لأحد مسارح فينا. وقد حالفه النجاح طويلاً، ثم عبس الدهر في وجهه، وأصيب بالبوار والفشل، فلجأ إلى موزار، وكان قد سئم الحياة، وما عاناه من بؤس، وما رآه من جحود لعظمة الفن، وحسد من زملائه، وفشل في النمسا وفي مدينة فينا بالذات حيث وصلت به الحال إلى أن يرهن حلي زوجته "كونستانسه" ومتاعه، وأن يموت أولاده الكثيرون واحداً بعد واحد، ما عدا ابنه البكر "كارل"، فريسة للفقر والأمراض.. حتى كان يقول:

– إن الموسيقى فن لا خبز فيه..!

فلما جاءه صديقه وهو على هذه الحال رحب به قائلاً:

- صديقي شيكانيدر.. أهلاً وسهلاً.. إنني لم أرك منذ زمن طويل. كيف حال؟..

- حالي سيئة جداً يا صديقي، لقد فشلت بعد ما شهدت من النجاح والإقبال على مسرحي كثيراً.. إن سباق الخيل، ودور الملاعب "الاراجوز"، والأعمال البهلوانية التي يتفكه بها الناس، قد صرفت الناس عن مسرحي. ومهما قدمت لهم من مسرحيات غنائية أو هزلية،يظل المسرح خالياً طول الليل...

فابتأس موزار لهذا الخبر المحزن، واستولى عليه الأسى لهذه الحال، وكان يعرف مبلغ الإقبال الذي كانت عليه مسارح صديقه، وما كان يتمتع به من النجاح وسعة الثراء، حتى كان يعيش عيشة الأمراء، ويعد في طليعة الطبقة الراقية، وامتد بموزار الأسى فسأل صديقه والدموع تكاد تنهمر من عينيه: "وهل هذا حقا.. إنني أكاد لا أصدق؟!"

فقال شيكانيدر:

- إنني يا صديقي لا أقول إلا حقا. وليس هنالك في العالم كله إلا شخص واحد يستطيع أن ينقذني مما أنا فيه، هو أنت يا موزار..!

فأجاب موزار في إشفاق وصوت حزين:

- أنا؟.. كلا.. إنني لا أملك شيئاً.. وأنت أعلم الناس بما أعانيه من حرمان!..

- لست أطلب منك معونة مالية، إنما أطلب معولة فنية.. إني أريد أن تلحن أوبرا خاصة لمسرحي بفينا.. وهذا ما أراه المعونة الكافية لإنقاذي من الفشل والديون!..

- لقد آليت بعد ما رأيت من جحود فينا، ألا ألحن لها أوبرا..

فبكى شيكانيدر؛ وأقبل على موزار والدموع تنهمر من عينيه، ووضع يده على كتفه، وقال:

- يا عزيزي موزار.. إني أعهد فيك العطف والمودة والوفاء.. وإذا تخليت أنت عني في هذا الوقت العصيب، فمن ذا الذي أطمع في نجدته؟!

فتأثر موزار من هذا القول، ومما رأى صديقه فيه من حال بائسة، وكان طيب النفس، مرهف الإحساس.. فسأل شيكانيدر:

- كيف تريد أن تكون هذه الأوبرا؟..

فأجابه:

- أريد أن تكون أوبرا لا مثيل لها تسحر أهل فينا، وكل من شاهدها من المدن الأخرى، بل تكون أوبرا خالدة خلود ما لحنته في حياتك من أوبرات رائعة. وسأقدم لك الموضوع بعد بضعة أيام..

فقال موزار في مودة وترحيب:

- سأحقق لك يا صديقي كل ما تريده، وسأبذل كل جهدي لتكون أوبرا فريدة..

فأقبل عليه شيكانيدر يضمه إلى صدره، ويقبله في وجهه وهو يقول:

- إني أهنيء نفسي، فقد أنقذت!..

***

وبعد نحو ثمانية أيام أقبل شيكانيدر إلى موزار، وسلمه المسرحية التي ألفها ليضع لها الأوبرا، وفي اليوم الثاني من تسليمه هذه المسرحية حضر إليه، وسأله رأيه فيها.. فابتسم موزار وقال له: "لقد قرأتها فوجدتها كخيالات مجنون، لا يستطيع الإنسان أن يدرك كنهها، أو يفهم لها معنى، ولن يعرف أحداثها هل تجري في الأرض أو تمثل في السماء. إنها مملوءة بأناس لا شخصية لهم ولا جنسية، ومناظر يتداخل الواحد منها في الآخر بلا نظام أو ترتيب مفهوم"(٣٣)

فقاطعه شيكانيدر قائلاً:

- أليس في كل هذا ما يوقظ قوة الخيال في الجمهور، ويثير عجبهم ودهشتهم.. وما رأيك في روعة النظم؟..

(٣٣) عن كتاب موزار للدكتور محمود الحفني

فأجاب موزار في تهكم شديد:

- حقاً.. إن النظم رائع.. انظر إلى قولك فيه: "المرأة تعمل قليلاً، وتتكلم كثيراً".. أيها الصبي هل سمعت بدمية تتكلم!..

- صدقني يا موزار، وأنا خبير بشئون المسرح، عالم بذوق أهل فينا أن هذا خير ما يتفق وذوق العصر الذي نعيش فيه، وسوف ترانا نستولى على حس الجمهور وسمعه

- والزوجان اللذان نصفهما إنسان، ونصفهما طائر، كيف يظلان في ديالوج كامل، لا يغنيان إلا مقطعاً واحداً هو: بابا.. بابا.. بابا.. الخ؟

- أليس في هذا ابتكار منقطع النظير؟.. وتجديد لم يره الجمهور من قبل؟..

ولما وجد موزار أن حواره مع شيكانيدر في هذا الشأن غير مجد طوي حواره معه، وأبدى موافقته على تلحين الأوبرا، وختم الحديث بقوله:

- سألحن لك المسرحية، ولو أنني سأضحك من نفسي أثناء التلحين!

***

وأقبل موزار على تلحين أوبرا "الناي الساحر" بما أعطى من موهبة ونبوغ، وكان شيكانيدر يزوره من وقت لآخر، ويستمع إلى ما أنجزه من

تلحين، وقد يتدخل في تعديل بعض الألحان أو يطلب إليه تبديلها بحجة أنها لا تتفق وعقلية الجمهور، وكان يقول له:

- نريد أن يستمتع الجمهور باللحن، لا أن يفكر فيه، ولابد أن نستهوي عواطفه وحواسه ونكسبها.. يا عزيزي موزار.. قدم إلى الناس ما يشتهونه وما يستطيعون قبوله ويدفعهم إلى الإقبال عليه. أن شعب فينا شعب مرح ميال إلى الفكاهة والتسلية والسمر، فإذا فكر لا يميل إلى التفكير العميق

فقال له موزار، وهو ينكر عليه امتهان الفن وخروجه على رسالته:

- إن للفن يا شيكانيد رسالة أشرف من ذلك. يجب أن يرقى الفن بالشعب، لا أن ينزل إليه، ويتخذ وسيلة للكسب والاستغلال. ويجب أن يسمو الفنان بفنه إلى منازل الحقيقة والخلود

قال شيكانيدر:

- أعرف ذلك يا موزار حق المعرفة، وأعلم أن للفن رسالة شريفة.. ولكن ينبغي أن نقود الناس في هوادة، وأن يكون إرشادنا لهم إلى حقيقة الفن بالتدريج.. الفنان يا موزار كالطبيب يصف دواء مريراً، ولكنه مفيد يتعاطاه نقطة نقطة، فإن زادت الجرعة انقلبت النتيجة إلى عكسها، وفضل المريض الداء على مرارة الدواء. فما بالك لا تريد أن يتجرع الشعب كأساً فكأساً، وتريد أن يتعاطى الزجاجة كلها دفعة واحدة إنك إذن تحمله ما لا طاقة له به

وكان شيكانيدر يسترسل في إقناع موزار قائلاً:

- خفف يا موزار عن غلوائك، وأبعد عن خاطرك التفكير في القيصر والبلاط، والأوبرات الإيطالية، فقد تبينت أن هذا الطريق لا يزيدك إلا فشلاً. واتجه إلى الشعب، وفكر فيه وحده، واكتب له تأليفاً من الألحان يجمع بين الحقيقة والجمال، ويناسب عقليته وذوقه. ولقد تعمدت أن يكون موضوع الرواية شيئاً غريباً، حتى يحرك قوة الخيال في الجمهور، إذ أنه كلما كان الموضوع مألوفاً للناس، لا يغذي خيالهم ولا يثير دهشتهم كان ذلك أدعى للفشل

استمع موزار في النهاية إلى صديقه شيكانيدر، وكأنه في حلم، ونزل على رأيه في تبسيط التلحين مع الاحتفاظ بعلو الفن، وما أمتاز به موزار من عبقرية مكنته من أن يرضى رسالة الفن، وأذواق الجماهير..

***

كانت أوبرا "الناس الساحر" هي آخر أوبرا مسرحية لحنها للناس.. ثم كان اللحن الجنائزي أو قداس الحداد، وهو آخر ما ألفه وهو على فراش المرض لذلك الرسول الذي بعثه "الكونت فالسيج" قبيل وفاته ليظفر منه بلحن ينتحله لنفسه كما كانت عادته مع بعض الفنانين.. وكان موزار حين جاءه الرسول يعرض عليه مكافأة هذا اللحن في ضنك شديد، ولكنه رأى فيه معونة غير منتظرة في وقت حالك، لولا أنه شعر بانقباض في نفسه بعد انصراف ذلك الرسول المتنكر

وكان وقتئذ معتزلاً الناس، عاكفاً على العمل لفنه.. ولقد أثر ذلك في صحته، فأخذ جسمه في النحول والهزال. وزاد من ضعف صحته سوء حالته النفسية، وشعوره المرير بعدم فهم الناس له، وتقديرهم لفنه، فلقد أهدى إلى الناس أعمالاً خالدة، وهو مع ذلك محسود محروم. ولقد وجد موزار في القيام بهذا اللحن فرصة سانحة ليودع فيه كل آلامه من الحياة، ومن متاعب الدنيا، ويتجه إلى الله بالإخلاص والتضرع إليه فيما يصوغه من الألحان في هذا القداس الديني

أقبل موزار على تلحين "قداس الحداد"، وأودع فيه كل ما يشعر به من أشجان، وابتهالات وضراعة إلى الله: ووصف لما في هذه الحياة من شقاء، وما يستقبله الإنسان في حياته الأخرى من سعادة ونعيم. وبذل فيه جهداً زاد من ضعف صحته وآلامه، فشعر بهبوط مطرد في قواه واقتراب من نهايته، فقال: "أحس أني أكتب هذا القداس لنفسي"

ولكنه كان كبير الحرص على إنجاز هذا القداس، فواصل العمل فيه ليلاً ونهاراً. وعبثاً حاولت زوجته "كونستانسه" أن تصرفه عن هذا المجهود المضني احتفاظاً بالبقية الباقية من حياته، ولكنه كان يحس برغبة ملحة في إنجاز القداس. وكانت هذه الرغبة تتضاعف كل يوم حباً في أن يكون هذا اللحن الجنائزي آخر ما يتقرب به إلى الله

وفرغ موزار من تأليف "قداس الحداد" فاستدعى طائفة من أصدقائه وتلاميذه لإلقائه.. فحضروا، وقاموا بأداء ألحانه عزفاً وغناء، وكان موزار

يغني معهم ممسكاً ورقة بيده يقرأ منها، وكان تلميذه "زيسماير" بعزف على "البيان". وبينما الجمع منشغلون بالأداء خارت قوى الفنان، وسقطت الورقة من يده، ولم يعد في استطاعته متابعتهم..!

كان ذلك في يوم ٤ ديسمبر عام ١٧٩١م، ونقل إلى فراشه منهوك القوى وكأنما هو هيكل أو دمية جامدة. وقد أخذ يهذي وهو على فراش الموت، ثم ينظر إلى ساعته، ويقول:

- الآن يرفع الستار.. الآن يجتازون النار سالمين على أنغام الناي السحري..

وإذ تنبه قليلاً رأي شقيقة زوجته قد أقبلت لزيارته، فقال لها:

- أقيمي عندنا الليلة، فهي آخر ليلة في حياتي...

واشتدت الحال، وأخذ يعاني سكرات الموت، وعاده الطبيب غير مرة، ولكنه عجز عن علاجه، وفاضت روح موزار في الساعة الأولى من صباح ٥ ديسمبر عام ١٧٩١م

واجتمع أصدقاؤه وتلاميذه لتشييع جنازته في يوم ٦ ديسمبر. ولما خرجوا به إلى القبر تلبد الجو وأومض البرق وعصفت رياح شديدة وهطل مطر غزير، فعاد المشيعون أدراجهم إلى بيوتهم، ولم يقو على تشييع جنازته غير خمسة من أصدقائه. كان من بينهم تلميذه المخلص "زيسماير" ولكن هؤلاء حال بينهم وبين ملازمة الجثمان إلى القبر طول الطريق، وازدياد

العواصف والأمطار، فاضطروا مكرهين إلى العودة، ومضى الحوذي بمركبة الموتى وفيها الجثمان بلا مشيع ولا رفيق، فما كان من الحوذي الذي أراد اختصار الطريق إلا أن مضى بالجثمان إلى مقابر الصدقة، وفي حفرة مجهولة بين موتى مجهولين دفن أكبر عبقرية موسيقية عرفها سائر العالم

لودفيج فان بيتهوفن "الموسيقى الفنان الألماني"

واشتدت العلة بالفنان النابغ، واجتمعت عليه آلام الداء الوبيل الذي احتل رئته، وأصابه بضعف شديد، وآلامه النفسية التي كان يعانيها من سيرة ابن أخيه "شارل" السكير السيئ الخلق الذي مات والده، وتركه لبيتهوفن يعوله ويصلح فيه ما أفسده الدهر، بلا أمل في إصلاحه، ولا فائدة في إعالته والصرف عليه، وكان يضطر في كثير من الأحيان للذهاب بنفسه لينتزعه من إحدى الحانات في الأحياء الحقيرة، فيهب هذا الشاب الفاسد في وجه عمه صائحاً:

- فلتذهب إلى الجحيم أيها الأصم العجوز.. إنك قذر دميم بخيل، وأنا أخجل أن أراك أو أسير معك..!

وكان بيتهوفن الذي لا تصل هذه الشتائم إلى سمعه لفقده إياه، منذ كان في السادسة والعشرين، يبتسم للشاب في عطف وحنان..

وذات يوم حاول "شارل" الانتحار، فكان ألم عمه عظيماً. وقال والدموع تترقرق في عينيه:

- إنني كنت أعتبره كابني تماماً.. أما وقد حاول الانتحار، فهذا يعني أنه لا يحبني..!

وبلغ الفنان سن الخمسين، وهو في هذه الحال البائسة الكئيبة. وعلى الرغم من همومه، ومتاعبه الشديدة، فقد كتب أروع "سوناتاته" وهي رقم ١٠٦، وحينما لم يجد معه من المال ما يكفي لنسخها، كتب إلى أحد الناشرين يقول له:

- لقد ألفت هذه القطعة في ظروف مؤلمة جداً لو عرفتها لدهشت من إنني لا زلت أستطيع التأليف.. حقاً كم يصعب على الفنان أن يؤلف لقاء كسرة من الخبز يقيم بها أوده.. تلك يا عزيزي هي حالتي!..

***

وكان قبل ذلك في عام ١٨٠٢م، قد وصل به اليأس من حاله إلى درجة فكر معها في الانتحار، ودفعته إلى كتابة وثيقة تعرف بالوصية. قال فيها:

"يا من تنظرون إلي، وتزعمون إني ناقم على الناس، لشد ما تظلمونني إنكم لا تعرفون السبب الخفي الذي يجعلني في نظركم بهذا المظهر. لقد كان عقلي وقلبي منذ الطفولة متجهين نحو عاطفة رقيقة جميلة هي الطيبة. وكنت دائماً مستعداً لأن أقوم بأعمال عظيمة. ولكن صممي الذي مضي عليه عدة سنوات، والذي زاد من خطره جهل الأطباء هو سبب آلامي

وشقائي.. وما زلت أخدع في أمر تلك العاهة عاماً بعد عام أملا في زوالها، ولكنني مرغم الآن على احتمالها كمرض مزمن!..

"ولقد ولدت ذا مزاج حاد، وبي رغبة شديدة للحياة ومباهجها.. ميالاً إلى الاختلاط بالناس. ولكنني وجدت نفسي مضطراً إلى الانطواء والعزلة.. وكثيراً ما حاولت التغلب على ذلك، ولكن التجربة القاسية كانت تصدمني وتجدد الشعور بمرضي، لأنني أخجل أن أقول لأحد: تكلم بصوت عال.. أصرخ فإني أصم!..

"وكيف أجرؤ على إذاعة ضعف حاسة كان يجدر أن تكون عندي أقوى مما هي عند الآخرين.. لقد حرمت من الاجتماع بالناس، ومن المحادثات اللطيفة، والعطف المتبادل، وهكذا حكم على أن أبقى وحيداً!

"لقد خاب أملي في عودة سمعي، ويئست حتى كدت أن أشرع في الانتحار، ولكنه الفن وحده استبقاني. وقد وضح لي أنه من المحال أن أترك هذا العالم قبل أن أتم الرسالة التي أحس أنني مطالب بأدائها، فأرجو ألا تلين قناتي أو تضعف عزيمتي!..

"إنني لن أطلب الموت، وإن كنت أجد فيه راحتي.. أما إذا جاءني، فسوف أواجه في شجاعة. وداعاً أهل الأرض واذكروني بعد موتي، فأنا جدير بكم"

***

وفي بداية ربيع عام ١٨١٥، أصبح صمم الموسيقار العظيم تاماً. وبذلك دفن بدنه عن الناس– دون فنه– في قبر من السكون والعزلة، وأصبح ينظر في فزع إلى هذا الكون العجيب الذي يفتح فيه الناس أفواههم دون أن يسمع منهم شيئاً، وصار هزيم الرعد لا ينفذ إلى أذنيه

ووقعت الطامة الكبرى حينما أراد الفنان على الرغم من صممه أن يقود الأوركسترا بنفسه عند عرض "أوبرا فيدليو"، فقد عرف الجمهور منذ بداية الفصل الأول للأوبرا أن مؤلفها لا يسمع شيئاً، فأصبح الاوركسترا الذي يتبع عصاه في واد والمغنون على المسرح في واد آخر!.. وبدا واضحاً أن الأمر لا يمكن أن يستمر على هذا المنوال، ومع هذا لم يجرؤ أحد على أن ينبه المؤلف العظيم إلى ذلك. وأخذ بيتهوفن يتلفت يمنة ويسرة عسى أن يفهم من تعبير الوجوه المحيطة به من كل جانب ما يبعث الطمأنينة إلى قلبه غير أنه وجد الصمت التام يلف المسرح كله بأكمله. ونادي بيتهوفن على صديقه المخلص شندلر ومد له قلمه ومفكرته وأشار إليه أن يكتب. وخطت يد شندلر وهي ترتجف هذه الكلمات: "أتوسل إليك ألا تستمر في القيادة.. سأوضح لك السبب في المنزل"

فقال الفنان وهو يئن من شدة الألم:

– إذن هذه هي المسألة.. لقد فهمت!..

وبقفزة واحدة أصبح بيتهوفن خارج المسرح!.. وحينما لحق به شندلر في غرفته وجده ملقى على سريره يضرب أذنيه بقبضتي يديه. وكتب

شندلر في مذكراته يقول: "لم ينطق بيتهوفن بكلمة واحدة طيلة تناولنا العشاء. أن هذا الحادث المؤلم قد أصاب قلبه بضربة أثرت فيه تأثيراً جارحاً حتى آخر رمق في حياته!.."

واختفى بيتهوفن بعد ذلك فترة طويلة، ولم يعد أصدقاؤه يسمعون عنه شيئاً، وقليلون هم الذين كانوا يعرفون أنه كان يؤلف وقتئذ أعظم عملين موسيقيين في العالم: "السيمفونية التاسعة والأخيرة"، و"القداس الحزين". وفي السابع من مايو عام ١٨٢٤، في الساعة المحددة للحفل، تذكر بيتهوفن أنه لا يملك حلة سوداء مناسبة، فقال لأحد أصدقائه: "سوف أرتدي حلة خضراء.. أن المسرح سيكون مظلماً ولن يلاحظ أحد ذلك!". وحينما وصل إلى المسرح حاملاً مخطوطه الموسيقى للسيمفونية التي استغرق تأليفها أكثر من ست سنوات، أفسح له الموسيقيون مكاناً بينهم، فجلس الفنان مطأطئ الرأس وهو لا يسمع شيئاً من سيمفونيته الخالدة التي قال عنها نيتشه: "لقد خلق العالم ليستمع إلى سيمفونية بيتهوفن التاسعة!". وعند انتهاء العزف لاحظ بيتهوفن أن الدموع تترقرق في أعين بعض العازفين. وفجأة أمسك به قائد الأوركسترا أو ملوف من ذراعه وأداره تجاه الجمهور. كان الفنان لا يسمع شيئاً ولكنه رأي جمهوراً لا يحصى من الرجال والنساء يشير إليه ويصفق له في حماس منقطع النظير. وترقرقت الدموع في عيني الفنان العظيم!.. وعند نهاية الحفل، علم بيتهوفن أن دخله الصافي لم يعد مبلغاً تافهاً.. لقد بلغ ثلاثمائة فلورين، فقال وهو يكاد يئن من الألم: "رباه!.. إن هذا مستحيل.."

وعادت حياة الفنان بعد ذلك إلى ما كانت عليه: الفقر والمشاجرات مع ابن أخيه. وفي ربيع عام ١٨٢٦ لجأ إلى مزرعة أخيه جوهان طلباً لبعض الراحة والهدوء. وذات يوم من أيام نوفمبر استدعته مشكلة عاجلة للعودة إلى فينا: أن الشرطة تريد أن تطرد شارل من العاصمة لاستهتاره وانحلال خلقه. وأسرع بيتهوفن ليتوسط للشاب لدى السلطات، فسافر- وكان الجليد وقتئذ يتساقط- في عربة بائع للألبان!.. واضطر الفنان أن يقضي الليل في إحدى الحانات في البرد القارس على الطريق، فلما كان اليوم التالي وصل إلى فينا مصطك الأسنان وهو يبصق الدم في منديله. ولزم بيتهوفن الفراش وهو يتنفس في ضيق، ومع هذا لم يجد ابن أخيه داعياً لإخطار الطبيب!..

وصادف أن توجه الدكتور فافروخ لزيارته فوجد الفنان مصاباً في رئته إصابة خطيرة. وفي الخامس من يناير عام ١٨٢٧، وأوصى بيتهوفن بكل ما يملكه لابن أخيه. كان الفنان في حالة شديدة من الضعف، غير أن جسمه القوى كان في صراع شديد مع الموت. وفي العشرين من مارس تمتم بيتهوفن يقول لصديقه هيلر عازف البيانو:

- قريباً جداً سوف أقوم بقفزتي يا هيلر!..

ولم تمض ثلاثة أيام، حتى رأى الدكتور فافروخ أن من واجبه أن يخطر المريض بأن ساعته الأخيرة قد دنت، فتلقى الفنان هذا الخبر وكأنه سيزيح

عنه الآلام جميعاً!.. وجاء القسيس، ولما انتهى من الطقوس الدينية الأخيرة، التفت بيتهوفن إلى أصدقائه وقال عبارته الأخيرة:

"والآن، صفقوا أيها السادة، فقد انتهت المهزلة!.."

وفي السادس والعشرين من مايو عام ١٨٢٧ م بدأ الاحتضار الرهيب. وفي الساعة الخامسة مساء، هبَّت على المدينة عاصفة ثلجية عنيفة، وكأنما أرادت الطبيعة أن تودع رجلها العظيم الذي غنى ألحانها في رجولة وقوة!.. ونفذ قصف الرعد من خلال جدران الغرفة، فسمعه بيتهوفن في هذه اللحظة! وشدد الفنان المحتضر قبضة يده اليمنى ورفعها عالياً ثم تركها تهوى إلى جانبه في سكون.. لقد سكنت اليد التي تركت للإنسانية أعظم ما ألَّف في تاريخها من ألحان، ولم يكن إلى جوار صاحبها الذي يرقد على فراشه المتواضع في غرفته الصغيرة إلا صديقه هوتنبرنر، ذلك الذي حظي بشرف إغلاق عيني الفنان الخالد إلى الأبد!..

وعبر موكب بيتهوفن مدينة فينا في جنازة رسمية على لحن "المارش الجنائزي" من تأليفه، وكان يسير خلف نعشه أشهر فناني فينا وأذرعهم محملة بالورود. وقد وقف جمهور لا يعد ولا يحصى من الرجال والنساء والأطفال يبكون وينوحون..

الفهرس

الباب الثاني

نوابغ من الغرب